

رحلة

سمو الأمير محمد علي باشا
شقيق الجناب العالي الخديوي
إلى الجهة الشمالية لأمريكا

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩١٣

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مكون الأكوان ومدبرها . ومبدع الحوادث ومغيرها .
لا إله إلا هو جعل الآثار دالة على باهر قدرته . ودقيق حكته .
والصلاة والسلام على نبينا محمد خير من أقتله الأرض . وسيد من
أظلمت السماء . أمر بالمهجرة طلبا للعلم ودعى إليها . ورغب في الرحلة
اتساعا للدارك والرزق وحض عليها . وعلى آله وأصحابه الذين جابوا
القفار . واتحموا لبحج البحار . وضربوا في الأرض هاديين .
وجابوها مرشدين . فكانوا كالنجوم هداية في الظلمات برا وبحرا .
أو كالماء مبعثا للحياة تكويننا ونشرا .

وبعد فان ما بلغتة الانسانية من الحضارة والعمران وكل ما شاهدته
بإعجاب في أنحاء المعمورة : ابن فكرة

والفكرة قد زين الخالق بها عقل الانسان وحلاه بسمو المدركة
وأعطاه النطق لتكون له السيادة المطلقة على جميع ماظهر على سطح
الارض وما استتر في باطنها من حيوان ونبات وجماد
واظهارا لتلك السيادة اقتضت حكمة الخالق أن يجعل مخلوقاته كلها

(ب)

من جهة المدارك درجات متفاوتة بعضها أعلى من بعض وأعد
للإنسان المرتبة العليا . اتخذ هذا النظام قاعدة عمرانية لفائدة الإنسان
لينفذ ماقتضاه في حكمه السابق لدى تكوين الوجود من ضرورة
وضع الإنسان في مركز ممتاز سام مشرف على مخلوقاته أجمعين كما
وضع الحيوان في درجة أعلى من النبات والنبات أعلى من الجماد على
ذلك كان مايدركه النبات لا يدركه الجماد وما يدركه الحيوان لا يدركه
النبات وما يدركه الإنسان تعجز حتماً باقي المخلوقات عن ادراكه
ولأجل هذا كان الإنسان بحق سيدها وسلطانها

تدرج الإنسان بما أودع فيه بالقطرة من قوى المدارك والفكر
والنطق في مدارج النمو والارتقاء

فكر أولاً في الوسائل والطرق التي تضمن له قوام حياته ووسط
معتك الوجود . وفكر ثانياً فيما يدفع به الغوائل والعيوادي دفاعاً عن
نفسه . ثم فكر فيما بعد في الحصول على شئ من الهناء والسعادة
وتخفيف آلام ومتاعب الحياة بقدر الاستطاعة .

كان الإنسان عند نشأته الأولى محاطاً بالجهالة من كل جوانبه وفي
كل حوائجه وكان مختلطاً بالوحوش الضارية التي معظمها اندثر مع
تقدم العصور والأزمان . يعيش عيشتها من القشافة والخشونة عارى

الجسم مثلها لا يعرف الا الثمار ما كلاً . و يطون المغارات والكهوف
مرقدا . مضطراً للرحيل عند فراغ تلك الثمار لمكان آخر يجيد فيه
قوته وقوام حياته . والا كان يصادف حتماً حظه لجهله فلاحه
الارض واستثمار خيراتها لمصلحته . ولكن عند ما استخدم ما أودعه
الله فيه من المدارك وقوة التفكير انتقل من حالة الهمجية هذه
الى المدنية ومن حالة الرحلة الى الاستكانة والاستقرار في اقليم سماه
قيا بعد وطنه . ثم تعلم كيف يبقي له مساكن اتقاء الحر والبرد سماها
بعد قرية قديمة قملكة . ثم تعلم الزراعة وفلاحة الأرض ثم الصناعة
ثم تحليل المعادن واستخدامها لقوائده وتعلم الملاحة والتجارة وتمكن
شياً فشيئاً من توفير أسباب الراحة والهناء في عيشته

أوجد العلوم والمعارف وغرضه منها معرفته كيف يعيش فقوى
بها وبالتربية مداركه حتى كادت تزول الغشاوة التي كانت تمنع نظره
من إبصار حقائق هذا الكون الغامض المخوف بالاسرار العديدة
المتنوعة . تمكن بالفكر والاستنتاج وقدم القريحة والنشاط والصبر
والدأب على العمل من كشف بعض تلك الاسرار ومن إيجاد الوسائل
التي سداها احتياجاته الكثيرة الضرورية والكالية حتى وصل لدرجة
ال عمران الموجودة فيها الأمم الحاضرة المتمدنة فهو لذلك مدين

في مدنيته لتلك الصفات وعلى الاخص لقوة الافكار .
 فنيت الاجيال وبقيت الافكار التي سيرتها فتوارثتها العصور من
 بعدها هكذا تفنى الامم وتبقى الفكرة مضيئة طريق العصور التالية
 ولما كانت قوة الفكر مختلفا اختلافا بينا بين الافراد وبين الأمم
 ظهرت بقدر اختلافها ميزة فرد على فرد وتوق أمة على أمة . وما
 نشاهده في عصرنا الحالى من الفروق العظيمة بين درجات التمدن
 والحضارة وال عمران بين أمة الأرض بأسرها انما هونيجة طبيعية
 لازمة للدارك قوة وضعفا وحركة وسكونا وأصالة وخطلا .
 بالفكر تمكن الانسان من قهر الطبيعة على افشاء الاسرار التي تخفيها
 فكان الفكر طلسمًا كشف به مخبأتها ومفتاحا فتح به كنوزها فأخرج
 لنا منها قوى لولاه للثبت في عالم الغيب .
 بالفكر أظهر الانسان أسرار البطار والكهرباء والمغناطيس وعرف
 خواص الاجسام وأدرك علم الميكروب .
 ومن الواضح الجلى المشاهد في جميع أطوار الانسان وحياته منذ
 نشأته أن من كانت فكرته وقادة ومداركة واسعة وكان ذا جد ونشاط
 ومثابرة وجلد ارتقى في مدارج الانسانية وأقصد نفسه وأمنه من حماة
 الهمجية وسار بها شوطا بعيدا في مراق الحضارة وال عمران . وأما

من كان فكره كاسدا ومهته فائرة فلهه وقف بالطبيعة عند حدّ النشأة الأولى ويقى الى الحيوانية أقرب منه الى الانسانية

هذه النظرية تجلّت في الشرق والغرب قديما وحديثا فقد كان الشرق في قرونه الأولى والوسطى مهبط الأديان ومقرّ العرفان ومطلع بدور الأنبياء والمرسلين كما كانت زاهيا زاهرا ببدايع الصنائع والمخترعات . حاليا بمكارم الأخلاق وجميل الصفات يكاد يكون منفردا في الدنيا بسن القوانين الاجتماعية والنظامات العمرانية . وبالجملة فقد كان على سطح الأرض شمسا تنبعث منها أنوار الحضارة وتنتشر منها أضواء المدنية كما كان كعبة يقصدها طلاب العلم من أمم الغرب فيجلدون ضائهم المنشودة من علم مفيد وعمل نافع وصناعة متقنة وزراعة نامية وتجارة رائجة وقوانين محكمة ونظامات قومية . كانوا يجيئون الشرق محاصرا ويرجعون الى بلادهم بطائنا بين طيب خاذق ومهندس بارع وفلكي مطلع وصانع متضلع وزارع خبير وتاجر قدير . وما وصل الشرق الى هذه الدرجة التي أكسبته السلطان والسيطرة على باقى الأمم الا باستعماله قوة المدارك واستخدامها بجدّ ونشاط في مصلحته وقائدته . ولا يتيسر لمن يريد معرفة مقدار ما كانت عليه مدارك الشرقيين من النور والعرفان وأفكارهم من

الاصابة والأصالة وعزائمهم من المضاء والقوة الا اذا تتبع آثار
ذكائهم واستقرى المجهودات الفائقة العظيمة التي بذلوها في فائدة
وتقدم الانسانية والوسائل الكبرى التي استخدموها لقصع الحجب
الكثيفة التي كانت آستر ما اكتشفوه من اسرار الطبيعة

ظهر في الشرق مدنيات كثيرة ترجع كلها الى مصدرين

أحدهما . رقى تدريجي ورأى في الهيئات الاجتماعية

ثانيهما . رقى منبعث عن الفكرة الدينية .

فمن النوع الأول مدنية المصريين القديمة التي من أهم مميزات رقى
الفكر وتوجيهه الى اتقان الصناعة واتجاه العقول الى نور العلم في عصور
مطبقة الظلام .

ويكفي زيارة معاهد الآثار المصرية والمعابد المنتشرة في مصر وعلى
الخصوص في الوجه القبلي لمعرفة مقدار الاتقان الذي بلغته تلك
المصنوعات وللإستدلال على أن جميع الميآكل والاهرامات
والبنائات الأثرية قامت على أدق القواعد العلمية والفلكية

ومن الأول كذلك مدنيات اليونانيين المقتبسة عن المدنية المصرية

ثم مدنيات الاشوريين والفينيقيين والقرطاجيين

أما مدنيات النوع الثاني فقد ظهر في الشرق ثلاثة خضع لمبادئهم

الدينية القسم المتمدّن في العالم .

ظهر أحدهم في مصر وهو موسى عليه السلام . أرسله الله تعالى ليضع للعالم القوانين التي تلائم ذلك العصر هداية من الخالق ونورا لنبى البشر .

وظهر الاثنان الأخيران في الشام وبلاد العرب .

أحدهما عيسى عليه السلام أقام للناس قبسا سبط نوره حتى بهر العالم إذ كان سراج هذا القبس مستخرجا من معدن الآداب العالية والاخلاق الكريمة والرحمة هداية كذلك من الخالق ونورا لنبى البشر أجمعين . ثم ظهر بعده هذا العربى الهاشمى الذى فاق الأنام فى علو المدارك وسمو الافكار كما كان أكبر وأقوى من خدم الانسانية بأسرها بارشاد الناس بالحكم التوجيه والتعاليم الراقية الكريمة التى بعثه الله لنشرها فى كل الكون سلاما وبركة ورحمة للعالمين . بزغ نور تعاليمه الاسلامية من سماء بلاد العرب ثم انتشر فى أرجاء آسيا ومصرعان ما انتقل الى افريقية الشمالية مبتدئا بمصر مارا ببلاد المغرب مجتازا بحر الروم حتى وصل الى أوروبا من مطالع الأندلس . ففك العقول من أسرها وأرشدها الى أن لها حقوقا وعليها واجبات وأضاء لها مناهج الحياة العلية والعملية وعلّمها كيف تنتهجها ففرجت بذلك من

(ح)

الظلمات الى النور ومن الموت الى الحياة بتلك الروح الحديدية روح
المتدّن الاسلامى والذكاء الشرقى .

طافت هذه الروح على البشر منذ ثلاثة عشر قرنا تدعو الناس الى
الاحياء والتعارف بين جميع أفراد المعمورة على اختلاف أجناسهم
ومعتقداتهم وتباين مذاهبهم ومشاربهم . تدعوهم الى التضامن
الانسانى فى كل أطوار حياتهم . تدعوهم الى جعل العدل أساسا
لمعاملاتهم الاجتماعية والسياسية كما تدعوهم الى استعمال الرحمة
والحنان . حاتمة على مكارم الاخلاق حاضرة على التمسك بوسائل
ال عمران وقد رسمت لهم طريقا جديدا لم يسبق له مثال فى السواء
والسهولة وتقريب المسافة فى تحقيق وصول الآمال للسعادة الدنيوية
والنعيم الأبدى .

تنادى تلك الروح الجففس البشرى بأعلى صوتها
« ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل
لتعارفوا »

وتقول لهم

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان »

تقول لهم

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن
 الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »
 كما تقول لهم حاضرة على الحركة والعمل
 « وأن ليس للانسان الا ماسعى وأن سعيه سوف يرى »
 ويقول مهبط تلك الروح صلوات الله عليه « اطلبوا العلم ولو بالصين »
 و « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »
 دين كله تعارف وإخاء وعدل (وعلم ورحمة) و (حركة وعمل وفكر
 وتنبيه) كان من شأن انتشاره فى أرجاء الدنيا أن تيقظ لحكمه الناس
 أجمعون المؤمنون به وغير المؤمنین .

وليس من الغريب أن هذه الحركة الاسلامية كما مدنت الشعوب
 المتبررة وأكسبتهم مدنية أفر لهم بها التاريخ كان لها صدى فى الغرب
 الذى كان حينئذ تائها فى ظلمات الجهالة غارقا فى بلج الحمجية لا يبصر
 الضوء الا من سم الخياط ولا يتنسم الحياة الا من مطلع الشرق لان
 تلك الحركة الاسلامية لم تنجى لتخلص بمزاياها أفراما معينين بل هى
 جاءت لسعادة الانسان من حيث هو انسان .

أفاقت كل هذه الحركات التمدنية الشرقية الغرب من رقدته الطويلة
 التى كان تائها فيها كما أيقظت عزيمته التى طال عليها القنور فارتحل

الشيطنون من أبنائه الى بلاد المشرق واغترفوا من بحاره العذبة ومناهله
الربطبة كل ما كان غريبا منهم مجهولا لديهم من أنواع المصنوعات
والحرف وأخذوا من ذلك الحين يشمرون عن ساعد جدتهم مشتغلين
على الأخص في الماديات متقلين في الصناعة والتجارة والزراعة والملاحة
من سيئ الى حسن ومن حسن الى أحسن ومن كامل الى أكمل .

سار الغرب على هذا النمط المرغوب فيه جدًّا في جميع مرافق الحياة
الضرورية والحاجية والكمالية حتى نال من المنعة والقوة والسلطان الدرجة
التي هو عليها الآن وسبق الشرق في الماديات بعد أن كان مسوقا وساده
بعد أن كان مسودا وحقق الحكمة الشرقية « لكل مجتهد نصيب »
وعجيب أن الغرب في سيره الى الحضارة لم يطرق الأنفس
الطريق الذي بذل الشرقيون وأجدادهم الكرام مهجمهم الغالية
في تمهيده وتنسيقه . وهم لوقوف الفكر الشرقى عند الحد الذي
وصلت اليه مصنوعاتهم ومتاجرهم وملاحظتهم وعدم تقدمهم فيها الى
الأمام بنفس الخطا السريعة التي خطوها في الأدبيات بوجه أعم
وفي علوم الفلسفة والبلاغة والمنطق وعلم الكلام بوجه أخص مضافا
على ذلك تفریط الخلف في المحافظة على متروكات السلف سيما المادية
منها كانوا قد ضلّوا عنه وجعلوا غيرهم من هؤلاء الغربيين الذين

(ك)

كانوا وراءهم فيه بمراحل يسبقونهم اليه واكتفوا بقبول تعويض بسيط تاريخي عما فقدوا بأن نالوا من الغربيين اقرارا لهم بفضل السبق عليهم فيه .

كما الشرق في المآذيات أو وقف ساكنا عند حدّ جهاد أبنائه الأولين . وخصص النفيس من أوقاته الغالية في الاشتغال بتلك الادبيات مهملا للمآذيات التي عليها قوام الحياة والتي هي موارد الثروة الحقيقية فبعد أن كان مطلع شمس الفنون وينبوع الصنائع والعلوم وبعد أن كان أستاذ الغرب فيها من غير مرأء انقلب حاله من أحسن الى حسن ومن حسن الى سيئ على العكس تماما من الخطة العمرانية الحديثة التي اختطها الغرب لنفسه بل أصبح الشرق يلتمس نوره من زهراء الغرب . كل ذلك لأن الشرق وجه التفاته لادبيات دون المآذيات التي أهملها كل الاهمال ولأنه خفف سيره الى الأمام في موارد الرزق والثروة في حين أن الغرب كان ينهب الأرض منها طلبا للاتساع في الملكات والمقتنيات لا يعرف للقناعة حدًا ولا تحجبه عن نيل غاياته ومطامعه شم الجبال ولا للبحر البعابر بل حلق الى السماء يريد استخدامها أيضا حتى خضعت لمشيئته الأرض وما فيها وما عليها . بعد ذلك كان حقا على الشرق أن يترك للغرب تراثه القديم تراث العز

والسلطان تراث العلم والعرفان والثروة والسعادة في اليوم الذي تمخلى فيه عن تلك الصفات والمميزات التي ضمنت له قديما جمع هذا التراث .

نعم نام الشرق نوما عميقا واستغرق فيه حتى أيقظه من أوروبا ومن أمريكا حركة قوية تحمل عجائب المصنوعات وغرائب المحترقات برا وبحرا وهواء وأرهقه مناد يناديه كيف حلا لك النوم وهو مرّ علقمٍ ولذ لك الرقاد وهو السم الزعاف ثم ذكره بنظرية تنازع البقاء وبقاء الأضع فلقى هذا الصوت في بلاد اليابان آذانا صاغية وقلوبا واعية في أمة نشيطة كانت خير مثال يتمنى كل شرق أن يحذو حذوه وأن يتبع خطاه رنّ هذا الصوت في مصر فتداركه هذا الرجل الكبير الجليل القدر المحدود واحدا من اثنين نبغا في عصره هو الحاج محمد علي باشا رئيس عائلتنا المصرية المملوكية الكريمة فالتمت للأديبات والمآذيات على السواء ووجه لها عنايته الفائقة النادرة المثال فانتشل الأمة مما كانت واقعة فيه من المهامى السحيقة . فالمدارس أنشأها والارسابيات العلية قررها وتمهدها والقاوريات من جملة أنواع أسسها وبنها وأنجحها والترسانات والارصفة والجسور والترع والقناطر وكل شئ حيوى في البلاد بإشره بنفسه واستخدمه لقائدة بلاده والبحيش والبحرية قوامها بعد أن رباها على النسق الحديث المتين

وبالصالة حكمه وحسن درايته وطّد الأمن في البلاد وافتتح القسم العظيم من الاقطار السودانية وضمها على بلاده العزيزة . وعليه فان مصر مدينة بتمدينها الحديث لتلك العائلة الخديوية الكريمة وتاريخ مدنيّتها الحديثة مقترن بتاريخ الحكم العلوي من غير مرأى ولا نزاع سارت البلاد على هذا النمط حتى تبتوأ عرشها من حسن حظها عباسها الثاني فضاغف قواها وبث فيها حياة جديدة أخرى من نشاط وهمة وإقدام حتى انها تاقت في عصره الزاهر لاسترداد مجدها القديم وعزها التالذ فأخذت تعمل على ذلك باحثة على أسباب الرقي الأدبي والمادى بكافة الوسائل وعلى الأخص بمضاعفة موارد الصناعة والتجارة والزراعة وتعميم العلوم والمعارف بين طبقات الأمة .

وجدير في الواقع بأمة لها تاريخ مجيد ومدنية عريقة بأمة ملكها العباس الذى لا تعرف قواه الملل ولا مداركه السامية الواسعة الكلل أن تتمكن من الوجود في مصاف الأمم الراقية وأن تجوز قصب السبق في مضمار الحياة العلمية والعملية خصوصا وبين أثبتنا الأماجد من يعرفون بواسع بصيرتهم وجليل رأيهم كيف يعيشون فينا هذه الحياة من جديد في مثل هذا الزمن الذى صعب فيه التزاحم الحيوى أمر المعيشة على الناس .

(ن)

في مقدمة أولئك الأبناء حفيد محمد علي باشا وسميه وشقيق الجتاب
العالي الخديوي قام وأخذ على نفسه الأبية أمر الرحلات في أنحاء
المعمورة ليحيي في البلاد صفاتها القديمة لتعود لها سيرتها الأولى فلا
تكون دون غيرها في السعي والتطلع لعجائب الأعمال العظيمة
والمدهشة في الاقطار المترامية الأطراف . والمتناثية الاكثاف . ورأى
أبناء الملوك يسبقون رجال العلم في هذه الرحلات الشاقة . فتأقت
نفسه العالية الى سبقهم في ذلك . ولقد سبق أغلبهم بالفعل . فأصبح
سموه في أوائل الامراء المعدودين ولعا بالرحلة الى كل ما يقيد بلادهم
ويرقى شؤون أممهم . وهكذا عرف كيف يرفع رأس مصر .
وكيف يبعث في نفوس الشرقيين صفات آبائهم الاولين .

لم يغمض جفنه حفظه الله في أي سنة من السنين عن التجول
في أقطار المعمورة . في البلاد الغربية وبلاد أمريكا واليابان .
مستطلعا ما وصلت اليه تلك الأمم من بواعث الحياة الجديدة وأسباب
ال عمران . وقد كان في كل رحلته يودع ماعن له من المشاهدات
الغريبة بطون الصحائف ويرصدها في أفق السجلات التي صارت
نبراسا يهتدى به كل من طالعها من المصريين . الذين هم موقف نظره
السامى . وغيرهم من أبناء الشرق . بقصد أن يفرس في نفوسهم

مبادئ حب الاستطلاع والسير في الطريق الموصل للحياة الحقيقية .
حتى لا يكونوا عالة في العلوم والمخترعات والصناعة على غيرهم . ولكي
يشغلوا في هذا العالم المكان اللائق بشرفهم العريق .

امتاز سمو الأمير الجليل محمد علي باشا بصفات غاية في الجلال
والجمال وخلال كريمة نبيلة ترين كل من تحلى بها فهو صادق العزيمة
قوى الإرادة صبور على تحمل المشاق مهما بلغت اذا رأى في تحملها
بلوغ مأربه وتحقيق بغيته .

شرح دولته في زيارة أمريكا عقب حادثة التيتانيك فلم تنه عن
عزيمته الماضية القوية المصائب الكبرى التي أحدثت بالكثير من
الانفس البشرية بفرق تلك الباهرة ولا النصائح الكثيرة من أصدقائه
العديدين ويكفي لمن تصفح رحلته أن يقف على ما تكبده من مشاق
الانتقال ومتاعب السفر الطويل متى أمعن نظره في الآلاف من
الكيلومترات التي قطعها في تنقيبه وبحثه في الآثار النفيسة التي صنعها
يد الانسان وهي عجائب جديرة بالتدوين والنشر بين الانام .

وبديهي أن الرحلات العلمية تمتاز بعضها على بعض بقدر ما يمتاز أصحابها
من الصفات وقوة الاستعداد كحب الاستطلاع ودقة الملاحظة واستيفاء
البحث وماتمة الوصف وقوة التصوير وصحة الاستنتاج واختيار الأنفع

وبفضل الله تعالى جاءت الرحلة ناطقة بأن صاحبها المفخم كان ممتازا بهذه الصفات الجليلة وهي التي جعلت لرحلته النفيسة شأنًا خاصًا فوق شأن غيرها .

وصفت لنا رحلته فيما وصفت كيف أن الأمريكي إذا شرع في مشروع لا يثنيه عن انجازه المستحيل والمتعذر على غيره بل هو كثير الثقة في نفسه والاعتماد على ذاته يبذل عند الزوم بسطاء حتى لا يكاد يضارعه سخاء في الوجود كل غال ومرمخص حتى يبلغ في النهاية مبتغاه وينال حظوته فيما شرع فيه . خلال جميلة وأخلاق حميدة من شأنها الازدراء باليأس والقنوط .

وصف لنا الأعمال العظيمة والعمارات الشاهقة والقناطر والجارى التي لا يضارعا غيرها في الكبر والطول في كل بلاد الدنيا لتصبو نفسنا للعمل على متوالها . وليتعشق بعظمها ونفامتها قلبنا فتأق في بلادنا على نسقها وتعلم صنعها ومثانة ودقة هندامها وذوقها . وبالاختصار فقد جاءت الرحلة أتق سفر يفتنى وأشهى ثم ينجنى بل وخير كتاب دؤن في هذا الباب ٤

الرحلة الامريكية
لسمو الأمير محمد علي باشا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنّ السّياحات الكثيرة التي قمت بها بقارة أوربا في أوّل نشأتي منذ كنت في السادسة من عمري مكنتني من رؤية كل مهم في هذه البلاد ولذا فكرت في تغيير وجهتي إلى البلاد الأخرى خصوصا أن أوربا صارت الآن قريبة إلينا والطريق إليها أصبحت سهلة والمغربين بزيارتها كثيرون فابتدأت في سنة ١٩٠٩ ميلادية أن أسبح في بلاد اليابان لأرى شيئا جديدا من مناظر طبيعية بديعة ومصنوعات دقيقة ولأقف على سرّ تقدّم اليابانيين ووصولهم إلى هذا المعجزة الشانخ والله الحمد ووقفتُ إلى غايتي وقدمت لأبناء وطني الأعزاء نتيجة رحلتي بقدر ما استطعت ومارأيت . وهنا أستطيع نظر القارئ الكريم أن أذكر أهم الأسباب التي دعنتي لتحمل هذه المشقات العظيمة في القيام بهذه السّياحات : إن هناك تأليف كثيرة عن جميع بلاد الدنيا وقد اطّلت على كثير منها ولكني أعتقد أن رؤيتي الشئ بنفسى أضع من قراءته في الكتب فهما كان الوصف جميلا فانه لا يؤثر في النفس تأثير المنظر البديع عند ما يقف الإنسان أمامه ويشعر بقدرة الخالق العظيمة وجمال الطبيعة .

إن مىلى الفرزىّ للسياحة واعتمقادى بما شرحته للقراء جعلانى
أوجه سياحتى هذه السنة إلى الولايات المتحدة وكندا وألاسكا
وبالجملة إلى الجهة الشمالية لأمريكا وإنى آسف جدا لعدم تمكنى من
السياحة فى مكسيكا لكثرة الثورات الداخلىة فيها ولعدم اتساع الوقت
لزىارة كل ماذ كرته آنفا والتعريح عليها بعد ذلك . ومما يزيد أسقى
مشابيتها للبلاد الشرقىة وحرمانى من رؤىة أمثال عساكرنا السودانىين
الأشدءاء فيها وقتال بناما القربى إليها والذى سيفتح فى هذا العام .
ولما قررت السفر إلى الجهات المذكورة قبل اتفقت مع كوك
وقررت السفر على البخرة كرون برنسىس سىسىل فى أول مايو أى
قبل دخول فصل الحر الشديد بأمريكا وهذه البخرة تابعة لشركة
النورد تشرلويد الألمانية ولما وصلت إلى بارىس أخذت أعد
العدة لهذا السفر وكنت أتردد على محل كوك لأقرّر خُطة السياحة
النهائىة وقد ساعدنى الحظ ووفقت لعمل برنامج السياحة بمساعدة
المستبروكر أحد رؤساء محل كوك الذى رأيت فيه الكفاءة العظيمة
فلم تترك أعجوبة أو منظرًا جمىلا يستحق الزيارة فى الدنيا الجدىة إلا
وقررناه فى خطة سياحتنا التى تستغرق ثلاثة شهور . وبنينا كما نعلل
النفس بقرب السفر ومنتظر بفارغ صبر يوم قىامنا برحلتنا الجمىلة

حدثت فاجعة غرق أكبر بانحة في العالم وهي التي تسمى (تيتانيك) التابعة لشركة (ويت ستار لاين) أثناء سفرها لأول مرة من إنجلترا الى أمريكا وكانت حمولتها (٤٦٠٠٠) طن وسرعتها ٢١ عقدة وسبب غرقها مصادمتها في الساعة الثانية عشرة مساءً بجبل من الثلج (آيزبرج) عاتم على وجه الماء . وقد فصلت الجرائد الأوربية كيف كانت المصادمة وحصول الغرق تفصيلا مسهبا لاداعي لإعادته الآن في رحلتنا إلا أننا تقتصر من ذلك على ذكر مارأياته مهما ويستحق المدح والإعجاب إن عدد الركاب الذين كانوا في التيتانيك لا يقل عن ٢٥٠٠ شخص كان من المستحيل نجاتهم جميعا بواسطة الستة عشر زورقا التي كانت بها ولذا ابتدئ بانقاذ النساء والأطفال أولا ثم نزل بعض الرجال في الحال الباقية من هذه الزوارق وكان من بين الراكبين في البانحة الكولونيل (استور) ياور المستر (تافت) رئيس الجمهورية السابق وهو من أصحاب الثروة التي تقدر بمبلغ ٧٥٠ مليون فرنك وكان قد تزوج في إنجلترا بممثلة اشتهرت بجمالها الرائع وكان عائدا معها بعد أن قضيا (شهر العسل) في مصر في فصل الشتاء الماضي فبدل أن يسرع إلى النجاة بنفسه أظهر شهامة ومروعة وصار يساعد السيدات والأطفال على النجاة وفضلهم على نفسه .

والذى أثر في نفسى كثيرا متبى الإخلاص والصدقة التى أظهرتها السيدة (ستورس) لزوجها الذى كان معها فى هذه الباحة وهو المشهور بثروته التى لا تقبل عن ٢٥٠ مليون فرنك فإنها لما دعيت لمفارقة الباحة كغيرها من السيدات أبى نفسها الشريفة أن تفارق زوجها وأجابت الرمان الذى كان يدعوها الى النجاة بنفسها قائلة: إن الخمسين سنة التى أمضيتها مع زوجى المحبوب بين السعادة والشقاء لاسمح لى اليوم بأن أفارقه فى وقت الشدة فأنا أفضل الموت معه على أن أعيش لحظة واحدة بعده فمات الاثنان المسنان متعاقبين بعد قبلة الوداع الأخير وأضفت السيدة ستورس الى صحيفة الإخلاص أكل مثال له يستحق أن يدون بالذهب وينشر فى العالم ليكون عبرة ومثلا لمحبى المرأة والشهامة والإخلاص .

إن هذا الضرب من الإخلاص قلما يوجد له مثال بين الرجال والنساء . وهل لنا أن نؤمل بعد أن أبدت هذه السيدة أمام العالم أجمع هذا المثال للإخلاص الكامل أن هذه الروح الطاهرة ستسرى بين النفوس فى أكثر الأسرات حتى تقوى صلوات المحبة بين أفرادها وبذلك تسود الألفة بين أبناء البشر ؟

أما أسباب الفرق فى الاعتقاد بأن هذه الباحة الكبيرة متينة جدا

ولا سبيل إلى أن تفرق ولذا أمر ربنا بأن يسرع في السير بأخر قوة
 باخرته حتى يقطع المسافة بين إنجلترا وأمريكا في مدة أقل مما تقطعها
 باقي بواخر العالم فتأخذ التيتانيك الشهرة وتفوز بالسبق ولكن
 باللاسف خاب الظن وكانت العاقبة وبالا . لقد أسرعت السفينة
 ولكن ماذا كانت العاقبة ؟ تصادمت بذلك الجبل المائل ولشدة سرعتها
 لم يمكن تحويل سيرها وإيقافها دفعة واحدة فذهبت هباءً متورا
 إن هذه الحادثة أخذت دورا هائلا في باريس حتى كان
 الصباح إلى المساء لانسمع إلا أخبار غرق التيتانيك . إن حصول
 مثل هذه الفاجعة لما ينثي الهمم عن السياحات . فكم من صديق
 كان ينصحنا بالرجوع عن عزمننا ولكن لله الحمد أنا ورفيقي مسلمون
 مخلصون لله ولدينه الخفيف نعتقد أن لكل أجل كتابا فيقينا بالله
 زادنا توكلنا عليه فلم ننتن عن عزمننا . وكنت كلما سئلت : هل
 أنت مسافر ؟ قلت نعم - أفلست خائفا ؟ لا . إن الله قادر أن يحمى
 من الأذى وهو الحي الذي لا يموت .

إني لا أريد أن أخفى عليك أيها القارئ مقدار ما كان من تأثرى من
 سماع كل هذه الأخبار المرعبة التي لاتطمئن القلوب لها . نعم إني
 كنت أشعر بسرور لأنى سارى أشياء جديدة لم أرها أثناء سياحى

الماضية إلا أني في الحقيقة كنت أشعر بأن هذا السرور يكون عندي أعظم بعد أن أتم هذه الرحلة وأعود سالما إلى بلادى العزيزة . ولما لم يبق لنا سوى ٢٤ ساعة على ميعاد السفر ذهبت الى كوك وأسلمت جواز السفر ووقعت على حسابي عندهم وأخذت منهم دفتر شيكات لأخذ مايلزمنى من النقود بأمرىكا . وقد أخبرت بأن الشركة اعتنت بي كثيرا وأعدت لى أحسن محل بالبحرة (كرون برنيسيس سيسيل) وقد أخبرنى أيضا محل كوك أنه سيمر على محل سكنتا اليوم (٣٠ ابريل سنة ١٩١٢) الساعة ٨ ونصف مساءً من هو مكلف بأخذ أمتعتنا الثقيلة لإرسالها مباشرة الى البخرة حتى لا نتعب وقد حصل ذلك وبما أننا غدا صباحا ستقوم الساعة ٩ والدقيقة ٥٠ من محطة (سان لازار) ويلزمنا أن نكون مبكرين إلى المحطة فضلا أن نبادر إلى النوم حتى يكون لنا من الراحة ما يساعدنا على تحمل مشاق السفر إن شاء الله .

يوم أول مايو سنة ١٩١٢ - أصبحتا نجير مستعدين للسفر بالقطار المعد للسافرين بالنورد ثسر لويد . ولما أرسلنا فى طلب سيارتين من ذوات العتاد (تاكس) أخبرنا أن اليوم عيد الفعلة وقد اشترك معهم سواقو السيارات فاضطرتنا إلى استحضار عربتى أجرة ركبت

في الأولى مع الصباغ خيرى والثانية ركبها مصطفى بك رضا ومعه
الأمتمعة الخفيفة ولما وصلنا إلى محطة (سان لازار) وجدنا في انتظارنا
المسيو (لوموان) مدير محل كوك بباريس والمستر (بروكز) الذى
ساعدنا في تنظيم خطة السياحة وتكلمت عن كفاءته سابقا . وانما
حضرنا ليكونا على علم من إعداد غرفة (Compartment) خصوصية
لنا ويعرفا أمتحاج إلى أى شئ آخر يمكنهما تأديته لنا . وقد وجدنا
أيضا أحد عمال شركة النوردنشر لويدي في انتظارنا وأخبرنا أنه موفد
من قِبَل الشركة ليخبرنا أنها أعدت كل ما يلزم لنا في البخرة وأمرت
سائر عمالها بأن يعملوا كل ما يريدنا ويسرنا . والذى زاد سرورى هو
رؤيتى صديقنا القديم عثمان بك غالب في المحطة . حضر ليشتيعنا
فشكرنا له هذا الإحساس الشريف ولا شئ يفرح الغريب أكثر من
رؤية أحد مواطنيه خصوصا إذا كان من أولى مودته . مكثنا بضع
دقائق مع هؤلاء المشيعين إلى أن سمعنا التنبية بحرك القطار فصلحناهم
جميعا وشكرناهم كثيرا وأسرعنا إلى محالنا التى أعدت لنا فكان معنا
عدد عظيم من الأمريكيين المختلفي الخلق والمهيمه .
تحرك القطار من باريس حيث كانت الساعة ٩ والدقيقة ٥٠
وبعد وصولنا إلى محطة (أشير) (Achière) أى بعد أن سرنا مقدار

٤ دقيقة انكسرت القاطرة واضطرتنا أن نتمكث بهذه المحطة
 ٣٥ دقيقة إلى أن أحضرت قاطرة أخرى صغيرة وسارت بنا سيرا
 بطيئا جدًا كسير قاطرات البضاعة فكان ذلك سببا في تأخرنا ساعة عن
 ميعاد وصولنا إلى (شربورغ) . أوصلنا القطار إلى الرصيف فوجدنا
 نقاتين خصوصيتين للسافرين على البانحة (كرون برنيس سيسيل)
 الأولى للامتعة والبريد والثانية للركاب و بعد أن نزلنا وانتظرنا هنيهة
 سارت بنا النقالة إلى البانحة المذكورة التي كانت بعيدة عن الرصيف
 لكبر حجمها ولما قربنا منها وجدنا بانحة أخرى انجليزية أقل منها حجما
 اسمها (فيلادلفيا) قريبة من بانحرتنا وتابعة (للترانس اطلاق)
 ووجهتها أيضا أمريكا ولكنها أسافر بعدنا بعشر دقائق . وصلنا إلى البانحة
 (كرون برنيس سيسيل) فاذا هي عظيمة ذات أربع مداخن كبيرة
 كأنها قرية عامرة أهلها فرحون مستبشرون تظهر عليهم علامات السرور
 والابتهاج . فلاقنا هذه الجموع المستأنسة بصياح الجيور ولسان حالها
 يقول أهلا وسهلا بياقي أفراد أسرة هذه المدينة الفخمة . صعدنا على
 ظهرها فسمعنا نغيات موسيقى رجالها المطربة تخففت عنا آلام السفر
 وشكرنا الله اذ دخلنا في زمرة هؤلاء المسرورين ولم تمض هنيهة حتى
 قدم الينا مفتش الشركة ومعه ريان البانحة وبعد التعارف حضر

رئيس الخدم وأخير أن غرقتا معدة تحت أمرنا فذهبنا معه إليها
ووجدنا ما اختاره لى جميلا أنيقا يستحق الإعجاب نظافته وكامل
معداته .

إن هذه المقابلة أثرت فى نفسى تأثيرا حسنا جدًا خصوصا بعد أن
سمعتا أنه كلما قربنا من أمريكا كانت الخدمة غير منتظمة . والحقيقة
أن الإنسان لا يجد فى هذه البائرة ما يشكو منه فان جميع الخدم فى غاية
الأدب ينتظرون أى إشارة لتأدية طلبات المسافرين .

انى لم تسمح لى الفرص بزيارة أكبر بواخر الاطلاق حتى يظهر
لى الفرق بين البائرة التى سافرنا عليها وبين هذه البواخر ولكنى أظن
أنه لا يمكن أن تكون سفينة أحسن ولا أبدع نظاما مما اختارها الله لنا
وساقتنا حفظنا الى السفر عليها .

إن البائرة (كرون پرنسيس سيسيل) حمولتها ٢٠٠٠٠ طن
وقوة آلتها اللتين تسيراتها ٤٥٠٠٠ حصان وطولها ٧٠٦ أقدام
وعرضها ٧٢ قدما وارتفاعها ٤٤ قدما وبها ست طبقات تسع ٥٢٠
مسافرا فى الدرجة الأولى ومثلها فى الدرجة الثانية وعددا عظيما آخر
فى باقى الدرجات . أضف إلى ذلك ٧٠٠ من الملاحين وغيرهم
من عمال السفينة . والذى يظهر قوتها العظيمة أنها تحرق كل يوم

حمولة سبعين عربة لحجم وزن العربة الواحدة ١٠ أطنان ولا تسهل عن سرعتها ففي أيام الصحو عندما يكون البحر هادئا تقطع ٢٣ عقدة في الساعة. أما الخدم فعددهم ١٩٠ سفريا و١١٤ طبيا و٧ خبازين وقد علمت أن الخبز الذي يعطى لسائر الركاب ومن ضمنهم المستخدمون والملاحون والمهاجرون هو الخبز السميد (الخاص) النظيف لا الجارية وذلك من مدة سنتين .

وبالجملة لا يسعني الا الإعجاب بهذه الباهرة والثناء الجميل على القائمين بخدمتها إذ أن الانسان يشعر بمجرد وصوله ومكنه ردها من الزمن بها بالنظام الألماني ومراعاة تنفيذ الأوامر الصادرة من كبراء مديري حركاتها إلى التابعين لهم .

بعد أن استرحنا قليلا حضر رئيس الخدم وأخبرنا أنه مرسل من قبل القومندان ليعرض على ماوى آخر أبهى وأوسع مما أنا فيه وهو ما يدعى عندهم (المسكن الأمبراطورى) وهو مشتمل على عدة حجر منها واحدة للاكل وأخرى للقبالة وحجرة نوم بلوازها من حمام ومحل راحة وغيرهما فقبلت ذلك مع الشكر وانتقلت إليه فوجدت أن الاسم ينطبق على المسمى وهو يؤجر على ما سمعت بمبلغ ٤٠٠ جنيه في السفرة الواحدة فأرسلت بطاقة باللغة الألمانية للقومندان أشكره

على هذا اللطف والاعتناء بي وأظن أن هذا كان أقل ما يستوجهه كرم فعله لاسميا أنه قلم لي هذا المسكن بدون أن يكلفني بدفع الفرق بل كان ذلك من باب الأدب وحسن المعاملة .

سارت البخرة بنا تحرسها عناية الله في نحو الساعة السابعة مساء وبعد ساعتين حضر عندي قومندانها ليزورني فوجدته رجلا في نحو العقد السادس من عمره في غاية الأدب والرياسة تظهر عليه علامات الهيبة والوقار والشجاعة فأعدت شكرى اليه شفاها وقمت إليه الصباغ خيرى ومصطفى بك فكثت معنا مقدار ماسمح له وقته فودعناه بمثل ماقابلناه به .

لما حل ميعاد العشاء استفهمت هل من الضرورى لبس (الأسموكين) فأخبرت أن ذلك ليس ضروريا خصوصا في هذه الليلة حيث أن حضورنا كان متأخرا . نزلنا للعشاء وقد حجزت لنا سفرة صغيرة على أتم نظام . أما المطعم فكان في الطبقة الثالثة بعد مسكنا وهو حجره رجة تشغل كل انحاء البخرة وهي مرتبة ومنظمة تنظيما أنيقا يعجبك كل ما فيها لاسميا لونها الأبيض الناصع وكثرة الزهور الموضوعية على الموائد التي أسر النظر ويذهب حسن روايتها بتأثير حركة البخرة . وأما المآكل فاتها لتبذة واللحوم يؤتى بها من أمريكا وأنواع

الأسمك من إنجلترا والقواكه وأنواع الخضر من فرنسا وقد تلذذنا من جودة الخبز وبالجملة المآكل جميعها حسنة ولذا يفضل الأمريكيون السياحة في البواخر التابعة لشركة النوردتشر على غيرها لما يلاقونه من الراحة في المآكل والمشرب والخدمة والسكن . وكانت الموسيقى تشف آذاننا وقت العشاء ومن الساعة ٩ مساء تدار البيانو بالكهرباء وهي من أتقن الآلات وأجودها حتى إن الانسان لا يجد فرقا بينها وبين التي يديرها أبرع المفتين في البيانو . ويستمر هذا العزف مقدار ساعة من الزمن في الردهة الكبرى الوردية اللون وهناك بيانو أخرى عادية في وسط هذه الردهة . وقد لاحظنا رسم البرنسيس ولىة عهد ألمانيا معلقة على حائط الردهة بطولها الطبيعي وهي التي سميت هذه الباحة باسمها . وبعد أن اتينا من العشاء عدنا إلى مكاننا وأمضينا ليلة جميلة لهدوء البحر .

وفي صباح اليوم الثاني (٢ مايو) بعد أن ارتديت ملابسى أخذت أستريض على ظهر الباحة ولأصوّر لك مقدار اتساعها أذكر أنى طفت في أحد ممشيا خمس مرات فوجدتني قطعت ميلا إنجليزيا . أما المشى الذى فى الطابق الأعلى فغطى من كل جهة بالأواح من زجاج سهلة الإقفال والفتح وعددها ١٩٦ حتى إذا كانت الهواء

شديدا والبرد قارسا أقفلت هذه الشبايك وإلا فتحت - وهذا يسهل الاستراحة للراكبين - كذلك من أراد أن يستريح يمكنه أن يستلق على أحد الكراسي المعدة لذلك بدون أن يتأذى منه المستريضون ولا خوف عليه من تأثير البرد ولا من ابتلاله بالماء ولتكميل أسباب الراحة قد خصص لكل جهة من هذا المشى خادمان لتأدية الطلبات تحت رآسة ثالث وقد لاحظنا أيضا غير هؤلاء الثلاثة اثنين من الملاحين يملأ بهما النظيفة للحراسة وبأيديهما المكاس أو قطع من القماش لإزالة أى قدر يجدها . وملخص ما كان في يومنا هذا هو ما يأتي : من الساعة ٧ صباحا الى الساعة ١٠ الفطور ويمكن الراكب أن يتناوله في المطعم أو على ظهر البخرة أو في غرفته وهو مشتمل على أنواع اللحوم على اختلافها من بارد وشواء ويض وسمك وغيرها .

في الساعة العاشرة تقدم الحساء ومعها ساندويتش باللسان العجلى أو الكافيار - من الساعة ١٠ ونصف تعزف الموسيقى يوما في الجهة اليمنى ويوما في الجهة اليسرى بالتناوب من هذا المشى الذى وصفته . هنا رأينا طائفة المهاجرين الفقراء الذين يذهبون الى أمريكا في طلب الرزق من كل جنس يشتمون فرصة عزف الموسيقى ويرقصون على

نغماتها ليخففوا عنهم آلام فراق أوطانهم . وقد رأينا في صباح هذا اليوم جملة يواخر ذاهبة الى أمريكا أو راجعة منها وأظن أن التسلية الوحيدة للمسافرين في المحيط الاطلانطي الخالي من الجزر هي رؤية مرور البواخر بكثرة يخاطب بعضها بعضا بالتلغراف اللاسلكي .

والغداء يتبدى من الساعة ١٢ الى الساعة ٢ بعد الظهر ويقدم للمسافر كشف علم به كل الأنواع التي بالمطبخ فله أن يختار مايشاء منها وأيضاً يقدم له كشف صغير (Menu) يعدّه رئيس السفرة فان واقفه يأمر السّفريّ المكلف بخدمته أن يقدم له غداءه على حسب هذا الكشف الصغير والا طلب مايريد من الكشف العام .

إن المسافرين معنا كانت أشكالمهم غربية ولم نر سيدة واحدة من الأمريكيات جميلة كالتي يراها الانسان في أوروبا أو في مصر وبالجملة كان الجميع من رجال ونساء كالصور التي تصورها الجرائد الهزلية المضحكة فهذه الوجوه ذكرتها سياحتي باليابان وكوريا .

والحاصل أن جميع المسافرين كانوا أمريكيانيين ولم يكن بالسفينة غيرنا من أبناء الأمم الأخرى وكلهم كانوا من أرباب الأشغال وأغلبهم إسرائيليون وقد لاحظنا أيضاً بينهم أسر من مرتدية ملابس الحداد ونظن أنهم أقارب المنكوبين في حادثة غرق التيتانيك .

ومن الساعة ٣ مساء إلى الساعة ٦ يعزف مرة ثانية البيانو الكهربائي في الردهة الكبيرة . وهناك جملة ألعاب أخرى على ظهر البانحة لتقضاء الوقت هذا غير ما هناك من المجال التي يمكن للسافر أن يستريح أو يتم أشغاله فيها كالمحلين المخصصين للتدخين وجمرة المكاتبات و يوجد أيضا مكتب للتلغراف اللاسلكي ومطبعة معدة لطبع أخبار العالم لتوزع علينا كل يوم قبيل الساعة ٤ مساء بشكل مجلدة وهذا من بدائع هذا العصر الجليل .

يبدأ العشاء في الساعة ٦ مساء وينتهي في الساعة ٩ ولأجل أن تتبع النظام ارتدينا (السموكين) وعلى هذا الترتيب أمضينا والله الحمد يوما بعد أن ختمته بلعب الدومينو مرتين مع مصطفى بك وافترقنا للاستراحة ونحن مسرورون .

(يوم ٣ مايو) وفي اليوم الثاني من سفرتنا دعاني القومندان لأشاهد ما يقومون به من الأعمال لتجربة أدوات النجاة التي تستعمل في حالة الخطر (كفانا الله شره) وكان الجو هادئا والبحر ساكنا . وتكون هذه التجربة عادة في الساعة ٥ مساء فصحبني الصاغ خيرى وصعدنا إلى غرفة القومندان التي بأعلى البانحة وتجاور مصدر الأوامر فقابلنا بكل ترحيب وأخذ يسرد علينا معلوماته الغزيرة وقد اطلعنا على خارطة

الطريق القديم الذي كانت تخذه البواخر قبل حادثة التيتانيك وأظهر لنا الفرق بينه وبين الطريق المتبع الآن فإذا هو يزيد مسافتنا ٢٠٠ ميل عما كانت قبل حيث أنه أخطر الطريق عن أصله بمقدار ٦٠ ميلا الى الوراء وهذا للابتعاد بقدر الامكان عن مقابلة الثلوج السابحة على وجه الماء (آيزبرج) التي تسبب المصادمات وقد أراني أيضا جملة بارومترات لمعرفة مقدار ضغط الهواء والمكان الذي توجد فيه البانحة وهي مختلفة الأنواع . منها ما هو خاص بالبحار والشمس . ومنها ما هو خاص بالليل والنجوم وقد أرانا أيضا التلقون الخاص بالمنازل السابحة في البحر الذي له آلتان موضوعتان في مقدمة البانحة وكذا عنده عداد كهربائي على اليمين وآخر على الشمال لمعرفة مقدار الدورات التي تدورها كل آلة من الآتين المذكورتين . فالقومندان بذلك يمكنه أن يعرف في كل لحظة سرعة هذه الآلات وانتظامها بدون أن يتحرك من مكانه . وعنده أيضا تلفراف مورس وبالجملة كل الاختراعات الحديثة عنده . وبعد ذلك نخرج بنا من هذا المكان وأرانا آلة لها يد يجرها فتدق الأجراس عند السواقين في قاع البانحة وهي علامة الخطر فيأخذون حذرهم ويخرجون من أمكتهم للنجاة . والغريب أن قاع البانحة مقسم الى ١٩ قسما كل قسم له باب محكم

يقفل في مئة ٣٠ ثانية على التدرج وبطريقة ميكانيكية وعند القومندان لوحة بها تمر هذه الأبواب فكلما أفضل باب أضامت النمرة بنور كهربائي علامة أنه محكم الاقفال

وقد ذكرت قبلا مقدار ما تحرقه البانحة كل يوم من الفحم فهذا المقدار العظيم يشغل جزءا كبيرا من البانحة في قاعها . وهو موضوع في جملة محال فكلما فرغ محل من الفحم ملئ من ماء البحر حتى لا تفقد البانحة موازتها فكل هذه الترتيبات مدهشة وعظيمة ولكني لا أقدر أن أقول إنها تمنع الخطر دائما فكم من تلف صغير جر مصيبة عظيمة وما الأمر الا بيد الله . ومع ذلك إنني أعجب جدا من جميع هذه الترتيبات المحكمة الوضع والسريعة التنفيذ ويزيد إعجابي جدا محافظة جميع الضباط والملاحين على تنفيذ الأوامر بغاية الدقة والضببط . وقد تحققت أن احترام الرؤساء عندهم من أهم واجباتهم وهذا هو السر الوحيد لنجاحهم في جميع أعمالهم العظيمة . وبعد أن أتممتا رؤية جميع هذه الآلات العجيبة عدنا إلى غرفة القومندان وقسامنا معه قليلا ثم انصرفنا من عنده شاكرين له حسن اعتنا به بنا مبدين له إعجابنا بما رأيناه وقد قال لي أثناء المحادثة إن الشركة تنفق في كل رحلة ٦٠٠٠٠٠٠ مارك أى ٧٥٠٠٠٠ فرنك او ٣٠٠٠٠٠ جنيه انجليزي في الذهب والأوبئة

هذا ولما كانت أسرع السفن هي التي تتخذ بريدا (بوسته) كانت المسابقة بين الشركات مستمرة وقد أخبرني أن الشركة تأخذ على كل كيس بوسته ٤ فرنكا في كل سفرة وفي فصل الشتاء وأيام الأعياد يصل عدد الأكياس من ٤٠٠٠ الى ٥٠٠٠ كيس وقد تنقل السفينة في بعض الأحيان مقادير كبيرة من الذهب أو الفضة من أمريكا إلى أوروبا أو بالعكس وقد أخبرني القومندان أنه تنقل مرة ما مقداره ١١٠٠٠٠٠٠٠ جنيه من الذهب إلى بنك روتشيلد بانجلترا وفي هذه المرة أرسلت معه مركب للخفارتة . ولما وصلوا الى ميناء بورتسموث كانت بانتظارهم بانخرة بها جملة من رجال الشرطة لمقابلتهم والحفاظة على هذا المبلغ الجسيم فليتأمل القارئ عظمة التجارة التي تنقل بهذه البواخر . أمسينا والحالة أخذت تتغير فتحيرنا بالاهتزاز وقد أخبرنا أن الحرارة ستبتدى من غد وفي أثناء سيرنا تقابلنا مع باحرتين إحداهما أشارت إلينا بأن الجو غير معتدل والضباب مالى الفضاء وهذا ما يخشى منه كثيرا ولكننا لما أصبحنا يوم ٤ مايو لم نجد أثرا لهذا الضباب بل كان الضوء متلائنا رغمنا من السحاب الخيم علينا والمطر المنهمل فوق رؤوسنا . أما حالة البحر فكانت في هياج مستمر وهنا عرفنا الفرق الهائل بين السياحة في البحر

الأيض المتوسط وبينها في المحيط ومع ذلك كنت مطمئنا لأنى
 علمت من الملاحين أن هذه الحالة آمنة كثيرا من حالة وجود
 الضباب الذى يسبب الأخطار أما رفقائى فكانوا مرضى .
 فهذه التغييرات أيقظت فى نفسى حب الاستطلاع والسؤال
 عن حالة البحر فى فصل الشتاء فاستفهمت وعلمت أنها تكون أحيانا
 سيئة جدا حتى حدث مرة أن اطلع البحر جرة القومندان وأخذ
 معه الزوارق المعدة للنجاة ويومئذ لم يتمكن الباحة من قطع أكثر
 من ١٢٠ ميلا فى ٢٤ ساعة وهى تقطع عادة ٥٤٠ ميلا فابتليت
 إلى الله أن لا يرينا شيئا من ذلك .

انطوى هذا اليوم الصعب والحمد لله وذهبت للنوم متأخرا عن
 عادتى فكيف يكون الانسان هادئا والسفينة تمسرت بنا اذ ذاك على تيار
 (جولف استريم) الهائل الذى تبلغ سرعته أحيانا ٢١ عقدة
 فى الساعة واذا أضفت اليها ١٠ عقدهات أخرى سرعة الهواء فى هذا
 الموقع بلغت سرعة الماء والهواء ٣١ عقدة وهى كافية جدا لتحطيم
 أعظم مركب ولكن لم تبلغ سرعة الهواء أكثر من سبع عقدهات أثناء
 هذه الليلة وذلك من فضل الله علينا

(يوم ٥ مايو) فى صباح ذلك اليوم أخذت الحالة فى الهدوء قليلا

وصفاً أديم السماء وقد أخبرنا أننا نستطيع أن نحاطب اليوم نيويورك بواسطة التلغراف اللاسلكى . ولقد صادفنا في سيرنا ذلك اليوم باخرة من شركة (كونارلين) وسبقناها .

فبعد ما قضينا هذه الليلة وصلنا الى المكان الذى يكون فيه تيار الجولف استريم خطرا فانه نقطة ملتحق الثلوج والأهوية الباردة التى تهب من جهة الترنو (Terre Neuve) وهذه الثلوج يتكون أصلها في الجهات الشمالية حيث توجد هناك على حالة هائلة ثم تنفصل بتأثير الحر قطع عظيمة منها وتتحد متبعة التيارات إلى الجنوب كأنها الجزائر وأحيانا تكون مرتفعة عن وجه المياه كجبل عال ومن هنا سميت باسم آيزبرج (Isberg) وهى كلمة ألمانية معناها جبل من الثلج .

ومما رأيتيه صعبا جدا عمل الملاحين الذى ملأ قوادى شفقة عليهم وقد طرأ بفكرى في تلك اللحظة أن أوم نفسى قائلا لها ما الداعى لتركى أوربا الجميلة والمخاطرة بالحياة في هذه الأسفار البعيدة نعم إن الانسان وقت الشدة يجيئ نفسه وتطرأ عليه هذه الأفكار وما أسرع إلى تذكر أهله وولده ووطنه . ولقد مررت هذه الخيالات والأفكار على كلبح البصر وشعرت بأن لسانى يردد كلمات كثيرة فانتبهت إليها فاذا هى دعوات وتضرعات إلى الله أن يرجعنا سالمين

ويردنا إلى أصدقائنا ووطننا العزيز الذي كلما رأيت تقلبات الجوّ ازداد حنيني وشوقى إليه . فأين سماؤنا الراققة وشمسنا الذهبية وهواؤنا العليل وأى مسافة شاسعة تحول بيننا وبين مصر مهد المدنية ومنبع العرفان . كفى بالسائق الآن فان شعورى أجّل من أن تحيط بوصفه عبارتك .

إني أسمع بعض الرّاكبين معنا يغنون ويعزفون على البياتوقا أشجع قلوبهم أهذا وقت السرور والجوّ عابس والباخرة تلعب بنا كالريشة في مهيب الرياح ولكن سبحان من بيده تصريف الرياح وتسكينها .

لله الحمد والشكر في هذا المساء أخذ الجوّ يعتدل وبيتنا كما على ظهر الباخرة رأينا زميلنا مصطفى بك كأنه يزحف الينا يمشى الهويّتا مصفّر الوجه محدودب الظهر مرتجيف الأعضاء تظهر على وجهه علامات الخوف الشديد فأسرعنا إليه لتسأله عمادهاه وعن طول غيابه عنا لأنه لم يخرج من حجرته مدة ٥ ٤ ساعة فشرع يقص علينا ما جرى له ويصوّر لنا كيف كانت حالته خلال المدة الشديدة كأربع مشخص يمثل دوره في مسرح التمثيل وقد كنا معجبين بمهارته ووصفه الآلام التي اعترته فقال: شعرت بألم شديد برأسى فألقيت نفسي على سررى لعلى أجد في ذلك مخرجا مما ألمّ بي فلم تزد الحالة الا سوءا أريد الصياح فلا أجد لنفسي قوّة فسلمت أمرى إلى الله وصرت أكابد

ما أكابد وأذوق من مر العذاب ألوانا حتى جعلت كل ما على السرير فوق وحشرت في الجوانب بعض الوسادات لمنع اصطدامي بالسائط ولكن ماذا يفيدني وأنا العليل البأس والضعيف اليأس فكل حركة كانت تقلبني وكل هزة تكاد تذهب بروحي . حاولت النوم فلم أستطع إليه سبيلا فأغمضت عيني حتى لا أرى تحرك ما أمامي من الأشياء فصارت أذناي تسمع صوت الأمواج الهائلة وقعقة العدد وما زاد شقائي إلا حرمانى لذة الطعام والشراب فاني لم أقدر أن أتناول شيئا طول هذه المدة أما اليوم فقد تاب إلى بعض قوتي حتى استطعت أن أردى ملبسى شيئا فشيئا إلى أن كشف الله عني ما نزل بي من كرب نفجرت الآن من الظلمات إلى النور ومن الضيق الى السعة . فهذه أنا روعه ولما قرب ميعاد العشاء نزلنا الى غرفتي وتناولنا ما لذ لنا وطاب ثم اقمنا للراحة والنوم .

(يوم ٦ مايو) اصبحنا والبأخرة تمخرق في عباب البحر بسرعة مدهشة والمطريه تطل مدرارا والجو عابس فصرت أسأل من كل ضابط عن الحالة فكان جوابهم إن الحالة تَطْمَئِن فلا الضباب يحرق بنا ولا هواء الجنبوب يعصف علينا . ولقد وضعت الحواجز التي توضع عادة لمنع سقوط الأواني على الموائد وقت الفطور فسألت رئيس

السفرين هل البحر هائج حتى تضعوا هذه الحواجز فكان جوابه مقلقا لأنه أخذ يباليغ فيما نحن فيه . ولقد يتصور البعض أن السياحة في المحيط لذينة ولا يشعر الإنسان بهيجان البحر لكبر البواخر ولكن هذه الفكرة غير حقيقية لأنه لا يبل البحر أن يتلاعب بأكبر باخرة كيف يشاء وما على المرء إلا أن يتصور اتساع المحيط الهائل ونسبته إلى حجم البخرة حتى يحكم بصحة ماقلته وما هي إلا العوبة على سطحه . إن أسرار الطبيعة هائلة ومدهشة فهما وصل الإنسان من الرق لا يمكنه أن يحيط بجميعها ولكن البحث وحب الاستطلاع من مزاييا الإنسان قتراه محبا لمعرفة ماخفي عليه وفكرى أن تنوير العقول لا يتم إلا بالسياحات فانها تعلم الإنسان كل شئ وتظهر له الأسرار وما وصل إليه أقرانه المتمدينون من الرسوخ في العلم وكثرة المكتشفات والمخترعات فياخذ لنفسه ما حلاله وبذلك تزداد معارفه وترتفع مكانته ويكون على بينة من الامور .

إن أتعاب السفر تزول إذا استفاد الانسان منها باكتساب ما يتقصه من المعارف فان لذة تثقيف العقول لا يعلوها لذة فإأكبر سرور النفس عند وقوفها على مجهول .

إن الله تعالى خلق الطبيعة في أجمل خلقه وأحسن تكوينها

من شئ إلا وكان لوضعه حكمة عظيمة . لقد تأذينا من تيار
 (الجولف استريم) ولكن لولاه لما وجد مخلوق من بنى الإنسان في ارنندا
 وانجلترا والجزء الشمالى من فرنسا بل كل القسم الشمالى من أوروبا .
 لاحظنا أثناء سفرنا هذا أن المحيط يتغير فى كل وقت فبينما نراه
 هادئا يتقلب هائجا و بينما نرى السماء صافية نرى المطر يهطل مدرارا
 و بينما الرياح ساكنة تهب دفعة واحدة فلا تبقى ولا تندر . اليوم رأينا
 باخرة وجهتها « نيويورك » وهى قريبة منا حتى كأنها هى وسفينةنا
 قطاران بمشيان على طريق حديدى واحد فوجود الضباب يججب
 النظر ومنه تحصل المصادمات هذا وان سائر البواخر الذاهبة إلى
 أمريكا لها طريق واحد وكذلك التى تعود فهذه فى الجنوب وتلك
 فى الشمال .

فما أشد سرور السائحين عند ما تلاقى باخرتهم باخرة أخرى فمثلهم
 اذ ذلك كمثل تائه فى ظلام ليل حالك فى وسط أجمه هائلة فيمن عليه الله
 بملافة صديق له فهل يتصور مقابلة أحسن وقعا على النفس من هذه
 المقابلة الجميلة ؟ هنا يشعر الراكب أنه ليس وحيدا فيذهب عنه الخوف
 قليلا ويطمئن قلبه بوجود البخرة الأخرى بجانبه واذا حصل لا قدر الله
 خطر فباب الأمل فى النجاة مفتوح لقرب هذه البخرة منه .

ففي الساعة العاشرة ونصف عزفت الموسيقى كالعادة وعند الثانية عشرة ونصف أمكتنا جميعاً أن تناول الغداء بحجرة السفرة لتحسن الحالة وبعد ذلك مشينا قليلا على ظهر البخرة وشعرنا بزوال الأمواج وسكون البحر وسرعة البخرة العظيمة .

وبعد ذلك أرسل إلى القومندان من يرجونى أن أصور معه بالمصوّر الشمسى (الفوتوغراف) فلم يسعنى إلا قبول طلبه لما رأيت منه من عظيم عايتيه وبى وضربت موعدا لذلك يوم الثلاثاء (أى غدا الساعة ٥ مساء) . وبينما نحن فى الردهة نسمع البيانوات التينا الجرائد اليومية وبها أخبار آخر ساعة فوق نظرى على تصريجات المسيو (جيليوتى) فى المجلس عند أخذ رودس بدون مقاومة فأثر عندى هذا الخبر تأثيرا شديدا ولا يمكننى وصف الحزن الشديد الذى اعترانى حينئذ ولو أن حصول ذلك الاعتصاب الجديد كان مستظرا من وقت إلى آخر . ومن رأى أنه من العار ترك هذه الجزر تذهب بدون مدافعة وإنى أفضل ضياع بعض البوارج التى عندنا فى سبيل الدفاع عن هذه الحالة المحزنة وإلا فما الداعى لعدم بيع طرابلس إذا بلغ الإهمال إلى هذا الحد فى هذه الجزر الجميلة . حقيقة إنى مصرى ولكنى مسلم أولا وشرقى ثانيا فضياع مثل هذه الدرر يحزننى فما أشد آلامى عند

رؤيتي ضياع مجد الشرق وعظمته شيئاً فشيئاً . مرّت على أفكارى هذه الأحوال المظلمة فاسودّت الدنيا في عيني وشعرت بمرج الموقف وجعل اليأس يستولى على نفسي لولا أملى في الله واعتقادى يبقظلة الشرفيين الذين لا يتركون بلادهم تذهب أمام أعينهم وهم عنها ساهون .

فشدّة هذا التأثير جعلتني أقلب في فكرى تاريخنا العظيم والأدوار الكبيرة التي شغلناها في المجتمع الإنساني فزاد أملى بالله لأنه هو القادر وحده أن يرجع الينا مجدنا السابق بمعونته أولاً ثم باجتهدنا وتعاضدنا واتفاق كلمتنا واتحاد وجهتنا فترتفع رؤوسنا ويذهب عنا الدل والمسكنة والعار . فصوت الموسيقى في مثل هذه الحالة ليس إلا نعمة محزنة أخذت تذكري جميع المصائب المحذقة بنا واحدة فواحدة فزادت أشجاني فلم أطلق صبرا على سماعها فأسرعت إلى الخروج حيث أكون منفردا أتاجي الله تعالى في أمرنا وأدعوه أن يوفقنا إلى ما فيه نجاحنا . فكان القضاء غير المنتهى أخذ يضيق شيئاً فشيئاً ويحصرنى فيه .

تصفحت ثانياً الجريدة فإذا نحن على بعد ٦٧٥ ميلا من مار (امبرواز) القريب من نيويورك وقد قطعنا لغاية اليوم ٣٢٧٧ ميلا

من الطريق وكان أملى الوصول إليه في الساعة السادسة من مساء اليوم وفي التاسعة منه الى أرصفة شركة النوردنشر اذا كالم نصادف هذه العوائق التي أحرقتنا ومع ذلك اننا نحمد الله كثيرا لوصولنا إلى هذه البقعة سالمين رغمًا مما قاسيناه وتكدنا من عصف الرياح وتقلبات البحر وتغيرات الجو . ذلك الذي جعلني أكره السياحات الطويلة في البحار .

أخذ الركاب مجهزون أمتعتهم لتأه يلهم أن يصلوا إلى نيويورك في صباح الغد ولكن ليس الأمر يدهم بل بيد الله .
إني لست متحققًا من الوصول غدا ولا يمكنني الثقة بالشيء قبل وقوعه خصوصًا في الأسفار ولذا لا أرتاح إلا إن وصلت إلى نيويورك ونزلت في المنزل فتي رأيت اليأسه ووضعت قدمي عليها أقول حقيقة تم السفر في البحر وأحمد السرى .

قبل حلول معاد العشاء رأينا على ظهر البتحة عددا عظيما من الملاحين فظننا أنه ربما كان الغرض الاستعداد للتمرن على طرائق إطفاء الحريق أو طرائق الإسراع في تجهيز أدوات النجاة ولكن لا هذه ولا تلك بل كان الغرض إعداد مرقص للسائحين والسائحات الذين طفق السرور على وجوههم فأرادوا أن يرقصوا طربا ويمابلوا

جدلا فرفعت الكراسي وأعد محمل على ظهر البانخرة لذلك ثم أحضرت جملة من الأعلام المختلفة الألوان وعلقت بشكل بدیع يخللها مصابيح جميلة متلاثلة بالأنوار الكهربائية وقد أحسنوا تنظيم هذا المحل حتى صار يشبه سرادقا مقفلا من كل جهة . فلم يمكني أن أتصور لِمَ هذا السرور مع أن الزمن الباقي لوصولنا هو ٢٤ ساعة ونحن منازل في عرض البحر ولسنا بعيدين عن الأخطار . أمّا كنفام الأيام الماضية التي كنا نرقص فيها بالرغم من كثرة اهتزاز البانخرة من هياج البحر . كانت الأولى أن يتهلوا الى الله ليتم نعمته عليهم ويوصلهم إلى نيويورك سالمين . أما أنا فنزلت إلى غرفتي وتناولت مع رفيقي العشاء وقد أرسل إلى القومندان دقته الخاص بتدوين أسماء الذين سافروا معه لأكتب فيه ما رأيت منه ليكون تذكارا عنده . فكُتبت فيه باللغة العربية اني أشكره لحسن عنيته بنا ولما لقيناه من جميع أعوانه من الاعتناء الزائد بنا ودعوت له أن يكافئه الله على خدماته الجليلة لنا وللذين سافروا معه ووضعت على هذا اسمي وقد وقع على ذلك أيضا رفيقاي خيرى ومصطفى . وبعد ذلك لعبت دورا من الدومينو ثم أوى كل منا إلى مضجعه فصليت لله ودعوتُه طالبا حسن الختام .

(يوم الثلاثاء ٧ مايو) - هينا من نومنا على صغير الباحة المزج فما لبثت أن علمت أننا محاطون بالضباب وهذا ما كان يتقصنا من عجائب الاطلاقى وتقلباته التي طلما حدثت عنها في مواضع مختلفة من رحلتى هذه فكان المحيط شق عليه أن لا يرى منا منظرا من مناظره الخيفة فأسرعت وارتديت ملابسى وصعدت على ظهر الباحة فوجدت أنه يستحيل أن يرى الانسان من أمامه وشمت رائحة السمك التي في بعض الأحيان كنت أشمها بمنيل الروضة بمصر وقت قصان النيل ولكن هنا هذه الرائحة تأتي من السمك المشهور وجوده قريبا من نيويورك .

فشعرت بمقدار الخطر المحدق بنا - إن شدة الرياح وتلاطم الأمواج واهتزاز الباحة أخفّ عندي من وجود هذا الضباب وإنما حمد الله أن لم يأت هذا اليوم العصيب إلا في آخر أيام السفر لا قبل الوصول بثلاثة أيام كما أخبرنا - ان رؤية الضباب تؤثر في الأعصاب وتقضب الصدر . والغريب أن الباحة تصفر كل دقيقة ولكننا كان يحيل إلينا أن تلك الدقيقة التي بين كل صغير وآخر هي خمس دقائق ولذا أخرجنا ساعتنا لعلم المدة بين كل صغيرين فوجدناها دقيقة وعلينا أن تقديرنا الأول كان من ناحية الوهم الذى سلطته ساعة الشدة على عقولنا

ولا عجب فما أطولَ أوقاتَ الشدائد على متظري انقراجها .
 إنه بمناسبة وجود الضباب بين لى القومندان الاحتراع الجليل
 الذى ينبىء عن قرب باخرة فى وقت لا يمكن بالنظر ولا بأعظم نظارة
 أن تَسَاهدها وهذا الاحتراع عبارة عن الأجراس المنبثة بوجود بواخر
 قريبة . فى مقدّمة الباخرة يوجد جرسان من هذا الاحتراع ، واحد
 من جهة اليمين ، والآخر من جهة الشمال ؛ وعند ما تقترب أى باخرة
 يدق الجرس الذى من جهة هذه الباخرة . وبهذه الطريقة يعرف
 القومندان من أى جهة يأتى الخطر فيتعد عنه وعلى ما قيل لى إن
 هذه الأجراس تنبىء من بعد ميلين وقد رُكبت فى باخرتنا من منذ
 أربع سنوات .

وقد أخبرت أننا سمنر على سفينة واقفة فى عرض البحر وهى
 مستعملة كمنار ومنها تعلم المسافة الباقية لنا وعلى ما علمت يلزمنا
 إحدى عشرة ساعة منها للوصول إلى نيويورك .

نحن الآن فى الساعة ٩ صباحا فلا يمكننا أن نرى هذه الباخرة
 (المنار) لشدة الضباب ولكننا كما توصل سمع صفيها (لأنها تصفر
 أيضا مثل باخرتنا وقت الضباب) والذى كان يخيفنا كثيرا هو قيام
 بواخر البوستة فى ظهر هذا اليوم من نيويورك وبلغ عددها العشرين

فهذا العدد العظيم سنصادفه في طريقنا . ولما كان الجزء الباقي من الطريق تطرّقه البواخر الغادية والرائحة فالخطر عظيم لوجود هذا الضباب والإنسان لا يشعر بالخطر الا اذا كان مُحَدِّقاً به .

جاءت الساعة العاشرة والحق لم يزل على حاله وسرعة الباحة أقصت إلى ربع السرعة الأصلية ولم نمر على الباحة (المنار) في هذا اليوم لم نشاهد أحدا يستريح على ظهر الباحة على حسب العادة خوفاً من الرطوبة فذهبنا إلى الزدهة لسماع صبية كانت تعزف على البيانو ومكثنا الى نحو الساعة الثانية حتى أخذ النور يضيء والضباب يتقشع فخرجنا إلى ظهر الباحة لثرى ماذا تم فاذا نحن أمام هذه الباحة (المنار) فسُررنا جداً وابتدأ الاطمئنان يدخل قلوبنا وأطلق للبحرة سرعتها الأصلية فلم يبق لنا إلا مسافة احدى عشرة ساعة للوصول إلى نيويورك أى كالمسافة التي بين الاسكندرية ورودمس . وبعد أن تناولنا الغداء لعبت أيضا دورا من (السومانة) وفي نحو الساعة الخامسة حضر عندنا المصوّر يدعوننا أن نذهب إلى القومندان للتصوير فذهبت اليه مع الصاغ خيرى فوجدناه في انتظارنا باشاً مسرورا هادئا كعادته فصرت أصوّر له مقدار نحو ثمانين مما كفا فيه فأجابني إن الأجراس المنبهة أنبأته بقرب باحة المنار على بعد سبعة

أميال وقد سمع صفيها على بعد خمسة أميال فهنأته بدقة حسابيه ومقدرته العظيمة وكثرة معارفه وبعد أن فرغنا من التصوير دخلنا معه إلى غرفته فصار يشرح لنا آلة أخرى بواسطتها يعرف عمق ماء البحر وهي آلة غير تلك الآلة المستعملة في كل البواخر التي هي جبل طويل ذي عقد طول ما بين كل عقدة وأخرى معلوم وفي منتهى هذا الجبل قطعة ثقيلة من الرصاص فتلقى هذه القطعة بقوة فتغوص في الماء فعدد العقدات الغائصة يدل على مقدار العمق ولكن هذه الآلة لاتصلح الا وقت السير البطيء وهي مستعملة كثيرا في المراكب الحربية أما هذه الآلة الجديدة فهي مبانة التي شرحتها وهي صالحة لاطهار العمق في وقت سير الباطنة بأكثر سرعتها (أى ٢٣ ميلا في الساعة) ولأهميتها أصفها للقارئ بالتقريب :

في مؤخر الباطنة أسطوانة ملفوف عليها جبل دقيق من الصلب طويل وفي نهايته قطعة عظيمة ثقيلة من الرصاص بينها وبين الجبل أنبوبة مقللة من الجهة العليا ومن الجهة السفلى يمكن فتحها فتوضع داخل هذه الأنبوبة أنبوبة أخرى من الزجاج ملونة بلون أحمر زول سريعا بالماء ثم تقفل الأنبوبة الحديدية وفي أسفلها توجد فتحات صغيرة لامكان دخول الماء فيها وهي محكمة حتى إن الهواء الموجود

بالأنبوبة الحديدية لا يمكن تحروجه وبعد ذلك يدلى الجميع فى البحر بواسطة ادارة الأسطوانة التى يقف بجانبها أحد الضباط ويده عصا دقيقة من الحديد فهذه الآلة تسقط عمودية فى قاع البحر وحيث إن الهواء الذى فى الأنبوبة لا يمكنه الخروج فكلما نزلت الآلة فى الماء ازداد ضغط الماء على الهواء المحبوس فى الأنبوبة فيتمصص جمعه من هذا الضغط ولا يزال كذلك الى أن يشعر الضابط بوصول قطعة الرصاص الى قاع البحر وهذا يظهر له من حالة الحبل المصنوع من الصلب فيوقف بعصاه الحديدية الإدارة وبعد ذلك تسحب الى الأعلى فلما الذى دخل فى الأنبوبة الحديدية بواسطة الضغط أزال جزءاً من اللون الأحمر الملوثة به الأنبوبة الزجاجية ومعلوم عندهم طول الأنبوبة الزجاجية فيقاس الباقى منها أى الذى لم يذهب لونه وبسبب خاص عندهم يمكنهم معرفة عمق البحر أما مخترع هذه الآلة المقيدة فيدعى (طومسون) وقد كان يعمل هذا المقاس كل ربع ساعة فى وقت الضباب حتى يتأكد القومندان من الموقع الذى تمر منه البانحة .

جاء المساء وذهبتا للعشاء واذا كل الراكبين يسرعون الى الخارج فقمنا لترى ماذا جد واذا نحن أمام منار (اميرواز) القوى القائم

في أول مدخل بوغاز نيويورك وبعد أن وقفنا قليلا للاطلاع عدنا
لنعم عشاءنا ثم افترقنا على أن تكون على استعداد تام غدا الساعة
٦ صباحا .

رست البخرة على محل الحجر الصحيّ وحيث إن وصولها كان ليلا
فقد أجلت عيادة الطبيب للغد الساعة ٦ ونصف صباحا لعدم
وجوده . قت مبكرا الساعة ٥ صباحا (يوم الأربعاء ٨ مايو)
وارتديت ملابسى فكنت على استعداد بعد نصف ساعة من قيامى
من النوم وفي نحو الساعة ٧ و ٣٠ دقيقة تحوّلنا للدخول في الميناء
وإلزمنا ٣٠ دقيقة لتصل الى الرصيف المخصص للشركة وقد لاحظت
أن عمال المكس كانوا في البخرة للقيام بواجبتهم . أما مخبرو الجرائد
فلا تسل عن عددهم فلنهم أتوا أيضا ليتسموا أخبار القادمين ويملؤوا
بها أعمدة جرائدهم الكبيرة وهم يتسابقون الى ذلك فيبتدون بالاطلاع
على كشف أسماء الراكين في البخرة واذا وجدوا اسما بينهم من أسماء
المشهورين يجتهدون في مقابلة صاحبه وقد يمرون على غرف البخرة
التي من الدرجة الأولى ليعرفوا من بها ولهم طرق غريبة في استنشاق
الأخبار من الملاحين أو من الخدم أو من الضباط أو من المسافرين
أنفسهم فاذا علموا أن القادم من أرباب المصارف المشهورة يسألونه

عن قصده وهل له مشروع مالىّ جديد وما هي آراؤه في الحالة المالية في السنة الحاضرة واذا كان من كبار أمة يسألونه عن سبب زيارته لأمريكا ثم يستدرجونه بحيلهم في الكلام ويأخذون عما يدور بينهم بعض مذكرات ويتوسعون فيها بعد ذلك ويدرجونها بكل سرعة في جرائدهم . ولإني أرى أنهم مضطرون إلى عملهم هذا وإلا فما الذي يملأ هذه الجرائد العظيمة التي لا تنقل احداها عن ثمان صفحات - فكان من نصيبي أحد هؤلاء المخبرين وهو شيخ عتيق في صنعته بارع فيها وهو مخبر جريدة (ورلد World) المشهورة بنيويورك ولعلني أن مثل هؤلاء المخبرين يلزم الاحتراس من لسانهم فلم أردّه خاتبا بل قابلته وتحدثت معه على قدر ما استطاع من الاختصار وبعد ذلك طلبنا لتمرّ أمام مفتش المهاجرين وكان يسلم إلى كل واحد منا ورقة حمراء صغيرة بها اسمه ولقبه وبعض إيضاحات أخرى وهي مجعولة لمعرفة شخصية القادم فيقدّم السائح هذه الورقة لأحد المستخدمين المنوطين بذلك فيسأله عن اسمه وعن المدة التي سيقمها في أمريكا ويطبق أجوبته على الورقة التي كتبت أولا عند النزول في البخرة وهي التي تسمى جوازاً (سايورتا) .

هنا يلزمني أن أقول شيئاً عن هذه الورقة إن الأسئلة التي بها كثيرة

جدًا منها ما هو مستعمل في جميع جوازات بسابورتات العالم ومنها ما لم أره إلا في بلاد أمريكا كالأسئلة الآتية : هل أنت متزوج بأكثر من واحدة ؟ هل سبق أن أصبت بمرض معد وما هو ؟ ما هي حالة صحتك الآن ؟ هل أنت كامل الحلقة ولا توجد بك عاهات ؟ ما سبب مجيئك الى أمريكا وما هي المدة التي ستمكثها فيها ؟ ما هو مقدار ثروتك ؟ ما هو الموجود معك الآن من النقود ؟ أى جهة تقصد الإقامة فيها ؟ وهكذا مما لا أتذكره لكثرة فتأمل أيها القارئ مقدار هذه الشقة ولو كان مثل هذا البساورت في بلادنا لهابت علينا الأفكار قاتل الله الأغراض .

ذهبنا في صحبة رئيس الخدم إلى رئيس ديوان المكس فعرفنا أنه وصلته أوامر من مركز الراسة التابع لها بواشنطن بأن لا يفتح حقائبنا فشكرته على ذلك وأبدت له سرورى من هذه المعاملة الحسنة . وفي أثناء ذلك كانت البانحة ترسو رويداً رويداً على الرصيف وقد شاهدنا كثيراً من الرجال والسيدات والأطفال ويدهم جميعاً الأعلام المختلفة ينظرون القادمين من الأقارب والأحباء فكانت ترى علامات البشر والسرور بحسن القدوم يادية عليهم حتى إن بعض السيدات كن يرسلن القبلات من بعيد الى أقاربهن وأصحابهن . رست البانحة

فاشتمت المزاحمة على الخروج أما نحن فكاننا متفصلين عن هذا الجمع لئرى مدخل البوغاز الجميل ولا عجب فإنه يستحق الالتفات إليه والإعجاب به ورغمنا من انهيار الأمطار كان المنتظر بديعا جدا فالبوخر الراسية أو الذاهية أو القادمة كانت لا تعد ولا تحصى كذلك الأرصفة التسعة التابعة لشركات مختلفة أما المنازل الشائخة ذات العشرات من الأدوار المصنوعة من الحديد فكانت تستلفت أنظارنا فتعجب من عظمتها وبدأنا نشعر بكبر هذه البلاد ووصولها إلى الغاية القصوى في صناعة الحديد وقد دلتنا ذلك على أن هذا المعدن رخيص في هذه البلاد حتى إنه يصنع منه كل شئ . وبعد ذلك نزلنا تقابل القومندان فودعته مكررا الشكر .

ولما أردنا النزول بعد أن هدأت الحالة قابلنا أحد رجال كوك وهو شاب السائق تظهر عليه علامات الذكاء والسرعة في تأدية وظيفته فأخبرنا أنه قادم لخدمتنا مأمور بالقيام بكل حاجاتنا فأوصلنا إلى سيارة أعدتها لنا في طريق كان يسابق إليه مخبرو الجرائد فكم وكروا هذا المسكين وكم توعده بالشر لعدم مساعدتهم في إيقافنا لحادثهم . ولما ركبنا السيارة أعطى اسم التزل سراً للسائق حتى لا يسمعه هؤلاء المخبرون واستأذن منا في إحضار المتاع وبلحقتنا .

أما نحن فكنا لانعرف أين نذهب فتركنا أمرنا للسائق الذي أسرع في السير إلى أن وصل إلى باخرة معدة للتعدية من الشاطئ الذي نحن فيه وهو يسمى (ن . ن . جرس N. Gersay) إلى الشاطئ الآخر الواقعة عليه نيويورك وكان أمامنا جملة من العربات والسيارات فأخذت كل عربية مكانها في البخرة ونحن أخذنا مكاننا أيضا بسيارتنا وقد لاحظنا أنه يوجد ثمان بواخر للتعدية إلى جهات مختلفة من نيويورك أما نحن فأخذنا البخرة التي توصلنا إلى طريق نمره ٣٢ وهنا يمكن أن أذكر أن الأمريكيين لهم طريقة جديدة استحسنتها في ترتيب شوارعهم وهي أنهم يختطونها كلها موازيا بعضها لبعض وليس لها أسماء بل مئمة . فمدينة نيويورك يخرقها ١٦٢ شارعا كلها يوازي بعضها بعضا وهذا غير نيويورك القديمة الباقية على حالتها فشوارعها لاتزال تسمى بأسمائها القديمة .

مررنا أثناء سيرنا على جملة من الطرق وقد لاحظنا أنها ليست بالغة الغاية في النظافة بل هي كطرق سائر المياني في النظافة ولكن الذي يستلفت النظر هو شدة الزحام وعدد العربات الكبيرة المحملة بضائع التي تجرها خيول عظيمة الخلقة من كل جنس وعلى ما أخبرنا أن نيويورك جامعة من جميع أجناس البشر وكذلك الحيوانات والعربات

والسيارات الاتية من بلاد مخنطة . أما منازلها ودكا كينها فلإنها على حسب الترتيب الانجليزى ومن كثرة دخان المعامل والمدخن يراها الإنسان سوداء وهى على الجملة ليست نظافتها كما يرام .
 وصلنا إلى تزل (بلمونت Belmont) فطلبنا لنا عُرفًا فأُعطيَ لنا فى الدور الثالث عشر وصعدنا إليها وقربنا من منافذها فشاهدنا المنظر بديعًا جدًا حتى إننا كنا نرى الأشخاص كالتمبل من كثرة الارتفاع .
 كذلك كنا نتصور الترموايات العديدة كأنها اللب الصغيرة التى تكون فى أيدي الأطفال ولكننا لعدم تعودنا مثل هذه الأمكنة المرتفعة كنا نستصعب وجودنا فيها لا سيما أن النجاة لا تكون متيسرة لمن فيها اذا حدث حرق كالقريب من سطح الأرض ففضلت أن أختار عُرفًا فى الدور الأقل ارتفاعًا من الذى فيه عُرفنا وقد طلبت ذلك وقُلنا إلى الدور العاشر ولكن حركة الترموايات الكبيرة مقلقة جدًا ففهمت السبب فى اعطائنا الأدوار المرتفعة وعلمت أن فكرة الحريق يلزم إبعادها عن خيالنا .

إن عدد سكان نيويورك يبلغ ثلاثة ملايين نفس وهى تعدّ بعد لوندرة أكبر مدينة تجارية فى العالم وهى فى الحقيقة عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية ولو أن واشنطن هى مركز الحكومة الرسمى

وعاصمتها ولكن عددا هائلا مثل سكان مدينة كنيويورك محتاج إلى بضائع وأشياء أكثر من غيرها ولذا ترد التجارة إليها من كل صوب بفكرة أنها تروج وتباع

لغاية ظهر هذا اليوم لم ننقل من التزلُّ وكنا ننتظر متاعنا وبعد حضوره أبدلنا ماعلينا من الملابس وتزلنا إلى قاعة الاستقبال لمقابلة المسيو يانج (Young) مدير محمل كوك في نيويورك فأرثته برنامج سياحتنا ففهمت منه أنه يعلم ذلك قبل مجئنا فعرض على أن يدخل بعض تمجور فيه .

لما كان ميعاد الغداء ذهبنا إلى غرفة الأكل ولما كان تزلُّ بلهوت من أحسن فنادق نيويورك كما نتظر أن نرى فيه ما يروقنا ولكن خاب ظننا ولم يعجبنا خدامه وإلى أرى فرقا عظيما بين فنادق أوروبا الكبيرة وبين هذه في النظام ووضع الغرف والترتيب العام والخدمة والنظافة .

هناكل شئ كبير هائل : المنازل بها فوق الخمسين طبقة وعدد غرفها يزيد عن الألف ولكنها صغيرة تشبه جُجر البواخر . نعم إن في بعضها عشر مصاعد (اسانسورات) للصعود والتزول ولكن ما الفائدة إذا كان النظام غير كامل . ومن الغريب في أمر هذه الفنادق أن هناك

إذنا عاما بالخروج والدخول والجلوس في ردهاتها وصلواتها فترى أناسا من كل الطبقات في ردهاتها يجلس أى إنسان في المحل الذى يريد يدخن كيف يشاء ويجزر خطابه ويضرب مواعيد مقابلة فيها لأصحابه وهكذا وقد عرفنا أن هذا التساهل إنما هو لايهام الوافدين من أوروبا أو من بلاد أجنبية أخرى أن حركة هذا الفندق عظيمة والإقبال عليه كثير وهذا من باب الإعلان والنشر قسمع من أصحابه مثلا أن عدد الوافدين اليه لا يقل عن ٢٠٠٠ نفس في كل يوم . صدقوا ولكن هل هذا العدد العظيم يقيم فيه ؟ لا -

إذا هذه الطريقة هى من ضمن طرق الاعلانات التى برع فيها الأمر يكون وقد لاحظنا أنه اذا حضر زائر وأراد مقابلة أى شخص بالفندق فما عليه الا أن يذكر اسمه وأسم من يريد مقابله الى مركز الإدارة الذى يعطى هذين الاسمين الى أحد الغلمان فيدور فى الردهات مناديا بهذين الاسمين نجيل إلينا أننا فى احدى الاسواق أو فى أحد المحال التجارية التى يباع فيها بلزاد العلى .

ان السماء كانت تمطر ولكنى لم أرد أن أطوى سبيل يومى بدون أن أرى شيئا جليدا فطلبت من المسيو يانج مدير محل كوك ارشاداته فأشار على أن نمتطى سيارة ونذهب الى الرياض العامة فى أعلى البلد

ثم تزور الأماكن العظيمة المشيدة في نيويورك فواقفناه على هذه الفكرة ورجوته أن يأمر لنا بإعداد سيارة (ليموزين) ويحدد الأجرة مقدما ويزود السائق بما يلزم من المعلومات وقد حددنا ميعاد الاستراحة الساعة الثالثة بعد الظهر - هنا كل شيء غال ولا يسمع الانسان إلا الدولارات وأجرة السيارة في الساعة الواحدة ٥ دولارات أي خمسة وعشرون فرنكا .

صعدنا إلى غرفنا لنستريح قليلا حتى يأتي ميعاد الاستراحة فلم أتمكن من ذلك لوجود تليفون بججرتي ورغبة الكثيرين من مخبري الجرائد وأصحابها وغيرهم في مقابلتي وان سكت جرس التليفون كان يأتي أحد الخدم حاملا بطاقة يطلب صاحبها مقابلة وهكذا الى أن ورد الـ آخرها ظرفان أحدهما يحتوي على رسالة من كاتم أسرار جمعية الاتحاد السورى بنيو يورك بإمضاء عباس أبي شقرة والآخر يحتوي على بطاقة المسيو قيصر صباغ فضي الوقت ولم أذق للراحة طعما وأتت الساعة الثالثة واذ جرس التليفون يدق وقائل يقول لي إن السيارة في انتظاركم فأسرعنا بالتزول بواسطة المصعد (الأسانسور) الذي يلزمني أن أصفه قليلا ليعلم القارئ مقدار الصعوبات التي تكبدناها . ان هذا المصعد يهبط بالانسان بسرعة رائعة تذهب بالعقل وتؤثر في الأعصاب كذلك

في صعوده فإنه يرتفع دفعة واحدة فيهتز الراكب اهتزازا شديدا يسبب في بعض الأحيان فقد الموازنة فيالله اذا تكرر الصعود والهبوط جملة مرار . وبالاختصار ركبتا السيارة وذهبتا الى مدير محل كوك بشارع برودوى (Broadway) وهو أطول شارع بنيويورك طوله نحو ١٣ كيلو مترا فوجدنا بارسال دليل يرشدنا إلى كل ما نريده .

اني ممن يحبون الهدوء والسكون ولذا أعشق جمال الطبيعة ، وكثرة الحركات في المدن العظيمة لانروقي ؛ فما أراه الآن في نيويورك من الحركة المدهشة جعلني أسأم الإقامة بها واني أشعر بنفسى كأنما وضعت في مصفحة اسطوانة جوفاء من الداخل والخارج ومعى جملة من قطع الحديد وقذف في شارع منخفض فصرت أتحرج ولا قوة لي أن أمنع هذا السير السريع وأتخلص مما أنا فيه .

عدنا من محل كوك لتتم استراضتنا فذهبتا من الشارع نمرة ٥ وهو أجمل شارع بنيويورك به أعظم وأكبر المحال التجارية إلى السترال بارك (Central Park) وهو متنزه جميل في وسط المدينة كمنزته (هايد بارك) بلوندره ومنه الى شاطئ نهر (الهدسون) الذي أعجبتى جدا المناظر الجميلة التي به خصوصا المنازل الخصوصية فانها مشيدة تشيدا يقناد أعنة الحدق اليها ولم تقطع من هذا الشاطئ ٤ كيلو مترات حتى رأينا

تمثال الجنرال جرانت فاستمرونا ونحن مسرورون بهذه الاستراضة اللطيفة الى واشنطن بارك وهو مستراض آخر وعلى روبة منه مدرسة العميان والصم والبكم . أما الجسور وعظمتها ودقة صنعها وارتفاعها وطولها فلا نسل عنها . مدهشة وكثيرة ومن أحسنها جسر واشنطن . هذا وقد رأينا أثناء سيرنا بنايات هائلة ومدارس عديدة وقد ألفت نظرنا كبر الجامعة الأمريكية وحسن موقعها وجمال بنايتها ولكن لا عجب من ذلك اذ أننا في بلاد المليارات والمشهور عن أغنياء أمريكا الغيرة الشديدة والمنافسة حتى في الهبات العلمية وبما أن جامعتهم حديثة بالنسبة لباقي جامعات الأمم الأوربية لا بدع أن اختاروا من كل جامعة ماراؤه جميلا ومفيدا ووضعوه في جامعتهم ولا بد من أن تكون أرقى بكثير من أشباهها بأوروبا وغيرها ولا يخفى أن الذهب الوهاج يسهل الصعوبات ويجعل كل شئ ممكنا فيثروتهم الهائلة يحضرون الأساتذة الماهرين والمخترعين المشهورين لأنهم لا يرضون بدفع أجور عالية تحجب المجتهدين فيهم .

عدنا إلى الفندق في الساعة السادسة مساء مسرورين من كل ما رأيناه ولقد استعجبنا كثيرا لقلّة رجال البوليس خصوصا في الأتحاء المتطرفة ولا بد أن نيو يورك لا تخلو من قطّاع الطرق واللصوص

كسائر المدن الكبيرة - ولما دخلت غرفتي وجدت فيها باقة من الورد
الأحمر الجميل مكلفة بشریط أحمر من الحرير مكتوب عليه بالقص
جمل الترحيب بحضورنا من نادى السوريين بنيويورك .

تناولنا العشاء وافترقنا للنوم طلبا للراحة مما لحقنا من التعب وفي
صباح الخميس (٩ مايو الساعة ٩ و ٣٠ دقيقة) حضر عندنا المسيو
يانج ومعه الدليل فنصحتنا أن نذهب إلى المدينة القديمة لمعرفة الفرق
بينها وبين الجديدة ثم إلى البورصة وإلى مركز التجارة فقبلنا مشورته فأمر
الدليل أن يحاطب أحد سمارة البورصة تليفونيا يرجوه أن ينتظرنا
ليأخذنا معه إلى البورصة التي لا يمكن زيارتها إلا بواسطة أحد سمارتها
لأنه ألقيت من مدة قبلة مفرقة بيد أحد القوضيين في داخلها
ومن وقتها حصل التشديد في قبول دخول غير المعروفين . فافترقنا على
أن يعود المسيو يانج بعد الظهر وركبنا سيارة للذهاب إلى الأماكن التي
ذكرها لنا وفي الطريق صادفنا زحاما شديدا ولا يمكن الانسان أن
يتصور عدد المشاة وعدد العربات المختلفة الأنواع وإني لا أذكر
زحاما يشابه هذا الازدحام إلا في بعض الأحياء الكبيرة بلوندره .

مررنا في الطريق على المكتبة التي أهدى أرضها المستر استور أحد
أصحاب المليارات وقد قدر ثمن تلك الأرض بمبلغ ٢٠٠٠٠٠ جنيهه

أما بناؤها العظيم فقد تكفل به المستر كارينجى من أكابر المالىين
 فتركها واستمررتنا فى طريقنا الى أن وصلنا الى المباني العظيمة
 (كالماديسون سكوير) و (ساحة الاتحاد Place de l'Union) وقوس
 النصر لهورج واشنجتون وبرودوى (Broadway) وقربنا من
 البورصة وما كنا نرى على يميننا وشمالنا وأمامنا الامباني هائلة مركبة
 من ٤٠ الى ٥٠ طبقة وأغلبها فيه شركات التامين وأكبر المحال
 التجارية وأعظم المصارف . ومن دلائل الخليل التى برع فيها أهل
 تلك البلاد أن أصحاب البيوت ذات الأدوار الكثيرة يجتهدون
 فى اختيار أشهر موقع ويبنون منازلهم فيه بجوار المنازل الصغيرة حتى
 يظهر الفرق بينهم وبين الآخرين فوقتنا أمام أحد المصارف وذهب
 الدليل لاستحضار من سيدخلنا البورصة ولم يغب عنا الا قليلا
 وحضر ومعه رجل فى سن الشيخوخة فعرفنا بنفسه وأخبرنا أنه صديق
 المستر لويج الذى كان قاضيا عندنا فى المحاكم المختلطة بمصر وركب معنا
 الى وول استريت (Wall Street) فوقتنا أمام البورصة ورأينا على بعد
 بضعة أمتار منها زحاما شديدا فاذا هو مجمع السامسة الفقراء الذين
 يبيعون بعض أوراق على قدر حالهم وقد علمنا أنه لا يمكن أن يعد
 سمسارا فى البورصة الا من كان مساهما فيها بمبلغ لا يقل عن ألفى جنيه

فدخلنا فيها وصعدنا بالمصعد الى الدور الثاني فاحترقنا طرقة ودخلنا من باب أوصلنا الى طنف (بلكون) يُطلُّ على ساحة عظيمة الاتساع مملوءة من المخلوقات فلا يرى الانسان الا رجالا تموج في هذه الساحة وأوراقا صغيرة كاسية وجه الأرض وغلما من مرتدية ملابس مخصوصة للبورصة تجرى ويدها أوراق لتوصلها الى أشخاص ومكتبا كبيرا للتغرافات ولوحتين كبيرتين احدهما على اليمين والاخرى على الشمال تظهر منهما تمر السامسة المطلوبين والذين أعطوا عطاءً وبالجملة ان هذه البورصة تشبه خلايا النحل من كثرة العالم والجلبة التي فيها وفي أثناء ذلك حضر شريك الذي كان معنا وسلم علينا وبعد ذلك خرجنا وكلنا يعجب من هذه الحالة وشكرنا من أدخلنا .

ذهبنا بعد ذلك إلى محل ماكينات سنجر وإذا هو بناء مرتفع جدًا عدد طبقاته ٤٢ فدفعنا أجرة الدخول وقدرها ٥٠ سنس (١٠ قروش) عن كل شخص وصعدنا الى أعلى دور في هذا البناء فانكشف أمامنا المنظر العام لمدينة نيويورك لكن مما أسفنا له أن الجوز كان غابسا مكفهراً والأمطار تهطل مدرارا ولولا ذلك لملأنا أعيننا من ذلك المنظر البديع والشمس تسطع على رؤوس هذه الجبال التي ابتناها الانسان ليسكن فيها ويجعلها لنفسه مأوى ومع ذلك لم نحرم

من رؤية جسر (بروكليس) ولا جزيرة المهاجرين ولا التكنات الحربية ولا العدد العظيم من الأرصفة التي من ضمنها الرصيف الذي رست عليه باخرتنا . وبالجملة أمكننا أن نرى المدينة وأطرافها المتسعة وشوارعها المتوازية التي يقطع بعضها بعضا فرسمت تلك الرؤية في خيالنا منظرًا بديعًا جدًا . ربما يظن القارئ أن الاثنين والأربعين طبقة مملوءة مكينات ولكن لا . ان هذه العمارة ملك للسيوسنجر له فيها محال على قدر احتياجه والباقي ليكون مكاتب لأشخاص آخرين .

وقد سبق أن شرحت للقراء كثرة افتتاح الأميريكين في طرق الاعلان والنشر . وما بنى المسيو سنجر هذا البناء العظيم المرتفع إلا ليوجه الأنظار اليه وإلى تجارته - وعند نزولنا أعطيت لنا رسوم نيويورك على سبيل التذكار .

وصلنا إلى الفندق قبيل الظهر فأسرعنا لتناول الغداء لأننا كنا حدّدنا ميعادًا للتوجه قيصر صباغ الساعة ٢ و ٣ دقيقة بعد الظهر وميعادًا آخر لبعض أعضاء نادى الاتحاد السورى الساعة ٣ فعدت الساعة الثانية وربع حضر الأول فوجدته لطيفًا وهنأته لنجاحه في أعماله حيث إنه يملك ويدير محلا تجاريا للتفصيل والحياطة من أكبر المحلات بنيو يورك ولا شك أن شرقيا يصل الى درجته وينجح

بين ثلاثة ملايين من الأتقس في بلاد هو غريب عنها يستحق المدح والثناء والفخر . جلّسنا نخبأذب أطراف الحديث عن مدينة نيويورك ولكننا لم ننس أثناء الكلام أن نذكر بلادنا الشرقية العزيزة - لم يمض علينا وقت كبير حتى حضر أحد الخدم ومعه بطاقة أحد تجار اليونان بالإسكندرية فالآداب تقضى على بمقابلته خصوصاً لاهتمامه وإظهار ميله إلى فقابله وجلس معي قليلاً وانصرف بعد ما علمت منه أنه يتاجر في أمريكا في بذر القطن المصرى الذى يسمى نوبارياً فشجعته على ذلك وقلت له إننا نشتري جملة أشياء من الخارج فيلزمنا أن نبيع للبلاد الأخرى بعض حاصلاتنا حتى لا نحرم من المكسب ولو كان قليلاً . إن البلاد العظيمة ما وصلت إلى درجتها إلا باجتهد سكانها ولا تعدّ غنية الا بثروة أفرادها . فياحبذا لو أهدم الله الأمم الشرقية الالتفات إلى موارد الثروة ومزاحمة الأمم الغربية في كل ما يعود عليها بالسعادة والهناء هذا ما أتمناه للشرق وفقنا الله إلى ما فيه صلاحنا وفلاحنا .

أنت الساعة الثالثة وحضرتة من السوريين من أعضاء الاتحاد السورى بينهم طيب وصحافى والأربعة الباقون تجار فكوناً حلقة عربية وأطلقنا لأنفسنا عنان النطق بلغتنا الشريفة مظهرها لم سرورى

من إهدائهم لى باقة الأزهار الجميلة ثم دار بيننا الحديث فى جملة موضوعات مختلفة وقد علمت منهم أن لهم ست جرائد تطبع باللغة العربية فزادنى هذا الخير سرورا لانتشار هذه الجرائد فى أمريكا العلمى أنها واسطة التعارف والارتباط بين أبناء العرب الكرام ولا بد أنها تأتى بحوادث وأخبار الشرق فلا ينسى المهاجرون أوطانهم ويكونون دائما على علم بما وصلت اليه بلادهم من السعادة أو الشقاء وبهذه المناسبة رجوتهم أن يحافظوا على جنسيتهم وأن لا يعترفوا بمدنية وارتقاء وثروة أمريكا فيعملوا اليها ويخجنسوا بجنسيتها فبلادنا محتاجة الى أبنائها الأعرء ومهما بلغت البلاد الأخرى فإن الشرق هو مهد العلوم والمعارف وأصل المدنية ومنبع النور .

إن هذه المقابلة جعلت الرابطة بيننا وبينهم قوية حتى إننا افترقنا أصدقاء فودعتهم شاكرًا لهم شريف شعورهم داعيا لهم بالتوفيق . دعانى الخواجه قيصر صباغ لأن أتناول العشاء معه فى مطعم فرنسيّ شبير للسيو (مارتن) فقبلت دعوته وانصرف مع إخوانه على أن يعود إلينا قبل العشاء وبعد نحو وجهم حضر المستر (بانج) ومعه تذاكر السفر وقد فهمنى السبب فى تعديل خطة السياحة فتسلمتها منه وانصرف أيضا لأشغاله ولما صعدت إلى غرفتى وجدت بها باقة

من الزهور مرسله من الخواجه قيصر صباغ وعددا عظيما من بطاقات مخبرى الجرائد وقطعا من الجرائد اليومية التي بها ذكر قدمنا إلى نيو يورك فصممت على الخروج ماشيا لأجل الرياضة والراحة والابتعاد عن الفندق ولو قليلا حتى أتجنب مقابلة هذا الجيش العرمرم .

خرجنا ومشينا في شارع نمره ه وإذا بالأمطار تنساقط علينا فعدنا على أعقابنا مسرعين إلى الفندق وعند الساعة السادسة ونصف حضر الخواجه قيصر صباغ فذهبنا معه ماشين إلى المطعم فوجدت أنه في أحسن المواقع وأن الاقبال عليه عظيم فلم أستغرب لكثرة الواردين عليه حيث ان الطعام في باقي المطاعم الأميركية ليس جيدا وقد علمت أن المسيو مارتن يدفع كل سنة عشرين ألف جنيه إيجارا ويصل في بعض الأيام دخله إلى ٢٠٠٠ جنيه بخلسنا حول السفارة التي أعدت لنا بين زهور جميلة منضودة على المائدة وشجيرات خضراء متفرقة في مواضع مختلفة . ومن حسن الاتفاق أن الذي كان قائما بخدمتنا وقت الأكل تونسي يتكلم باللغة العربية فهذه المصادفة الجميلة جعلتني مسرورا .

اتهبنا من العشاء واقترقتا للراحة والنوم لأننا سنسافر غدا صباحا

الساعة ٨ و ٣٠ دقيقة بعد أن أرسلنا الى المحطة - وكانت أمام الفندق - حقايبنا الكبيرة لترسل الى شيكاغو .

أصبحنا في يوم الجمعة ١٠ مايو مبكرين وبعد أن تناولنا طعام الإفطار ذهبنا مع باقي متاعنا إلى المحطة نحو الساعة ٧ و ٣٠ دقيقة فاخترنا الطريق الفاصل بين الفندق والمحطة التي يشتغلون لتتميم بنائها وهي تسمى (المحطة المركزية الكبرى) والظاهر أن أكبر مساهم فيها هو المستر ويندر بلت وقد نزلنا الى نفق تحت الارض للوصول الى الرصيف الواقف عليه قطارنا أما تذكرةنا فكانت معنا وبما أنها تذكرة جملة محطات ستزل فيها فكانت طويلة كالخيل يفصل منها كلما اقتضى الحال التذكرة اللازمة (Billet circulaire) .

رتبنا أمتعتنا في الصالون الصغير المعد لنا في العربة (Compartment) وإذا بالمستريانج قد حضر لوداعنا وللأسوال عما اذا كنا في احتياج لأي شئ ليؤدبه لنا فرجونه أن يبعث بشكرى للستر ف . كوك ويقول له اني لا أنسى الخدمات الجلييلة التي قام بها مستخدموه فانيهم جميعا اجتهدوا في عمل كل مايسرنى .

أنت الساعة ٨ و ٣٠ دقيقة فودعنا المستر يانج فتحرك القطار وقد لاحظنا أن الفراشين الذين كانوا سودانيين مرتدون ملابس بيضاء نظيفة .

تركنا المحطة وسار بنا القطار مخترقا نيو يورك فكأ أشبه براكي قطار
 التَّنَقُّ (المترو Metro) تمرين أبنية وعلى جسور (كبارى) الى أن وصلنا
 الى منازل العمال التي بعضها بجانب بعض على الجهتين وكأ نلاحظ
 أنهم ينشرون ثيابهم المغسولة على حبال سوداء فوق السطوح أو بين
 البيوت كالطريقة المتبعة في ايطاليا ولا عجب فانهم ايطاليون .
 وفي نيو يورك ٣٠٠٠٠٠٠ عامل ايطالى . وقف بنا القطار خارج
 نيو يورك والى هنا كان قائد عرباتنا قاطرة تمشى بالكهرباء ففصلت
 عنا وأتى بقاطرة بخارية عظيمة بدلا وهذه ستمشى بنا ساعتين وثلاثة
 أرباع الساعة بدون أن تقف على محطة .

ابتدأنا نشاهد المناظر الجميلة فكان طريقنا على شاطئ المهدسون
 (Hudson) وهو نهر جميل واسع به ألوف من الزوارق والبواخر فكم
 مررنا على جسور وكم رأينا معامل تعددها لا يحصى . وقد ذكرى
 هذه المناظر بمناظر اليوسفور الجميل لأنها تشبهها في وجوه كثيرة حتى
 إن الاتساع في بعض الجهات يكاد يكون واحدا . كان قطارنا يطوى
 الأرض طيا وكأ تمر على بلاد كثيرة ولكن ليس في ذلك شئ خارق
 للعادة فانه كقطاراتنا السريعة التي تسير بين مصر والأسكندرية .
 تركنا حلقنا وذهبنا إلى آخر عربة في متنها جزء مكشوف

كالظنف (Observation car) به كرسيات مخصصان لمن يريد الاشراف على المناظر ولكن كثرة الدخان والقمام المتصاعد من السرعة تجعل الجلوس في هذا المحل غير مستطاع . وصلنا الى الباني (Albany) عاصمة مقاطعة نيويورك وعدد سكانها ٩٥٠٠٠ وهى واقعة على الشاطئ الغربى لنهر (الهدسون) فى ملتقى مصب النهرين ايرى (Erie) وشامپلان (Champlan) وهى بلدة قديمة هولندية وتجارها البيرة والأخشاب . والى هنا كان المنظر بديعا حيث كا دائما على شاطئ نهر الهدسون وقد مررنا على جملة معامل بعضها متروك والبعض الآخر يشتغل وألقت نظرنا معامل الآجر الكبيرة التى تصنع للبيات الهائلة بنويورك وبعد هذه البلاد أخذنا ننظر بعض روابى وأخذ القطار يتبع طريقا به منحنيات فتغير المنظر وصار يشبه مناظر شمال ألمانيا أو بوهيميا . أما منازل الفلاحين التى مررنا عليها فاتها مصنوعة من الخشب وملونة بألوان مختلفة ولكن اللون الأحمر والاخضر هما اللونان السائدان المختاران عندهم والمنظر العام لهذه المنازل من بعد يشبه المنازل النورفيجية أو السويسرية ولكن لا يوجد بينها ما يسمونه باللغة الفرنسية (شاليه Chalets) هذا وهؤلاء الفلاحون يشبهون

الهولانديين والالمانيين والسويسريين والنمساويين ولم أفرقا بينهم
يميزهم عن هذه الأجناس .

إن الانسان يشعر وقت السفر والتنقل بين أرجاء تلك البلاد
بمقدار اتساع الولايات المتحدة ويرى أن صدرها يتسع لكثير من
المهاجرين غير من تزحوا إليها ملء فضائها العظيم وزرع أراضيها
الواسعة التي لم تحسبها الى اليوم يد الزراع .

قربنا من بلدة أوتيكا (Utica) فرأينا كثيرا من قطعان البقر ولدته
صغير الجسم ضئيلة لا يماثل بقرة أو بقرة أوربا في جمال الهيئة وامتلاء
الجسم أما هذه البلدة فعدد سكانها ٦٠٠٠٠ وهي مركز تجارة الجبن
الأمريكي . وأثناء سيرنا كنا نرى من جهة اليمين والشمال كثيرا من
المستنقعات وبعض أراضي مزروعة ولكن يظهر عليها أنها ليست
جيدة التربة ولم نشاهد مقاطعات زراعية كثيرة ولا طرقا مستظمة بل
كلها غامرة من هطل الأمطار فالقفر إذا ضارب أظنابه في هذه الجهة
وأظن أن الاعتناء بالطرق الزراعية في أمريكا مهملا جدا ولا يرى
الانسان بها أمثال طرق فرنسا مثلا المعنى بها تمام الاعتناء .

وصلنا بعد ذلك إلى سيراكوز (Syracuse) التي يبلغ عدد سكانها
١٠٠٠٠٠ نسمة وهي واقعة على شاطئ بحيرة أونونداجا (Onondaga)

ويخترقها قتال ابرى (Erie) وقريب منها جملة ملاحظات يراها الانسان
بعد خروجه من المحطة

أما هذه البحيرة فيبلغ طولها عشرة كيلو مترات ويستخرج منها كل
سنة ما قيمته مليون دولار من الملح وقد رأينا بها جملة معامل للقضار
وجمع تجارتها يقدر بثلاثة ملايين دولار كل سنة .

بعدنا عن هذه المدينة بقليل واذا نحن في وسط مزارع وكنا نرى
بين وقت وآخر طيوراً ذات ألوان بديعة تسر الناظرين .

قربنا من روشستر (Rochester) البلدة الكبيرة الشهيرة بمصنوعاتها
وكنت أسمع عنها لشهرتها بصناعة آلة التصوير الشمسي المعروفة
بالكوداك وعدد سكانها يبلغ مائة وتسعين ألف نسمة وهي واقعة
بالقرب من بحيرة أونتاريو (Ontario) وبها معامل للجبعة والأقشنة
والأحذية وآلات التصوير الشمسي وغير ذلك ويخترق وسطها نهر
يسمى جنيزي (Genesee) فيكون بها شلالا ارتفاعه ٢٩ مترا .

أما تجارتها فتبلغ خمسة وسبعين مليون دولار كل سنة وشركة آلة
التصوير (الكوداك) رأس مالها ٣٥ مليون دولار . هنا لم يبق لنا
الا محطة بفالو (Buffalo) التي يقف عليها قطارنا فلما قربنا منها تغير
الجو وصار مائلا إلى السواد من كثرة الدخان المتصاعد من مداخن

المصانع الكثيرة فلما دخلنا محطتها وجدناها كبيرة وبها مئات من الخطوط الحديدية وهنا يجدرني أن أذكر شيئا عن الطرق الحديدية الأمريكية :

ان لكل قاطرة بخارية جرسا عظيما يدهه أحد السواقين عند الدخول أو الخروج من محطة أو عند ما يقطع الخط الحديدي ممرا . والسكك الحديدية تحترق شوارع بعض المدن كمدينة روستستر وبوفالو فيسمع فيها الانسان دق الجرس الآذن بالمسير - وقد لاحظنا أن قطارات البضاعة طويلة جدا أما المحطات بخلها لم يعتن ببنائه وليس به زخرفة - مثلا محطة بوفالو الكبيرة نبيت إلا مظلة تشغل مسطحا عظيما من الأرض ولا يوجد بها أرصفة ولا مجال للاستراحة والانتظار - وللخروج منها يمر الانسان على جملة خطوط فاذا كانت هذه حال تلك المحطة الكبيرة فكيف اذا تكون بقية المحطات

ان اسم مدينة بوفالو آت من اسم بوفل وهو حيوان كان يأتي الى بحيرة (أيرى Erie) ليشرب منها ولما كان هذا النوع من الحيوان كثيرا جدا في هذه البقعة سميت البلدة باسمه وهي ثاني بلدة كبيرة في مقاطعة نيويورك يبلغ عدد سكانها ٤٠٠,٠٠٠ نسمة وهي واقعة على بحيرة (أيرى Erie) على بعد ٣٢ كيلو مترا من جنادل نيا جارا وفيها قتل

الرئيس ماكينزي بيد أحد القوضيين لما كان بها معرض سنة ١٩٠١
 وبجيرة (أيري Erie) هي الفاصل بين حكومة كندا والولايات المتحدة
 وطولها ٤٠٢ كيلومترا وعرضها يختلف ما بين ١٠٠ و ٥٠ كيلوا أكبر
 عمق لها ٣٧ مترا وهي متصلة ببجيرة (هورون Huron) ببوغاز (Détroit)
 ريفير (River) وبجيرة أونستار يوجينادل نياجارا وما أكثر الكهرباء
 بها المتولدة من تيار تلك الجنادل ومع ذلك لا يستغنى فيها عن الوقود
 فان عدد المداخن التي بها لا يحصى والدخان المتصاعد منها يتعقد
 في الجو فيكون سحبا مظلمة فوقها .

تركا قطارنا لتأخذ قطارا صغيرا آخر (أو منيوس) يوصلنا الى
 نياجارا بعد ساعة وبعد ركوبنا وجدناه مشحونا بالركاب وبعد قليل
 تحرك بنا ببطء فرأينا على شمالنا البحيرة العظيمة التي لا يمكن للناظر أن
 يرى شاطئها الآخر ثم وصلنا الى نياجارا فولس (Niagara Falls) ونزلنا
 بمحطتها وفي الحقيقة لا يقدر الغريب أن يعرف أهو في المحطة أو
 خارجها لأن القطار أحيانا يقف في الداخل وأحيانا في الخارج وعلى
 أي حال قد تركناه ولما كنا لم نتحرك عشرة ساعات متوالية أثناء هذا
 السفر فضلنا المشي قليلا على الأقدام حتى الفندق الذي سستزل به
 حيث هو قريب جدا منا . وأول خاطر يطرأ على القاصد على هذه

البلدة الصغيرة أن يخيل إليه أنه في إحدى بلدان أوروبا الشهيرة
بمناجيع المياه لأنها خالية من الزنرفة والسكون نجيم عليها فداخلنا السرور
العظيم وشعرنا بالفرق الجلي بينها وبين مدينة نيويورك الكثيرة الحركة
والضوضاء - وصلنا الى الفندق فاذا هو من نوع البانجالت الهندي
(Bangalt indien) ومحاط بطنف (فيراندا) ومشرف على شوارع متسعة
كلها مرصوفة بالاسفلت وأمامها كنيسة كبيرة وبجانها جملة من المنازل
الصغيرة الجميلة المصنوعة من الخشب أو من الآجر مرتبة ترتيباً أنيقاً
تشبه المنازل الصغيرة الجميلة المصنوعة أيضاً من الخشب التي على
شاطئ البسفور

صعدنا لتري غرفنا التي أعدت لنا ولما كان باقيا على غروب الشمس
نحو ساعتين ونجمن نريد الحركة تزلنا ثانياً لنمشي الهوينا في الشوارع
القريبة من الفندق فصادفنا في الطريق مؤجر عربات فعرض علينا
سيارته لزيارة الجنادل وكل المناظر التي تستحق أن يراها السائح على
أن تكون الأجرة خمسة دولارات في الساعة وقد عاهدنا على أن زيارة
كل هذه المزارات تستغرق ثلاث ساعات قبلنا شروطه على أن يحضر
صباح غد الساعة ٩ و ٣٠ دقيقة الى الفندق واستمررتنا في طريقنا
في الشارع الذي على شمال مسكننا وصرنا نسمع خرير مياه الجنادل

المتساقطة إلى أن وصلنا إلى حديقة صغيرة بدیعة على شاطئ النهر ونحن مُعجبون بانحدار المياه الصافية فصرنا ننقل من مكان إلى مكان ويستوقفنا كل منظر جميل فتمتلئ قلوبنا يقينا بجلال قدرة الخالق وبداع صنعه فلم نشعر إلا ونحن بالقرب من جنادل (شلالات) نياجارا الهائلة

هنا وقفنا خاشعين أمام القدرة الالهية نعبج من جمال المنظر وقد طال بنا الوقوف ولانعلم لذلك سببا الا أننا سُمرنا من عجب ما رأينا وذهبت أفكارنا في عالم آخر لم نعهده من قبل حتى خيل لنا أن ما نراه إن هو الا أضغاث أحلام كأن الطبيعة أرادت أن تتصورها بجلالها وعظمتها ولم ننتبه من ذلك الخيال الذي ملك أفتدتنا الا وقد أرمحى الظلام سدوله وتوارت الغزاة بالحجاب عن أعيننا فالتفتنا بعضنا إلى بعض قائلين ما ذا جرى لنا وقد طال بنا الوقوف ونحن عن ذلك غافلون فصممنا على العودة بالرغم منا وقلوبنا متعلقة بذلك المنظر الذي ملأها عجا وكن ما الحيلة وكل شيء له نهاية وتلك سنة الله في خلقه ولن نجد لسنة الله تبديلا

ان المكان الذي نحن فيه الآن تابع لحكومة الولايات المتحدة ولأجل أن نعود من غير طريقنا ذهبنا إلى شارع آخري دعى الشارع

الكبير (Grande Rue) وعلى جانبيه يرى الإنسان جملة من الدكاكين الكبيرة يعرض فيها بطاقات البريد (الكروت بستانل) وصور مناظر الجنادل وبعض مصنوعات جلدية من صناعة الهنود الأمريكان ذوى اللون الأحمر مرسوم عليها صورة إحدى نساءهم أو أحد رجالهم بالزى الوطنى ومن معروضاتها أيضا ملابس مختلفة وحراب وآلات أخرى مستعملة عندهم وكذا يجد الإنسان فيها عدة أشياء مصنوعة من الحجارة التى يعثرون عليها فى تلك الجنادل وقد أتقن صنعها (كأساور وعقود ومشابك وأزرار وغير ذلك) ولون هذه الحجارة أبيض ناصع وهذا الشارع مخصوص لزائرى نياجارا

وصلنا الى الفندق وقصدنا المطعم الذى ليس به ما يستحق الذكر غير أن خدامه من السود فاخترنا من الطعام ما استحسنناه وبعد ذلك صعدنا الى غرفنا للنوم مبكرين حتى نسال أنفسنا حفظها من الراحة فتقوى على احتمال متاعب الغد

أصبحنا فى يوم السبت ١١ مايو سنة ١٩١٢ وكانت الساعة التاسعة صباحا وإذا بالسيارة حضرت أمام الفندق فلم تنتظر نصف الساعة الباقى على موعد الانساق حتى لا نعود متأخرين وتوكلنا على خالقنا وركبنا فيها فسارت بـإسم الله بسرعتها العادية فقررنا على شارع

(بفالو (Buffalo)) الذى به مصنع بسكويت كبير ثم على الحديقة التى زرتها البارحة متبعين الشدار المياه فرأينا جزيرة المعز التى يصلها بالحديقة الصغيرة جسر وقد سميت بهذا الأسم لأن مالكها كان يربى فيها معزا وقد اشترتها الحكومة الأمريكية بمليون دولار لتجعلها مستراضا عاما ومساحتها ٣٢ هكتارا وبها كثير من الأشجار والنباتات ومنها خرجنا الى اليمين لنذهب الى جزيرة القمر (Luna Island) وهى جزيرة صخرية صغيرة واقعة بين جندل أمريكا وجندل كندا

ومن هنا يرى الانسان جندل أمريكا بكل عظمته وجلاله . ولما كان الجحوق صحوًا والشمس زاهية رأينا تحت هذا الشلال قوس قزح بألوانه المختلفة الجميلة ثم ذهبنا لرؤية ثلاث الجزر التى فى وسط النهر المرتبطة بعضها ببعض بجسور من حديد وهذه الجزر تسمى (Les Trois Sœurs) ومن مكاننا يشاهد السائح عظمة وأنساع البحيرة ويرى كندا ثم من بعد هذه الجزر الثلاث ينقسم النهر الى فرعين ثلاثة أعشار مائه تسقط من جندل أمريكا وسبعة الأعشار الأخرى تسقط من جندل كندا . ولحسن الحظ استمر نور الشمس فرأينا مثالين آخرين لقوس قزح وقد علمنا أن هذا المنظر الجميل لا يبدو إلا فى الصباح عند ما تبرز الشمس ويكون الجحوق رائقا فالواقف على الجهة التى نحن

بها الآن تكون الشمس وراءه من العجب أن هبوط الماء من علو إلى أسفل يحدث عنه فيما بين الشاطئين أشبه ثني البيطار أو الضباب الرائق تخفله أشعة الشمس فيبدو من ذلك نصف دائرة ذات ألوان مختلفة من بنفسجي وأزرق وبرتقالي وأحمر وغيرها كأنها قوس قزح .

تركا مكاننا وذهبتا الى الجسر المعلق هناك نمر على أراضي كندا وهذا الجسر هو الفاصل بين حكومة الولايات المتحدة وحكومة كندا .

وقتنا أمام خُصَّين (كشكين) صغيرين تابعين لحكومة إنجلترا ودفعتنا رسم المرور وبعد ذلك اتخذنا طريقنا الى أن عبرنا هذا الجسر ولا يلبث عابر هذا الجسر أن يصل إلى نهايته الأخرى حتى يشعر بوجوده في حكومة أخرى أكثر نظاما وأحسن ترتيبا وأول ما يصادف منتزه الملكة فيكتوريا الواقع على شاطئ الجندل وهو منتزه قد بلغ من حسن النظام غاية وبه للملكة تمثال محكم الصنع ومن عجيب ما رأينا أن أشجار هذا المنتزه لم تكن موروقة مع أن أشجار سائر الجهات كانت موروقة وهذا ناشئ من كثرة الرطوبة وشدة البرد وقد علمنا أن أشجار ذلك المنتزه إنما تورق بعد أشجار سائر الجهات الأخرى بنحو أربعة أسابيع .

أما طول هذا المنتزه فيبلغ أربعة كيلومترات ورأينا جندل كندا الذي يطلق عليه اسم نعل الحصان لأنه يشبه تمام المشابهة (Per à cheval) .

أما رشاش المياه النشئي من سقوطها فانه يصعد حتى يوازي قبة الجندل وقد قدر ارتفاعه بمائة متر ثم تقذفه الرياح على الشاطئ ولذا أخضل الرشاش سرايلنا ونحن في السيارة فاضطررنا أن نتعد عنه ووقفنا أمام خص (كشك) معد للزول منه إلى حيث يرى السائح الجندل عن كشب ودخلنا فيه فاذا هو كدكان يبيع وشراء قسايق الينا جماعة من طلاب الريح فمنهم من يريد أن يبيعا من معروضاته ومنهم من يريد أن يصورنا كل ذلك لا يتراز دولارات السائحين ولكنا تركناهم وشأنهم ولم نعرهم التفاتا وبعد أن دفعنا الرسوم المقررة أدخلنا إلى غرفة معلق بها سرايل من القماش المشمع للوقاية من الماء وتحتها صندوق كبير مقسم إلى جملة عيون به أحذية مختلفة وهي أيضا متخذة من الجلد المشمع ليختار منها الزائر ما يوافق فشرع كل منا يختار حذاء من على قدر رجليه ثم تقدم الينا شخص وأعطى لكل واحد منا (بنطلونا) فلبسناه وبعد ذلك صار يلبسنا (سترة بزنت) لتغطية رؤسنا فأغرب أشكالنا حيننا تبدلنا بزينا هذا الزى الحديد . ان هينتا التي تبدلت كانت تضحكا كثيرا فانتا صرنا نشبه الملاحين وقد لبسوا أمثال تلك الأردية وقت هطل الأمطار وكان معنا بعض السائحين والسائحات الذين ارتدوا مثلنا هذه الملابس وبعد ذلك ذهب بنا الى المصعد

(الأسانسور) الذى هوى بنا مسافة ٥٠ متراً تحت الأرض فوصلنا الى قفق مضاء بالأنوار الكهربائية كالنقى الذى يتخذ لاستخراج المعادن ومشيئاً فيه الى أن وصلنا الى فرجة يشاهد منها الانسان الجندل من جانبه فأعجبنا منظره وهالكاً أمره ثم ذهب بنا الى مكان آخر أبعد من السابق فاذا نحن تحت مسقط الماء فما أشد تأثير الانسان فى هذا المكان .
 إن المقادير العظيمة من المياه التى تسقط من ارتفاع هائل بسرعة مذهلة تحدث أصواتاً مزعجة تتحقق لهُولها القلوب فسبحان القادر على كل شئ .

إننا لم نجرأ على الاقتراب من المياه المتساقطة مخافة البلل والذين دفعهم حب الاستطلاع الى الاقتراب منها ما كان نصيبهم إلا أنهم عُجروا بها فارتدوا على أعقابهم نادمين - وهنا يجدرنى أن أذكر ما حكى لنا: أن سيدة تدعى تيلور (Tytor) صنعت لنفسها تابوتاً على هيئة أسطوانة جوفاء فدخلت فيه بعدما اتخذت فيه وسائل الحيلة حتى لاتموت من عدم الهواء ثم ألقي بها فى اليم لتسقط من أعلى هذا الجندل العظيم الارتفاع الذى يسمى (نعل الحصان) وقد كانت الجواهر المحتشدة على شاطئى النهر وعلى مقربة من الجندل لا يحصى عددها وكلهم موقن بأنها لا بد أن تفقد حياتها ان لم يكن يسبب

اصطدامها بجوائط تابوتها لسقوطها من علو هائل فوق الصخور المنتشرة أسفل الجندل كان هذا الموت محققا من كثرة الحركة ودوران التابوت بالسرعة العظيمة التي يرتج لها المخ فتذهب الحياة وبينما هم في مَرَجٍ ومَرَجٍ وجدال فيما عسى أن تكون عاقبة هذه المجازفة المهلكة رأوا على بعد من أسفل الجندل تابوتا يطفو تارة ويغمره المياه أخرى وهو يسير متبعا سير الماء فصاحت هذه الجموع ظهر التابوت فهل هي على قيد الحياة ؟ وبعد أن انتشل التابوت وفتح أمام الأطباء الذين كانوا على استعداد لإسعاف هذه السيدة وقت الضرورة رأوها حية ولكن لا حراك بها فكانت جدا هامدا وإن كنت فيها الحياة فلا شعور ولا إدراك فحملت إلى ملجأ الإسعاف وما أفاقت مما غشيها إلا بعد ثمانية أيام .

إن هذه الجرأة مدهشة جدا وأعدتها من باب الجنون وقد كتبت عنها الجرائد وتحدثت بحادثتها كل رائخ وناد من أهل أمريكا فهي حادثة غريبة تناقلها الألسن وتحكى لكل من يؤم الجنادل .

تمت زيارتنا وصعدنا الى حيث كنا لننطع ما علينا ونعود الى هياتنا الأصلية ولم نستغرق في هذه الزيارة أكثر من عشر دقائق . تذكرت كل ما قيل لنا مما يخص بهذا المكان فقد ذكر لنا أن الوصول الى

ما تحت جنديل (نعل الحصان) يستغرق ٢٠ دقيقة وقد هؤلوا لنا في الكلام عن أصوات المياه وقالوا انها تؤثر في الآذان أسوأ تأثير فلا بد للذهاب من أخذ قطن معه ليضعه في أذنه حتى لا يصاب بصمم فلم نُعر أقوالهم التفاتاً لعلنا ماجيل عليه بعض الأميريكين من التهويل وقد قلنا فيما بيننا اذا كان الأمر يحتاج الى مثل ذلك فلا بد أن انوكلين بحراسة هذا المكان عندهم كل ما يلزم . أما ماسمعناه من صعوبة الوصول الى ما تحت (نعل الحصان) وأن الزائرين يلزمهم أن يماسكوا بعضهم ببعض حتى لاتزلق الأرجل فشيء كثير والحقيقة أن كله كلام باطل لاصحة له .

ركبنا سيارتنا واستمررنا في طريقنا قرأنا عمارة جديدة كبيرة أخبرنا أنها ستكون مطعماً ثم مررنا بعد ذلك أمام بناء شاهق نظيف جداً به الآلات المولدة للكهرباء التابعة لحكومة كندا الى أن وصلنا الى نبع ماء حار وهو أيضاً أعجوبة من عجائب الدنيا الجديدة :

ان هذا النبع واقع بالقرب من الباب الجنوبي للتنزه فأسرعنا بالتزول من مركبتنا للدخول في النخس (الكشك) الصغير المحيط به وبعد ذلك أدخلنا الى غرفة صغيرة من الخشب في هذا النخس في وسطها حوض صغير به ماء يغلي وقد صحبنا أحد مستخدمي هذا المحل فابتدأ يشرح لنا باللغة الانجليزية مامعناه :

ان هذا المنبع كشفه الهنود الأمريكيون (ذوو اللون الأحمر) من نحو مائة سنة وماؤه كبير حتى حاز مفيد جدا لأمراض الروماتزم وقد يخرج منه غاز قابل للالتهاب ولتحقيق ذلك أجرب أمامكم التجارب الآتية :

قبل أن يتدئ تجاربه أقفل الباب حتى صارت الغرفة حالكة الظلام وأخذ أنبوبة دقيقة ووضعها وسط الحوض في ثقب فيه ثم أدنى عودا ملتها من فم الأنبوبة فالتهب الغاز بشدة . ورأينا اللهب قسمن قسما أزرق وآخر أحمر فقال لنا ان الانسان يمكنه أن يضع يده أو منديله على هذا القسم الأزرق دون أن تحترق يده أو منديله وقد حقق هاتين التجريبتين أمامنا فلم يمس يده ولا منديله أدنى ضرر وقد أردت أن أجرب بنفسى ذلك فوضعت يدى على هذا القسم الأزرق فلم أشعر بشئ مطلقا ولكن حذار من الاقتراب من اللهب الآخر فانه شديد الحرارة جدا وبعد ذلك رفع الأنبوبة من مكانها فصرنا نرى الماء يغلى ثم أشعل مشعلا وقربه من سطح الماء فالتهب وارتفعت النار ارتفاعا عظيما وشعرنا بالحرارة الزائدة ولما أراد اطفاؤها أرجع الأنبوبة الى مكانها فاحتبس الغاز عن الماء ولم يكن له مخرج الا فم الأنبوبة فانطفأت ثم قدم لنا فى قدح قليلا

من ماء هذا النبع فذقته ولم أجد له طعما أو رائحة قوية كماء نبع حلوان ثم ألقى مافي القدح وأشعله بكبريت فهب الغاز من القدح كأنه كان به الكحول وقد ذكر لنا أن هذا الماء مفيد جدا للرضى بالروماتزم ولولا أن مقداره قليل لكان مورد ثروة عظيمة ولا تنشر في العالم للتطبب به وقد علمنا أن في ضواحي هذه الجهة بعض منابع أخرى من هذا النوع .

ان سرورنا من رؤية هذا النبع ومن التجارب التي شاهدناها يعدل سرورنا من رؤية الجنادل فنخرجنا معجبين مما شاهدناه واتخذنا طريق المزارع لتصل الى مجرى (Whirlpool) الشديد وعبرنا الجسر الثاني المعلق فلم يرقنا نظام هذه المزارع ولا شك في أن من شاهد مزارع أوروبا المنسقة تنسيقا بديعا لا يمكنه أن يشهد الا بما شهدنا . وقد صادفنا في طريقنا كثيرا من أشجار الفواكه وقد قيل لنا ان الفلاح يكتسب من القدان الواحد المزروع فيه هذه الفاكهة من ١٠ الى ١٥ جنينها في السنة . هذا ولا تسئل عن الطرق الزراعية التي اخترقتها وحالتها فانها رديئة جدا فكثرة الأمطار طمست معالمها وجعلتها غير صالحة للسير فيها بسهولة .

أما بلدة كليفتون (Clifton) التي مررنا عليها أيضا فان بطرقها آلافا

من المصابيح الكهربائىة فيظن الناظر اليها أن تلك الطرق قد زينت بتلك المصابيح لأمر تأثم لاثبت أن تزول ولكن فى الحقيقة هذه الزينة البديعة دائمة الى ماشاء الله .

وصلنا الى المجرى السريع المذكور ولمشاهدته يلزم الدخول أيضا فى خص (كشك) يشبه بهوا الأخذ مكات فى عربة تنزل الى الأسفل حتى شاطئ النهر وأجرة دخول كل شخص (٥٠ سنس) وقد أسرع الينا كالعادة من يريد أن يرسم صورنا فلم تقبل فأخذنا مكاننا فى هذه العربة ونزلنا الى الشاطئ فدهشنا من قوة المياه المنحدرة من هذا المجرى وسرعتها . وقد قيل لنا إنه الى الآن لم يستطع تقدير قوتها والغريب أن ماء النهر ساكن بعد الجندل ويستمر هذا السكون الى مسافة كيلومترين ثم ينعطف النهر فجأة فيحدث من انعطافه هذا زاوية قائمة فيكون دوامات هائلة سببها تلاطم المياه فى الصخور ومصادمتها للشاطئ الشمالى . وبما أن النهر من طبيعته منحدر فقوة الاندفاع وكثرة المصادمات هى المسببة لهيجان النهر الذى نراه من المكان الذى نحن فيه الآن وقد قدر عمقه فى هذه الجهة بخمسة عشر مترا . وقد حكى لنا أن الكابتن ويب (Webb) الانجليزى أشهر شهر فى العالم فى السياحة وهو الذى عبر المائس ساجما أراد أن يعبر

من هذا المكان متبعا مجرى المياه فألقى بنفسه في اليم ولكن قوته لم
تساعده على المكافحة فابتلته المياه وذهبت به الى حيث شاءت فما
كان نصيبه إلا الموت . هذه واقعة من يلقى بنفسه الى التهلكة ان
هي إلا عظة لقوم يعقلون .

في هذا الموقف العظيم أقيت نظرة عامة على كل ما رأيت من
عجائب هذا النهر فتجلت أمامي قدرة الخلق بجلالها فسبحان القادر
على كل شئ .

كيف لا يدهش الانسان وتملكه الحيرة من هذه المناظر التي بينما
يراها بديعة جميلة يملأ حسنا نظره فتقرّبها عينه وينشرح لها صدره
إذ يراها هائلة تخفق لرهبتها القلوب وترتاع من هولها النفوس . ان
نحير المياه تطرب له الآذان وصفاءه تقرّبه العيون فاذا وجه الانسان
سمعه الى هذه النعمة الطبيعية المستمرة ووجه نظره الى هذا الصفاء
البلورى ينشرح قلبه ويرتاح ضميره ولكنه لما يتأمل كيف تتحدّر المياه
بسّدة الى هوة لا يقل عمقها عن مائة متر وهذه الهوة محصورة بين
حائطين عظيمي الارتفاع يشعّر بالمهابة فيستصغر نفسه ويشهد أن
الانسان مازال ولن يزال ضعيفا أمام هذه العظمة وهذا الجبروت .
ان مكاننا ورؤيتي هذين الحائطين الهائلين جعلاني أذكر للقارئ

مثلا آخر من أمثلة الجسارة النادرة التي ظهرت أثناء زيارة جلالة ملك انجلترا ادوارد السابع لكندا عند ما كان وليا للعهد . وقت زيارة جلالتة لهذا المكان كان هناك أحد المشهورين في الألعاب الرياضية (Equilibriste) المدعو المسيو بلوندين (Blondin) الفرنسى الجلس فوضع له من الشاطئ الى الشاطئ الآخر جبل على ارتفاع مائة متر فوق هذا المجرى السريع فمشى عليه حاملا رجلا على أكتافه أمام جلالتة من إحدى ضفتى النهر الى الأخرى وقد طلب من جلالتة أن يركب فى عربة صغيرة بعجلة واحدة من الأمام ثم توضع على الحبل المعلق فيمشى بها ويدفعها أمامه بمن فيها فلم يجبه جلالتة الى ما طلب لما فيه من الخطر العظيم ولكن المسيو بلوندين المذكور أبى إلا أن يظهر براعته فربط متديلا على عينه حتى لا يرى الحبل ووضع الرجل الذى مز به أولا وهو محمول على أكتافه فى هذه العربة ومشى به على هذا الحبل آمنا مطمئنا الى أن وصل الى الشاطئ الآخر للنهر . فما أجسره وما أبرعه فى صنعته إنه أعجب الحاضرين وأدهشهم حتى صار يومه يوما مشهورا يذكر لكل السائحين كارتجح حادثة من أهم الحوادث . أردنا العودة لتناول الغداء بالفندق فركبنا سيارتنا وأمرنا السائق أن يعود الى حيث أتى بنا وما نحن عن محل إقامتنا بعيدون . اتنا ننظر

أراضى الولايات المتحدة أنها أماننا على الشاطئ الآخر الذى رأينا به
المحل الكبير المعد لتوليد الكهرباء التابع لهذه الحكومة وهو بناء
لا يعجبك منظره ولكنه عظيم النفع حيث تنبعث منه الكهرباء الى
بعد مائة ومجسين ميلا انجليزيا -

مررنا على الجسر الفاصل بين الحكومتين وبعد قليل وصلنا الى
الضدق وأننا رأينا كل ما يستحق المشاهدة فى تياجارا ولم تبق لنا
فائدة ننظرها من البقاء بها أردنا الذهاب الى شيكاغو حتى لا يصعب
وقتنا سدى ولكننا رجعنا فنذ كرنا أن غدا يوم الأحد ومحل كوك
سيكون فيه مقفلا فذهابنا لا يفيدنا شيئا كثيرا فرجعنا عن عزمنا متبعين
الخطة المرسومة لنا من محل كوك وعلى حسبها يكون السفر غدا الى
شيكاغو -

ابتدأت الأمطار تسقط بعد ظهر هذا اليوم فحمدنا الله اذ تمنا
زيارتنا فى وقت صحو رأينا فيه كل المناظر على حالتها الطبيعية الجميلة
ولما كانت الاقامة بالضدق مملة أردنا الاستراحة فمشينا فى وسط تلك
البلدة الصغيرة العاطلة من الزخارف إلا أن الصدور فيها منشرحة
فأخذنا نمشى الهويتنا محترقين شوارعها تقف تارة بعد أخرى أمام
بعض الدكاكين لترى ما فيه . كل ذلك لتقضى الوقت - أتى المساء

فعدنا لتناول العشاء وبعد ما أكلنا مالذ لنا وطاب صعدا إلى غرفنا
ونمنا في راحة إلى الصباح -

ابتدأنا يومنا (يوم الأحد ١٢ مايو) باستراحة قليلة وكان الجو
مظلمًا والسماء تهبطنا بأمطارها ولم يمض علينا كثير من الزمن حتى
أخذت السماء تنجس رذاذ دموعها فرجعنا على أعقابنا إلى الفندق لأكتب
مذكراتي عن سياحتي وجلسنا في الطنفة (القيراندا) أمام الكنيسة
حيث نرى الغادين منها والرائحين إليها وبقينا على هذه الحالة إلى أن
حان وقت الغداء وبعده أحضر لنا صاحب الفندق بواسطة دليلنا
دفترًا معقدًا لتقيد أسماء الكبراء الذين يقدون على فندقه ولما كنا
مسرورين بما لقيناه من الراحة قبلنا طلبه خصوصًا انه وامرأته بلغنا
من العمر أكله وهما يؤذيان واجبات الخدمة بكل مافي وسهما لكل
قادم عليهما . نخرجنا بعد ظهر هذا اليوم نقصد الاستراحة فسمعنا
من بعد نغمات موسيقى فقصدنا نحوها حتى نرى لأى سبب تعزف
ولما وصلنا إليها وجدناها كالموسيقى التي تعزف في المواسم (الموالد) ولما
سكنت نهض رجل وابتدأ يلقي خطابة فظن رفيقنا خيرى أن تلك
الخطابة ربما كانت موضوعها الانتخابات حيث إننا الآن في ميعد
انتخاب رئيس الجمهورية وظن رفيقنا الآخر مصطفى أنها لإعلان عن

محل تجارى كما يعمل في بعض الأحيان في مصر ولكن الحقيقة أن هذه الفئة تمثل جيش السلام (Armée de Salut) وقد شبهنا هذا الموكب بالصور الهزلية ومن رآه خصوصا بعد أن تمت الخطبة وتحرك للسير لاسعه إلا أن يشاركاً في حكمتنا فان على رأسه رجلا كان يحمل علما وقد بلغ من العمر أرذله بمشى الخَيْرَى وهو محدودب الظهر تظهر عليه علامات الضعف الشديد وبين صفوفه أطفال لا يبلغون الحول العاشر ينفخون في أبواق كما شاعوا وشاعت لهم معارفهم القاصرة في هذا القرن الجميل ووراءهم ست سيدات مرتديات ملابس مخصوصة لجيش السلام بينهم امرأة نَفَّت على الستين ولا بد أن تكون زوجة هذا الشيخ الخريف الحامل لواء السلام -

قربت الساعة الخامسة فعدنا مسرعين إلى الفندق والسما تمد إلى الأرض من الأمطار حبالا لتناول عشاءنا في منتصف الساعة السابعة حتى نكون على أهدبة السفر بالقطار الذي يُحْرَك من نياجارا في الساعة ٨ و ٥ دقائق - وفي منتصف الساعة الثامنة اعتمدنا على الله وخرجنا للسفر بعد أن ودعنا صاحب الفندق ووصلنا الى المحطة قبل الميعاد وبما أن ذلك اليوم كان يوم بطالة رأينا عدد الغادين والرائحين أكثر منهم في باقي الأيام . أتأ الداخل إلى هذه المحطة فلا يرى إلا ساحة

كبيرة بها مقاعد للمسافرين وفي وسطها صنوبر ماء للشرب بجانبه قدهج واحد لعامة الناس وبهذه الساحة أيضا جرة صغيرة للتلفون لمن يريد المكالمة به مجانا -

انتظرنا مقدار ربع ساعة ثم أخذنا نبحث عن قطارنا الذي سنسافر فيه فوجدناه مستعدا فركبناه وقد أخذت مكاني في غرفة صغيرة طلبت من قبل أن تكون خاصة بي أما رفيقاي فأخذوا مكائهم مع باقي المسافرين في (البولز كار) وما أتت الساعة الخامسة صباحا من يوم الاثنين ١٣ مايو حتى كنا مررتين ملابسنا ففتحتنا احدى النوافذ لترى ماتمر عليه فاذا نحن على شاطئ بحيرة (مشيجان) العظيمة الاتساع التي تشبه البحر بأواجها المتلاطمة - استمر القطار في السير بنا بجوار هذه البحيرة مدة من الزمن ثم لحنا دخانا متصاعدا من جملة مداخن مصانع على بعد عشرين دقيقة من مدينة شيكاغو فما أكثر الخطوط الحديدية في هذا المكان إنها متشعبة الى شعب كثيرة تذهب الى جهات مختلفة . أما الحركة العامة للقطارات الغادية والرائحة الى هذه المدينة فعظيمة ومدهشة . زمن غريب مارأينا أيضا ميناء كبيرة على هذه البحيرة بها جملة منارات كالتي توجد في البحار العظيمة - وصلنا والحمد لله إلى محطة شيكاغو فترلنا من قطارنا ودُّهَب بنا إلى

عربية عامة (أمينيوس) لتوصلنا الى الفندق الذي كنا نظن أننا منه على بعد شاسع ولكن لم يمض على سيرها أكثر من ثلاث دقائق حتى وصلنا اليه وهو واقع على أكبر شارع واسمه شارع ميشيغان (Avenue Michigan) على مقربة من المستراض العام الكبير (Grand Park) فدخلناه فاذا هو أيضا ذو خمس عشرة طبقة ومن أكبر فنادق شيكاغو وأبدعها نظاما وإحدى جهاته تشرف على بحيرة ميشيغان.. وقد تسمى مدينة شيكاغو بمدينة الأهوية لاشتدادها فيها وهي تأتي من جهة البحيرة وهي أكبر مدينة تجارية وصناعية بعد نيويورك في الولايات المتحدة . وهي مركز تجارة الحبوب وقد بنيت على مستنقعات ومنازلها لاتزال صغيرة غير أنه ابتدئ في جعلها كبيرة ذات أدوار عديدة وذلك للنافسة بينها وبين نيويورك فكلما هدم بيت صغير أقيم على أنقاضه آخر ذوأربعين أو خمسين طبقة ومن العجب أن الامريكيين لا يحبون أن يكون لهم منازل خاصة بهم حتى لا يدفعوا ضرائبها ولا أجرة الخضر ولا غيرها مما يدفعه الملاك ويفضلون السكن بالابحار ولو في الطابق الثلاثين أو الخمسين -

وقد كان ينتظرنا في الفندق كالعادة أحد مخبري الجرائد فرأيت أن أقابله أيضا وتحادثت معه قليلا ثم حضر مدير محل كوك وأظهر لنا أنه

على استعداد تام لخدمتنا فشكرناه . ولما كنا عازمين على ألا نقيم في هذه المدينة أكثر من يوم واحد بادرنا لزيارة كل الأماكن اللازم زيارتها فصحبنا عامل كوك وجلسنا في الشوارع المهمة ومررنا على المحال التجارية الكبيرة مثل البون مارشه (Bon Marché) واللوفر (Louvre) اللذين يباريس ومثل (الأرمي اند ناڤي Army and Navy) الذى بلوندره والذى استلقت نظرنا في هذه المحال التنسيق وحسن النظام وأن كل ما يختص بالسيدات محصور في أمكنة خاصة به واللاتى يبعنه سيدات أيضا والذى يختص بالرجال في أمكنة أخرى ويبيعه رجال وليس ذلك النظام متبعا في المحال التجارية الكبيرة بفرنسا التي يرى فيها الانسان البائعة بجوار البائع ورماتبيع السيدات ما يختص به الرجال ويبيع الرجل ما تختص به السيدات وربما ترى بائعا يلبس سيدة تقازا وهكذا . أما نظافة هذه المحال فحدث عنها ولا حرج فانها في منتهى الكمال وقد لاحظنا أن الجزء المخصص للروائح العطرية في هذه المحال كبير جدا وهذا ما دلنا على أن الأمريكيين مغرمون بها كثيرا ولم أستغرب ذلك لأننا لما كنا في الباحة كانت معنا سيدة من أسرة غنية في صحبة زوجها والاشنان كانا مرتدين ملابس الخزن فرغما من ذلك كانت هذه السيدة تدهن بالعنبر العبق الرائحة الذى كان

يلزم الانسان أن يهرب قبل أن تقترب منه خوفا من تأثيره الشديد .
وقد ذكرني ذلك صديقنا القديم زبير باشا ورأى تحت العطرية الشديدة
وقد كنت مندهشا كيف يتيسر لزوجها أن يقيم معها في غرفة واحدة
دون أن يتأثر من هذه الرائحة الشديدة . وهذا أمر لم أفهم له علة الا
أن العادة تصير الصعب سهلا بل قد تحوّل السم دواء .

ثم خرجنا من هذه المحال لزيارة دار المحافظة وبقى مرا كرا إدارة
ولاية الیونی (Illionis) التابعة اليها (Chicago) شيكاغو فوجدناها جميلة
وعظيمة وخرجنا منها إلى إدارة البريد الهاتلة ثم ذهبنا إلى البورصة
وهي مركز بيع جميع أصناف الحبوب : ولشهرتها يجدرني هنا الاشارة
إلى مجمل وصفها ليكون للقارئ إلمام بها - دخلناها وصعدنا إلى مكان
مرتفع به كراسي معدة للزائرين فأخذ كل منا مجلسا قرأنا ما يستحق
الذكر - انها تشبه بورصة نيويورك حيث يجتمع في بيوها أربعة
أو خمسة جموع من التجار والسامسة الذي يصيحون بكل قواهم
ويشيرون إشارات مختلفة تدل على قبول البيع أو رفضه ووراء كل
جمع كاتب سر يبدو عليه كمال المقدرة والنشاط المدهشين فانه يقيد
في لوح البصر أسماء الذين قبلوا البيع ومقدار ما باعوا وما اشتروا . وهنا
تقتاد أعة الفكر حالة المشترين والبائعين وصعود الأثمان وهبوطها

في كل لحظة ومن الغريب أن آخر الأسعار ترسل بواسطة آلة كهربائية بها سير متحرك يسير برقعة كتب فيها السعر فيوصلها الى الطرف الآخر من البهو المعد لذلك . وقد لاحظنا في شمال هذا البهو ستين من عمال التلغراف يرسلون الأسعار النهائية بالتلغرافات إلى جميع أنحاء أمريكا فإذاً بورصة شيكاغو هي التي تضع وتحدد أثمان الحبوب لسائر الولايات المتحدة ولا أغلى اذا قلت إنها ربما تحددها لجميع أنحاء الدنيا -

خرجنا من البورصة للذهاب إلى الفندق حيث آن ميعاد الغداء وبعده استأجرنا سيارة لزيارة المدينة وحدائقها والمحل الذي كان قد أقيم فيه المعرض وقد كانت بودى رؤية مذهبة (سلكانة) شيكاغو الشهير لولا أن نصحني أصدقائي بعدم الذهاب إليها لفضاعة المنظر ولكراهة الروائح التي تنبعث منها - خرجنا من الفندق نحو الساعة الثالثة بعد الظهر متبعين شارع ميشيغان (Michigan) لزيارة حدائق واشنطن وقد لاحظنا أثناء سيرنا أن الشوارع المهمة نظيفة ومعتمى بها أكثر من شوارع نيويورك فقررنا على المحطة التي أتينا منها وصرنا نتبعد عن منظر البحيرة أى أننا بعد هذه المحطة غادرنا الرصيف وسرنا مخترقين شارعا كبيرا لا يرى الانسان على جانبيه إلا محال تجارية

للسيارات وظنى أن هذا الشارع هو مركز تجارة السيارات في الولايات المتحدة -

هذا والذي استغريته أنى رأيت كثيراً من السيدات راكبات عربات صغيرة مقلدة تمشى بقوة الكهرباء وهن اللاتى يحركنها بأنفسهن بدون سائق يقودها بلا خوف ولا وجل فقلت اذ ذلك ان الأمريكيين الذين أمهاتهم أمثال هؤلاء السيدات المثلثات نشاطا وثباتا وقوة جنان جديرون بما نالوا من الصيت الطائر فى جميع أنحاء العالم فأكثر أخلاق الولد وعوانده مكتسب من أمه فالأمم ترتفع بارتفاع المرأة فيها وتخط بانحطاطها

وصلنا إلى حديقة واشنطن فرأينا فى مدخلها تمثال جورج واشنطن واخترقناها فأعجبنا جمالها ونظامها ومنها ذهبنا إلى حديقة جاكسون (Jackson Park) وهى ثانى حديقة لا تقل عن الأولى فى نظافتها وترتيبها وقد رأينا بها ساحات عظيمة مقسمة إلى جملة ملاعب كملعب التنس (Tennis) وكرة القدم والجولف (Golf) وبها بحيرة للتجذيف فى فصل الصيف وفيها أقيم المعرض الكبير -

إن هاتين الحديقتين على مقربة من بحيرة ميشيغان وفى الثانية رأينا حوضا به أربع سفن من الخشب يزعم الأمريكيون أنها تمثل

المراكب التي كُشف بها كرسstof كولومب أمريكا وظنى أن هذا
زعم باطل -

إن استراضتنا هذه كانت في جنوب المدينة والمنازل التي مررنا عليها
رأيناها على أحسن حال من النظافة غير أننا لم نتمرّ بمساكن الصناع
والفعلّة حتى يكون حكمنا عما فشهادتنا هذه لما رأيناها بأعيننا - ذهبنا
من هذا الطرف إلى الطرف الآخر الشمالى للمدينة لرؤية حديقة
لينكولن (Lincoln Park) ومررنا أثناء سيرنا على حديقة جرانت
(Grant Park) التي بها تمثال هذا الجنرال وقد رأينا أيضا مدرسة
الفنون الجميلة ثم عبرنا نهر شيكاغو (Chicago River) ومته وصلنا إلى
شمال المدينة فاقتراد نظرنا ما رأيناها من حسن النظام وبديع الترتيب
في شارع كبير أجمل من الشوارع التي رأيناها واسمه شارع الملياردير
وهو في الحقيقة بالغ غاية النظافة ومعنى به جدا وقد علمنا أن هنا
منازل أصحاب المليارات القاصرة المحكمة البناء التي بها المصابيح
الكهربائية الكبيرة على اختلاف أشكالها البديعة فلا يخلو منها هناك
مكان حتى الطرق الفاصلة بين هذه القصور الأنيقة -

وصلنا إلى حديقة لينكولن (Lincoln Park) فإذا بها أيضا بحيرة
متصلة بحيرة مشيجان فرأينا فيها جملة زوارق تسير بالبتزين أو بدونه

وقد وجدنا بهذه الحديقة مكانا خاصا لنباتات البلاد الحارّة فنزلت من السيارة لالقاء نظرة على هذه النباتات وقد كانت بجوارها حديقة للحيوانات فلم أتمكن من زيارة الأخيرة لانهمار الأمطار فعدت مسرعا إلى سيارتنا فركبت فيها وسارت بنا . ولما كانت هذه العربة ليست مقفلة فهي من ذوات الغطاء (الكبود) شعرنا بالبرد الشديد وخيل لنا أننا في طريق الأهرام وقت اشتداد البرد في فصل الشتاء حتى إن رفيقتنا مصطفي بك استغربت من هذه الحالة خصوصا أن مدينة شيكاجو ليست على جبل واننا في شهر مايو الذي لا ينتظر فيه برد مثل ما نشعر به الآن - اشتدّ المطر وزمجر الرعد فرأينا الصواع (من نساء ورجال) الذين يخرجون من مصانعهم يسرعون ويهرولون ليلاحقوا التراموايات التي توصلهم إلى منازلهم وعلى رؤوس بعضهم مظلات والبعض الآخر لقوا جراند على قبعاتهم كل ذلك لالتقاء الماء أما نحن فأسرعنا في السير حتى وصلنا إلى فندقنا . ولما كان باقيا على ميعاد العشاء نحو ساعة وكان ينتظرنا عامل كوك الذي كلفته بالحضار تذاكر القطار المعدلنوم (Billet de nuit de Pullman) التي لم آخذها من نيويورك رأيت أن أقضى بعضها معه فحدثته عن إيجابي بمدينة شيكاجو وكيف رأيت المنتزهات والشوارع بها في غاية النظافة وجرى بنا الحديث إلى

مارأيته في نياجارا خصوصا نبع المياه الحارة القابل للالتهاب فقال لي إنه لا يؤمن بصحة هذه الأعجوبة و يظن أنها مصنوعة فلم أستغرب ذلك في مثل هذه البلاد - أما فكري الخاص في هذه المسألة فما كنت أجراً على التصريح به ضد الرأي العام الذي يعتمد تمام الاعتقاد بصحتها فلما وجدت لي شريكا في اعتقادي صرحت أنا كذلك بأني لا أعتقد بصحة هذه الأعجوبة لمخالفتها للحقائق العلمية -

إن مدينة شيكاغو على ارتفاع ١٧٩ مترا عن سطح المحيط الاطلانطي و ٤٥٠ مترا عن سطح بحيرة ميشيغان ومساحتها ٥٢٠ كيلومترا مربعا وعدد سكانها يبلغ مليوني نسمة وقد قيل لنا إنه لا يوجد بين هذا العدد أكثر من ٣٥٠,٠٠٠ من الأمريكيين القدماء أعني الذين أصلهم إرلانديون أو هولنديون أو سويديون (Suédois) أو دينمارقيون (Danois) وهؤلاء السكان ينقسمون كما يأتي :-

٧٠٠,٠٠٠ ألماني و ٢٠٠,٠٠٠ إرلاندي و ٨٠,٠٠٠ اسكانديناوي (Scandinévois) و ١٠٠,٠٠٠ بولوني و ٩٠,٠٠٠ بوهيمي (Bohémiens) و ١٠,٠٠٠ انجليزي ايقوسى (Anglais Ecossais)

و ٤٠,٠٠٠ من العبيد والباق من أجناس مختلفة وقد يتكلم فيها بأربعين لغة وبها جرائد كثيرة تطبع بلغتين وتؤدى الفرائض الدينية

هناك بثلاثين لغة فهى إذا بلدة يسكنها خليط من أجناس شتى وقد لاحظت بها كنيسة روسية . هذا وقد رأيت بها كثيرا من التماثيل فى حديقة البحيرة تمثال الجنرال جوهن لولوجان (John le Logan) وفى حديقة لتكولن (Lincoln Park) تمثال الرئيس لينكولن (Lincoln) وبها أيضا جامعة كبيرة رأس مالها ١٠ ملايين دولار تبرع من هذا المبلغ المترى الشهير المستر روكفلر (Rockfiller) بسبعة ملايين دولار وليس هذا عليه بكثير فانه أكبر غنى فى العالم ومعظم ثروته آتية من استخراج زيت البترول أما عدد تلاميذ هذه الجامعة فيبلغ خمسة آلاف طالب - وبهذه المدينة مكتبة عظيمة تسمى باسم من أسسها المستر نيورى (Newberry) بها ٣٠٠,٠٠٠ مجلد وقد ذكرت قبلا أنى لم أزر منبجها ولكن هذا لا يمنع من أن أذكر عنه شيئا مما علمته لأهميته فان مساحته ٢٠٠ هكتار وبه ٤ كيلومترا مربعا قد زرعت فيها النباتات الصالحة لتربية الماشية (Pature) و ٣٠ كيلو مترا تغمرها مياه للشرب - وقد يحتوى على ٧٥ ألفا من البقر و ٣٠ ألفا من الخنازير و ٥٠ ألفا من الضأن و ٥٠٠٠ حصان ولا يستغرب القارئ ذبح هذا النوع الأخير من الحيوانات فان فى أوروبا كثيرا من الفقراء يأكلون منه فمثلا فى النمسا بعض جزارين لا يبيعون إلا اللحم

الخيل وقد يعلنون عن ذلك فى إعلاناتهم التجارية فالأمريكىون
أولى من أولئك بأكل تلك اللحوم لأنهم أكثر الناس تهاافتا على جمع
الثروة والبحث عن الدرهم باى وسيلة فأى مانع يمنعهم من التجارة
فى هذه اللحوم ؟ ربما يدهش القارئ أكثر اذا قلت له ان لحوم هذه
الحيوانات تخلط أحيانا مع باقى لحوم الحيوانات الأخرى ومن ذلك
الخليط تكون اللحوم المحفوظة وهل يعرف أى خيول تذبح ؟ الخيول
المسنة التى طال عليها القدم ولم تعد تصلح للاشتغال - إن
الأمريكىين لايجبون أن يتركوها تموت أو تعدم بدون أن ينضغوا بها
فى شبها يسخرونها حتى تفقد قواها ثمذبجونها ويتاجرون بلحومها -
وقد يرد على هذه المذابح كل سنة من ٣ الى ٤ ملايين من البقر
ومن ٧ الى ٨ ملايين من الخنازير ومن ٣ الى ٤ ملايين من الضأن
و ١٠٠,٠٠٠ حصان ويقدرون ثمن هذه الحيوانات التى تذبح بتلك
المذابح بمبلغ ٣٠٠ مليون دولار -

أكتفى الآن بما ذكرت عن مدينة شيكاغو بما أن ميعاد العشاء
أزف -

بعد أن تعشينا بادرنا إلى النوم وقد عز منا على ترك هذه المدينة غدا
ان شاء الله فى منتصف الساعة العاشرة صباحا ولكنى بعد أن أبدلت

ملا بسى خطرى أن أكتب قليلا في رحلتى عن حالة المدينة ليلا وعن أمور رأيتها ولا بد من ذكرها - أما حالة هذه المدينة ليلا فاتها تسر الناظرين بأنوارها الساطعة المتلازمة اذ ليس بها كثير من أمثال المنازل الشائخة ذات الطبقات الكثيرة التى شاهدناها في مدينة نيويورك ولا تساع شوارعها العظيمة تلك الأمور التى لاحظتها هي :-

ان نساء مدينة شيكاغو وبناتها يظهر عليهن الجمال ولكنى أنكر عليهن كل الانتكاز تمثلهن بالرجال فلهن يركبن الدراجات التى تسير بالبترو (الموتوسيكلات) وكما ترى أحيانا سيدة ورجلا أوقى وفتاة راكبين على دراجة واحدة من هذا النوع أما اللاتى ينتهزن بالعربات الكهربية أو السيارات على اختلافها ويقدنها بأنفسهن فعددهن لا يحصى والذى ألفت نظرى أكثر من كل ذلك أن الصبية منهن تخرج في الشوارع والرياض والطرق إلى أن تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها وهى لابسة حلة قصيرة (Jupe courte) عارية الساقين حتى يظهر لها زوج فتغير زيا هذا - ان هذا فى نظرى ونظر كل شرق لا يزال محافظا على آدابنا الشرقية العالية تبرج ممقوت له من سيئ العواقب مالا أريد أن أجاهر به - أما اختلاط الطالبين والطالبات

في مدرسة واحدة فأظنه أيضا لا يلائم الطبيعة البشرية التي لا تسلم مما يشينها إلا اذا جعلت لها دائرة من الحدود لا تنتعدها فلحرية الانسانية يجب أن يكون لها حد تقف عنده وإلا استعالت إلى حرية العجاواوت السائمة في بواديا - وإلى هنا أترك الحكم في ذلك للقارئ فليحكم بما يشاء - هذه ملحوظاتي أديتها وأختتمها بكلمة أنصح بها اخواني الشرقيين : حافظوا على عواندنا وتقاليدنا وعلّموا المرأة ما يؤهلها للقيام بشؤون منزلها وواجبات زوجها وتربية أطفالها فان في ذلك نغزنا وسعادتنا وراحة ضميرنا والله يهدينا الصراط المستقيم -

أصبحنا والشكر لله في الرابع عشر من شهر مايو وما أنت الساعة السابعة حتى كآ على أهدبة السفر فتركنا غرفنا ونزلنا لتدفع الأجر ثم نرجنا من الفندق الساعة الثامنة وركبنا سيارة إلى المحطة التي سنسافر منها ولم تكن قريبة من الفندق كالتي وفدنا منها وعند وصولنا إليها وجدنا القطار حاضرا فصعدنا إلى عربتنا ووصلنا إلى المحال التي جعلت خاصة لنا وهي أيضا عربية (Pulliman) غير أنه كان في هذه المرة بقطارنا عربية للآكل فآخرة ومحل للتدخين وآخر للطالعة به جملة جرائد ومحل للمحلاة به حلاق سوداني ومحل لمسح الأحذية وفي قطارنا آلة للتلفون يمكن اتصالحا بآلة تلفون أي محطة يقف

عليها القطار بجبل دقيق يحفظه خادم العربية الذي يقوم بذلك العمل كلما طلب منه وعلى شريطة الامراع قبل أن يتحرك القطار -

ما أخذنا مكاننا حتى مر علينا مفتش القطار وهو يتبسم إلى كأنه يعرفني وقد رأيت من سائر مستخدمي هذا القطار كل لطف وأدب وهذا الذي سرني كثيرا وبعد أن تحركنا حضر المفتش ومعه مساعده وطلب تذاكرنا بعد أن قدم لنا واجبات الترحيب ثم أتى لي بدليل الطرق الحديدية فعلمت من كل ذلك أتى معروف عندهم وقد وصلتهم أوامر خصوصية في شأنى - بعد قليل أحضر إلى سودانى بعض جرائد بها رسوم فأخذتها مع السكر . وهنا أذكر للقارى أن المشتغلين بالخدمة في الخطوط الأمريكية الشرقية كلهم عبيد سودانيون ما عدا رئيس السفيرين فهو من الجنس الأبيض وكذا السواقون والمفتشون والمعاونون فانهم من الجنس الأبيض وقد لاحظنا ذلك أيضا في سائر فنادق نياجارا وشيكاجو حتى إن في بعضها رئيسهم أسود مثلهم وإنى أفضل البرابرة الذين عندنا على هؤلاء العبيد لخفتهم وسرعتهم وتأديتهم حق الخدمة بكمال الآداب مع الدقة . بعد قليل حضر إلينا رئيس السفيرين ليسألنا أن نريد شيئا غير الذى عندهم ليحضره من إحدى المحطات الآتية ويعده لنا

فزادنى سرورا كل هذه الآداب وحسن العناية خصوصا بعد ما قرأته عن أمريكا فى المؤلفات التى يذكر فيها أن الأمريكين لا يرعون للأجانب حقوقا وأنهم فى الجملة غليظو المعاملة لا يهتمون براحة السائحين فى رأيتهم ولقيته من سائر العمال وانخدم جعلنى أحكم بعكس ذلك .

إن الخط الذى نسير فيه الآن يسمى خط (روك ايسلاند) (Rock Island) وعند خروجنا من شيكاغو إلى ضواحيها لم نر فى مناظرها بل هى كضواحي أكثر البلاد الكبيرة حيث منازل العملة والطبقة الفقيرة تكون عادة فيها .

وبعد أن تركناها ودخلنا مزارعها رأيناها جميلة فجعلنا ننعم أنظارنا فيها الى أن أتينا بلدة جوليت التى عدد سكانها ٣٥٠٠٠ نسمة وقد سميت باسم رحالة فرنسى وبها معامل كبيرة لعمل الجعة ولصناعة الصلب وتنتير كبيرة لعمل الفحم الذى يسمى فحم كوك . هنا الأراضي الزراعية التابعة لهذه البلدة عظيمة الاتساع وعدد سكانها بالنسبة لأرضها الزراعية قليل بخلاف الجهات التى سبق مرورتنا عليها وقد رأينا بها جملة مزارع كبيرة للفلاحة ولتربية الحيوانات .

وصلنا بعد هذه البلدة إلى أوتاوا (Ottava) وعدد سكانها ١٠٠٠٠ نفس وبها معمل للزجاج وهى واقعة على نهر فوكس (Fox River)

ومنها الى بلدة لاسال (La Salle) وسكانها ١٢٠٠٠ ودعيت باسم رَحالة فرنسي آخر وبها مصانع للزئبق والسياتو وفي ضواحيها خمسة مناجم لاستخراج الفحم الحجري وأراضيها خصبة ومبسوطة وتزرع فيها الحبوب وقد مررنا على بعض مستنقعات وبعض مراعي لتربية المواشي .

هذا وقد لاحظنا أن فلاحى أمريكا يستعملون الخيول لا الثيران وربما كان ذلك لأن الأولى أسرع من الثانية . ولا عجب فان طبيعة الامريكيين السرعة والحرص على الزمن . أما حالة البقر والثيران فليست جيدة .

وصلنا الى بلدة مولين (Moline) وعدد سكانها ٢٥ ألفا وبها جملة معامل لقضبان الطرق الحديدية ولصناعة السلوك من الحديد - إن الوافد على هذه البلدة حلما يرى بيوت العملة يحكم بأنهم ليسوا على شئ من الثروة . أما من جهة أراضيها فانها تشبه الأراضى التى سبق وصفها .

الساعة الآن واحدة ونصف بعد الظهر وقد كنا ذهبنا قبل هذا الميعاد إلى عربة الأكل فوجدناه طيبا فأخذنا ما لذ لنا وطاب وعندما قربنا أن ننتهى منه وقف بنا القطار فى محطة روك إيسلاند (Rock Island)

التي بها ٢٦ ألفا من السكان ومصنع للسفن تابع للحكومة ثم وصلنا إلى دافمبر (Davempport) وسكانها ٤٥٠٠٠ وهي في مقاطعة يوقا (Iowa) واقعة في غرب المسيسيبي وشهرتها أنها مركز الخطوط الحديدية المتشعبة الداهية إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب - وفي نحو الساعة الثالثة وصلنا إلى بلدة يوقاسيتي (Iowa City) وسكانها عشرة آلاف نسمة وبها جامعة عظيمة تسمى باسمها .

وفي الساعة السادسة و ٢٥ دقيقة وقف بنا القطار في محطة موان (Moines) وعدد سكانها ٨٦٠٠٠ وهي عاصمة مقاطعة يوقا (Iowa) وواقعة على نهر الموان أيضا (Moines Rivers) أما منازلها فبديعة الشكل محكمة البناء وموقعها جميل .

أنت الساعة السابعة فذهبت إلى المطعم للعشاء وفي أثناء ذلك كانت أسرنتنا تعد ومن الغريب أنه قيل لي قبل أن هذه الجهات لايسرك مناظرها ولا حالة مزارعها وفلاحتها ولكني رأيت الأمر على عكس ما قيل لي فلنزارع أراها سارة فيها جملة ضياء كبيرة مزروعة وقد أنبتت نباتا حسنا ويظهر على سكانها آثار النعمة بما لهم من المنازل الكبيرة الجميلة التي بها اصطبيلات لمواشيهم ومخازن لحاصلات أرضهم . انتهينا من العشاء ولما قربت الساعة التاسعة افترقنا للنوم تاركين

قطارنا يخترق هذه المقاطعة والمقاطعة الأخرى التي تسمى نيبراسكا (Nebraska) هذا والله الحمد طويلاً ليلتنا في راحة ولم نشعر بهزات القطار خصوصاً وقت وقوفه وقيامه من المحطات كما كنا نشعر بها وننتبه مذعورين عند حضورنا الى شيكاغو فكان الله أراد أن يتم نعمته علينا فألمهم أيضاً السواق أن يتقوا كل ما يزعجنا وجعله لا يقف ولا يقوم دفعة واحدة فصرنا راضين عن كافة المستخدمين حتى سواق القطار .

قنا من مضاجعتنا نحو الساعة خمسة ونصف صباحاً من يوم ١٥ مايو وإذا نحن في خلاء عظيم الاتساع فقررتنا أن عدد سكان تلك البقاع قليل بالنسبة الى أرضها الواسعة وذلك لبعدها عن بعض ولاسافات الشاسعة بين كل قرية وأخرى . وفي نحو الساعة السابعة و ٥ دقيقة وصلنا الى محطة جودلاند (Goodland) وهي قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها ١٥٠٠ نسمة ولكنها على صغرها مشهورة بنبجارة الحبوب وتربية الطيور الداجنة في أراضيها الواسعة يزرع القمح والشعير وغيرهما .

من بعد هذه القرية آتينا نرى أرضاً مقفرة فكان لا نرى إلا فضاء واسعاً وقليلاً من البقر والحيل ترعى الكلاب الطبعي .

وقف بنا القطار في محطة ليون (Limon) الصغيرة التي سكانها لا يتجاوز عددهم بمسافة نسمة ولكن منها يتفرع الخط الحديدي الى فرعين : فرع يذهب الى جهة ديفرسنتي (Denver City) وفرع آخر الى كولورادو وپويبلو (Colorado et Pueblo) وهذا الأخير هو الذي سنتبعه ونسير فيه فبقينا في عربتنا وفصلت باقي العربات الناهبة الى الفرع الثاني وقيل تحرك قطارنا أقبل علينا جميع المستخدمين الذين لا يذهبون معنا ليحيونا تحية الوداع و بعد لحظة التوديع بنحس دقائق تحرك بنا القطار الى حيث وجهتنا .

نحن الآن في مقاطعة كولورادو وكأ ترى القطار الآخر الذي افترق عنا يسير على بعد منا ولم يغب عن نظرنا مدة ربع ساعة . و بعد مدة من الزمن أبتدأنا ترى بعض مرتفعات في هذا الخلاء وعليها الثلج الناصع البياض والملوathi تخرج في هذه الأراضي التي بها أيضا بعض تقط ببيضاء من هذا الثلج فتمشى بينها ترع كيفما شاءت وحيث طاب لها المرعى . في جهة الكنتراس (Kenzas) قبل كولورادو كما ترى على جانبي خط الطريق الحديدي كثيرا من عظام وها كل التحيول وقد عدنا أكثر من اثني عشر هيكلًا في مسافة قصيرة فعرفنا أن هناك أيضا ترك الجثث الى أن يقضيها الزمن .

ابتدأ الجلي يتعدل والحالة تتحسن فان الجبال الصخرية ظهرت لنا من بعد ونحن في هذا المكان في مستوٍ مرتفع عن سطح البحر بثلاثة آلاف قدم أما مناظر الثلوج فاتها بديعة لا مسبوها وإن خلقها من الأوساخ والغبار أكسبها رُواءً وزادها بياضاً وقد أخذت الشمس ترسل على تلك الثلوج أشعة نظرها الحارة فتذيب فؤادها فتبكي دموعاً كاللؤلؤ تساقط فتجتمع فتكون مجرى صغيراً يتحدر في تهائم الأرض فيرس على وجه البسيطة أشكالاً مختلفة فسبحانك مبدع كل شيء .

إن رُموس هذه الجبال معممة أيضاً بالبياض الذي أكسبها وقاراً وكما تقرب منها رويداً رويداً وما مضى ساعة وعشر دقائق حتى وقف بنا القطار في محطة كولورادو اسپرينج (Colorado Spring) وقد كانت في انتظارنا بواب الفندق الذي أسرع اليها فسألناه عن مكان الفندق فأجابنا أنه لا يبعد عنا أكثر من مسافة خمس دقائق وهو أمامنا نستطيع أن نراه فلا داعي لعربة تذهب بنا إليه .

أذكر للقارئ أن كولورادو تطلق على بلدين متجاورتين احدهما تسمى كولورادو سيتي (Colorado City) وعدد سكانها ٥٠٠٠ نسمة وهي العاصمة القديمة لمقاطعة كولورادو والأخرى تسمى كولورادو اسپرينج (Colorado Spring) وعدد سكانها ٣٠٠٠ نسمة .

مشينا على أقدامنا فررنا على فضاء صغير به بعض أشجار غير مورقة
وبعده ظهر أمامنا بناء مشيد ذو ست طبقات فاذا هو محط رحلتنا .
وصلنا الى الفندق الذى يسمى أنتلر (Antler) فدخلناه واخترنا
غرفنا فى موقع حسن يشرف على الجبال وقد كآ أعطينا وثائق حقائبنا
للجواب المذكور ليأتى بها اليافلم نتظره وصعدنا لتفحص عنا غبار
السفر ولم نستغرق فى ذلك من الزمن إلا قليلا لاشتداد جوعنا وزلنا
مسرعين الى المطعم حيث كانت الساعة اثنتين الاربعاء فأخذنا
مكاننا وانتظرنا رحمة السفرين فان هؤلاء الخدم على خلاف عادة
أرباب الأعمال الأمريكانيين فى غاية البلادة والكسل .

انتظرنا نصف ساعة حتى أتى لنا بالطعام فأكلنا وحمدنا الله وبعد
ذلك خرجنا ومشينا فى طرقات وأبهاء الفندق فأعجبنا حسن النظام
ثم أردنا الصعود الى غرفنا لتغير ماعليتنا من الملابس فبدا الى أن أقصر
أولا شعرى الطويل فذهبت الى حلاق الفندق وفرغت من ذلك
أيضا ثم صعدت الى غرفتى للاغتسال ولتبديل ملابسى فأخذنا كلنا
أولا نقدم ملابسنا غير النظيفة التى غيرناها أثناء سفرنا لتغسل حيث
انا على حسب برنامج رحلتنا ستمكث فى هذه البلدة بحمة أيام فعندنا
إذا من الوقت مايسع ذلك . هذا وقد أخذت ملابسى الخارجية

جميعها تكون غير لائقة لكثرة التنقل ولو وضعها في العياب ولا يخفى ما يحصل عادة أثناء هذه الرحلات للحقائب الكبيرة فان الحملين يلقونها كيفما شاؤوا فحينئذ يفتحها صاحبها يرى عليها سافلها فأعطيها كلها لمن يكويها ثم دخلت الحمام وما ابتدأت في فتح صنوبر المياه حتى سمعت جرس التليفون يدق فأسرعت لأرى ما يراد منى فأخبرت أن أحد مخبرى (غازيت دى كولوراو) يريد مقابلتى فقلت لمن يكلمنى لا أستطيع ذلك الآن لأنى قد أعددت نفسى للحمام . وما انتهيت من عملى هذا حتى سمعت الباب يدق فذهبت لأرى ماذا جد أيضا فاذا هو نفس مخبر الجريدة فاعتذرت له حيث انى لم أكن بملايس تليق بالمقابلة فذهب عنى وتحلصت منه والله الحمد .

ألقيت نفسى قليلا على سررى طالبا للراحة وفى نحو الساعة الخامسة والنصف طلبت بالتلفون أن يؤتى الى بملايسى (الاسموكين) فأجبنى من يكلمنى : حالا ياسيدى - ولم يمض على ذلك برهة من الزمن حتى دق الباب فقلت من الباب فأجبنى صوت أتريد ياسيدى لفائف تبغ كبيرة أو صغيرة فاستغربت وقلت إنى لا أدخن ولم أطلب أبدا بائع التبغ - انى طلبت (الاسموكين) للبسها -
والحقيقة أنه قد التبس عليهم الأمر فان كلمة (أسموكين) بالانجليزية

معناها تدخين وبما أنه في كل ساحة فندق يوجد بائع دخان
فبمجرد سماعه هذه الكلمة من أى سائح يسرع إليه ليقدم له من تجارته
أعلاها ولكنه رجع خائبا ولم يكتسب منى فلما واحدا .

بعد ذلك صرت أعط نفسي الى أن دق الباب ثالث دقة فقلت
لا بد أنهم في هذه المرة قد أتوا الى بما أريد فضحت الباب فماذا رأيت ؟
رأيت سيدة تقول انى أصلح الأظافر فهل تريد أن تشرقنى بأن أودى
هذه الخدمة فشكرتها على تلطفها معذرا لها عما تكبدته من التعب
ذاكرها أنى أصلحتها بنفسى الآن فذهبت الى حائها وأخيرا أحضروا
لى ملابسى فارتديتها وكان فى أثناء ذلك رفيقائى على استعداد أيضا
فترننا وذهبتا الى مكتب الاستعلامات لنستفهم عما يلزم زيارته
فأرشدنا أن نذهب الى الكريستال بارك (Cristal Park) مع باقى
السائحين وهو مكان فى أعلى الجبل يصعد اليه بسيارة معدة لذلك
فقرر رأينا على اتباع هذه المشورة لمشاهدة هذا المكان .

ان كولورادو اسبيج أطلق عليها الأمريكيون اسم مدينة الشمس
وقالوا ذلك لأن الشمس لا تغيب عنها أكثر من ٠ ٤ يوما فى السنة
أى إن جوها دائما صحو والمطر فيها قليل ونكتي لست على يقين من
صدق ما قالوا وقد ذكرت هذا برحلتى بناء على أحوالهم . وأرى أن

الأولى بهذا الاسم هي عاصمتنا فيمكننا إذاً أن نسميها مدينة الشمس الحقيقية .

إن المدينة التي نحن فيها الآن مرتفعة عن سطح البحر ستة آلاف قدم وهي مبنية تحت الجبال الصخرية وبها شوارع كبيرة مغروس على جوانبها أشجار لم تورق الى الآن وقد سمعنا أن السماء أمطرت قبل حضورنا بيوم واحد برداً تراكم بعضه على بعض حتى بلغ ارتفاعه فوق سطح الأرض أربعين ستي متراً . أما أشجارها على اختلاف أجناسها فأنها تتأخر في الإزهار ولكن هواءها جاف ومفيد جداً للصائين بأمراض السل والصدر فهي لذلك مورد هؤلاء البائسين الذين يحضرون للسكنى فيها ويؤجرون منازل صغيرة معدة لهم في حيّ معلوم . ولقد كان حضورنا بهذه البلدة قبل ميعاد موسمها الذي يكون عادة في الخامس عشر من شهر يونيه وطالما سمعنا عنها كثيراً حتى قيل لنا إنه ممنوع كلية البصق في الطرق للحفاظ على الصحة ومن يخالف ذلك يعاقب بغرامة قدرها دولار ولكنا رأينا كثيراً من الناس ينتهزون فرصة عدم وجود الشرطة فيبصقون في الأرض تاركين آثارهم تدل عليهم مخالفين الأوامر والتنبيهات وأما الألواح الصغيرة المعلقة في كل مكان ومكتوب عليها (ممنوع البصق) فلم تجد أيضاً ولم تبطل من الناس

هذه العادة القبيحة التي تكون أحيانا سببا في انتشار الأمراض الشديدة التي تذهب بحياة الانسان . ختمنا يومنا وبعد العشاء افترقنا للنوم وفي اليوم الثاني (الخميس ١٦ مايو) في الساعة العاشرة صباحا ركبنا السيارة مع باقي السائحون وعددنا نحو عشرين شخصا للصعود على قمة الجبل لرؤية الكريستال بارك وسرنا في طريق خاص للسيارات التابعة للشركة التي احتكرت هذا الطريق ولا يمكن لأحد أن يصعد ويسير فيه الا بواسطة وعلى سياراتها التي أعدها لذلك . دفعنا أجرة هذه الزيارة دولارين عن كل فرد وصرنا كسائحى كوك كلنا في سيارة واحدة ومعنا دليل شاب صغير واقف على سلهها وظيفته أن يشرح لنا ما يقتضى شرحا فاخترقنا البلدة ووصلنا الى كولورادو سبى فالنت الدليل نظرنا الى كوخ قديم وقال لنا إنه أقدم منزل في هذه البلدة كان يسكن فيه القومندان المعين من قبل الحكومة لما كانت هذه الجهة خالية من العمار . هذا وقد كانت كولورادو تابعة للكنزاس (Kansas) التي كانت تحت أيدى الهنود أولى اللون الأحمر وبها معابدهم وآلهتهم وقد رأت الحكومة الشدايد والأهوال في إخضاعها لاعتقاد هؤلاء الهنود بأن أراضيها مقدسة .

استمررتنا في طريقنا مدة من الزمن ثم أشار دليلنا الى صخور عالية

جرا واقعة على مسافة من يمين الطريق وقال : ان هذا المكان يدعى حدائق الآلهة وبعد ذلك مشيت بنا السيارة الى جهة الشمال ثم وقفت أمام باب كبير كان مغلقا يسد الطريق ففتحه الدليل ومررنا منه ووراء هذا الباب الأرض التي فيها طريقنا وهي مملوكة لأحد الأمريكيين - وقد قيل لنا ان المدة التي أتسنت فيها هذه الطريق استغرقت سنة وعشرين يوما وذلك لصعوبتها لأنها حجرية - هذا وقد مررنا على كثير من الصخور التي لها أشكال مختلفة تمثل هيئة حيوانات أو طيور أو غيرها ولأجل أن شغلوا السائح فلا يشعر بملل سموا كل شكل اسما يوافق هيئته فصار الدليل بين وقت وآخر يشير الى صخرة قائلا انظروا هذه فانها تشبه الأسد تمام المشابهة وهذه تشبه (الضفدع) والأخرى تحاكي (الرينوسيروس) وهكذا - فتتجه الأنظار الى هذه الصخور وصرنا نلاحظ ما يقوله رفاقنا الراكبون معنا فنهم من تظهر عليه علامات الاستغراب والدهشة من انطباق الشكل على الاسم ومنهم من يرى بعض النقص في انطباق الشكل على اسمه . أما نحن فكان همتنا أن نسمع ما يقال ونرى ما يشار اليه فتعقب أفراسهم ونحكم بعد المداولة بيننا ذاكرين أيهم أحق وأصدق قولاً وأقرب الى العقل .

استمررتنا السير في هذا الطريق الذي يرتفع تدريجيا الى أن وصلنا الى عقبة كؤود وهي يحدى تلك الأشكال فوجدنا المرور منها صعبا فاضطر سائق السيارة أن يرجع قليلا الى الورا منحدرا ثم يتقدم الى الأمام محركا السيارة الى الاتجاه المراد السير فيه وهكذا الى أن مر من هذا المضيق الذي أزعج المرور منه بعض السائحين وذهب بالطمأنينة من نفسه خصوصا مصطفى بك الذي لم يسبق له الصعود الى أعلى الجبال فكان يرى الصعوبة أمام عينيه مجسمة وقد قرأنا ذلك على هيئته وشف عنه كلامه وحركاته الدالة على عدم الاطمئنان .

هنا رأينا حفرة عملت لتكشيف معدن الذهب ولما وجدت النتيجة لاتبى بالعرض تركت .

استمررتنا الصعود الى أن وصلنا الى مكان آخر أصعب من الأول ولإدارة السيارة لتسلك الطريق المنعطف دفعة واحدة عمل لذلك (بلات فورم) يشبه الذى فى بعض المحطات المعد لتحويل اتجاه القاطرات (صينية تغيير اتجاه القاطرات) فتمت هذه العملية الصعبة ونحن لم نترك مكاننا - هنا ظهر لنا مناظر مدينة مانيتو (Manito) الجميلة التى يبلغ عدد سكانها الألفين وبيها كثير من منابع المياه المعدنية والغازية .

وفي أثناء سيرنا وجدنا بعض العملة يشتغلون في إصلاح الطريق وإزالة الثلج المتراكم عليها وفي منعطف منه قيل لنا : هنا (الجلالة والعظمة) حقيقة المنظر جميل ولكن لا أراه يستحق هذا الوصف . وقتت بنا السيارة فلم تستطع السير فان كثرة الثلج على الطريق منعته وفي أثناء ذلك نزل منها رجل ومعه آلة التصوير وصعد على ربوة في منعطف لتصويرنا فأخذ في إزالة ما يعوق السيارة وبعد جهد وعناء وقفتنا الى الاستمرار في السير وتركنا هذا المصور في مكانه وقد صادفنا هذه العوائق ثلاث مرات وفي كل مرة نلاقى مشقة في إزالة ما على الطريق من الثلج .

وصلنا بعد عناء شديد الى ما يقرب من آخر قمة الجبل ولم يبق بيننا وبين آخر الطريق أى أعلى مكان فيه الانحوا . ٤ مترا ولكننا أيضا في هذه المرة وقتت بنا العربية وقوفا تاما رغمنا من قوة آلتها لتراكم الثلج أكثر مما صادفناه قبل فاضطر السائق أن يترك السيارة ويذهب للبحث عن فأس وغاب عنا وقد كانت أمامى سيدة عجوز فسمعتها تقول : إني لأشعر بجبال هذه المناظر فأحدث به الا من بعد نزولنا ووصولنا الى أسفل الجبل سالمين . فعلمت أن ليس مصطفى بك هو الوحيد في شعوره وذهاب الطمأنينة من نفسه فقد شاركته هذه

السيدة فيما يجرد وطلما سمعناه يردّد هذه الجملة بين شفتيه : الى متى نصعد الى قمم الجبال ؟ وهل من فائدة تنال من وراء ذلك ؟ إلى أرى في عملنا هذا مخاطرة .

حضر السائق ومعه الفأس وأخذ يشتغل في فتح طريق للسيارة حتى نصل الى غايتنا ففتحت الطريق وصعدنا الى اعلى قمة في الكريستال پارك (Crystal Park) - هنا المنظر يستحق الإعجاب بجماله الرائع فبالرغم من ذلك الارتفاع الهائل نحن في متسع من الأرض لا يصعب على سيارتنا أن تدور فيه فليتصور القارئ هذا المكان المستوى على قمة الجبل وكيف يكون حال السائح بعد تكبده الصعاب للوصول الى هذه القمة الشاهقة خصوصا حينما يرى نفسه في مكان آمن يرى آثار قدرة الله وجلال صنعه وأتما يوجه نظره يشاهد من المناظر المختلفة ما يتمرّبه عينه فيشرح به صدره .

بعد أن مكثنا قليلا من الزمن في هذا المكان الرفيع أدار السائق سيارته للتزول بنا وقد تغير الحال وسهل الأمر بزوال عقبات الصعود وقد وجه دليلنا أنظارنا الى صخرة سماها (فيدى Fiddy) ويعنى بهذا الاسم المستر روزفلت ونظن أن سبب هذه التسمية مشابهة بينهما . وفي أثناء نزولنا صاح الدليل النسر النسر فسرعان ما تحولت أنظار

السائحين الى الجهة التي أشار اليها باحثة عن هذا الطائر الشهير لرؤيته عن قرب ولكن ماذا رأوا؟ رأوا طرف غصن شجرة يابس يشبه النسر قليلا فما أكبر مغالاتهم وما أوسع دائرة خيالهم .

لم يمض على مفارقتنا المصور أكثر من عشرين دقيقة حتى رأيناه ينتظرنا في الطريق فصعد الى السيارة ويده صورتان في غلاف لطيف وشرع يعرضهما على السائحين وهما اللتان صورتها عند صعودنا وفيها زميلنا مصطفى واقف ويده كرة من الثلج . فما أسرعه في عمل الصورة انه أدهش الحاضرين .

وقد كان مع هذا المصور دفتر لكتابة أسماء من يريد شراء عدد من صوره وكان يأخذ ثمن الصورتين نصف دولار ويعطى المشتري وثيقة تشهد بأنه أسلم الثمن ويقيد في دفتره العنوان الذي يسهل معه أن يرسل الصور اليه وقد فعل وأرسلها اليوم التالي لهذه التزهة .

استمر بنا النزول الى أن وصلنا الى سطح الأرض ومنه ذهبنا الى الفندق نحو الساعة ١ و ٣٠ دقيقة بعد الظهر وقد مررتنا في طريقنا على ثلاثة محال لتطهير الذهب المستخرج من بطون الأرض ولم تستغرق رياضتنا هذه أكثر من ثلاث ساعات ونصف في الذهاب والإياب مع أننا ارتفعنا ألقى قدم عن مدينة كولورادو اسبرنج فبإضافة

هذا الارتفاع الى ارتفاع هذه المدينة نجد أننا على علو . . . ٨٠٠ قدم عن سطح البحر والغريب أننا لم نشعر وقتئذ بشدة البرد وهذا ماجعلنا مسرورين من استراضتنا هذه .

لست ممن يجنون الأشياء حقها ولا ممن ينكرون على الطبيعة جمالها ولكن كثرة سياحاني في أنحاء العالم جعلت لي بعض القدرة على التمييز بين المناظر فترت عندى ملكة ترشدنى الى مواضع النقص في كل مكان . انى أعرف أن كل جهة خصها الله بمزايا توافق حالها وموقعها ولم يكن عزيزا عليه سبحانه وتعالى أن يجعل الكون جميعه على حالة واحدة فلهكمة يعلمها خلق جمال الطبيعة وفرقه بإرادته على البقاع فهورب الكون يفعل به مايشاء جلت قدرته وتنزهه عن أن ينقذ عمله ناقد غير أنه لما كان لكل ساحح أن يكتب مارآه في رحلته وما استحسسه فلا أريد أن أحرم نفسى من إيداء مايناجينى به شعورى أمام منظر .

إنى وقيت هذا المكان حقته من الوصف فلم أحط من قيمته وما أبدت ملحوظاتى الآتية إلا مضطرا لذكراها بحكم تأدية الواجب على ساحح وضع نفسه موضع الحكم العادل فأستسمح القارى فى بيانها :

إن جبال هذه الجهة كثيرة وما أضع بهيجتها إلا أنها متقاربة بعضها من بعض لا ترينها الأشجار الكثيرة ولا تكسوها النباتات المختلفة تلك

الحلة الخضراء . والناظر اليها لا يشعر بعظمة ارتفاعها لأنها مرتفعة في الحدار فذهب ذلك بكثير من عظمتها أمام الرائي فلم يترك منظرها في نفسى أثرا للعجب والاستحسان فأين السكان ومنازلهم الجميلة وأين الحيوانات التي ترتع وتسرح في مراعى الكلا انها خاوية قاحلة مجذبة أيما سرح السائح نظره فيها لا يرى إلا فضاءً واسعاً وسكوناً موحشاً وإني ممن يفضلون رؤية النسر يُحلق في دواء هذه الجبال عن رؤية غصن يابس لا يشابهه إلا في خيال الأميركيين الذى يخيل اليهم من العدم وجوداً ومن المبالغة مشابهة .

هذا وقد كان بودى أن أرى في ربوع هذه الجبال سكان أميركا القدماء بيوتهم القديمة وملابسهم المختلفة الألوان يسرحون ويمرحون في بداوتهم الأولى .

بعد وصولنا إلى الفندق ذهبنا قوا لتناول الغداء فلم يؤت إلينا به قبل الساعة الثانية والنصف فأكلنا وصعدنا الى غرفنا للراحة قليلا ولما كانت الاقامة في كولورادو اسيرنج لم ترقنى كثيرا خصوصا مدير محل كوك بشيكاجو أخبرنى من قبل بأن اقامة أربعة أو خمسة أيام بها داعية إلى الملل فأسرفت إلى مكان يقصده طلاب السفر (Agent de voyage) وهو على الطريق أمام الفندق وسألت هل

يستطاع تغيير ميعاد سفرنا وتقديمه إلى اليوم الثامن عشر من مايو بدل العشرين منه حتى نكسب من الوقت يومين تقضيهما بكاليفورنيا على شاطئ البحر بين إساتينها النضرة وزهورها الشهيرة فأخبرني أحد العمال أن القطار السريع (الأكسبريس) الذي أخذنا تذاكرنا للسفر فيه إلى (الجران كانيون) لا يسافر من هنا إلا مرة واحدة في الأسبوع فيلزمنا الانتظار إلى يوم ٢٠ مايو فإذا لم يكن بد من تعجيل السفر فليس أمامنا إلا القطار العادي الذي يقطع هذه المسافة (أى بين كولورادو اسپرينج والجران كانيون) في ٣٨ ساعة وليس به عربة أكل و يلزم المسافر فيه أن يتقل من قطار إلى آخر مرات ففضلت التعب على أن أمكث هنا بدون فائدة خصوصا أننا لو أردنا الاستراحة في متزهاتها للزمنا للذهاب إليها قطع مسافة لا تقل عن ١٠ كيلومترات .

فوعدني أن يرسل إشارة برفقية إلى شيكاغو وداشر (Chicago et Danver) ليكون على علم من وجود مجال خالية بالقطار فافتقنا على ذلك وذهبت إلى الفندق لكتابة رحلتي في غرفتي وإذا بأحد الخدم حضر ويده بطاقة زبيرة أحد السورين فكلمت مصطفى بك أن يذهب إلى هذا الزائر ويقابله ويعلمه بكل الحظ أني الآن متعب وفي فرصة أخرى إن شاء الله أقابله . ولما اطلع خيري بك على هذه البطاقة أخبرني أنه

يعرف أخاه وهو أحد ضباط القسم الطبي بالجيش المصرى و يظن أن صاحب هذا الاسم يكتب أحيانا جريدة المقطم بمصر فقلت له لك أن تذهب إليه لتعرف الحقيقة وبعد ربع ساعة نزلت من غرفتي فوجدت رفيقاً جالساً مع هذا الزائر فرأيت أن أقبله لاسيما أنه أتعب نفسه بالحضور للسلام على - والسؤال عنى فأشرت إلى زميلى - أنى مستعداً لمقابلته فحضر به وقدماه إلى - فعلت منه أنه الآن موظف بحكومة بكولورادو اسبرنج وقد رأيت منه ضعفاً شديداً وعجزاً عن أداء ما يريد به باللغة العربية فكأنه نسي لغته الشريفة وقد صار يكلمنى باللغة الانجليزية أما معرفته اللغة الفرنسية قليلة وقد حكى لى أنه كان موظفاً بمصلحة الطرق الحديدية المصرية قبل بضع سنوات والآن أجل أمانته العودة إلى بلاد الشرق التى يحن إليها فتكلمت معه مدة عشر دقائق خصوصاً عن المعيشة الأمريكية وغلائها وعمانجده فى بلادنا من أن قليلاً من الكسب يكفى لمعيشة أهنا وأطيب من المعيشة فى مثل هذه البلاد التى تحتاج إلى نفقات فادحة - وبعد ذلك انصرفت وتركت صديق - معه ولما أتى ميعاد العشاء تناولناه وبعد أن استرضنا عشرين دقيقة بجوار الفندق صعدنا واقترقنا للنوم .

وفي صباح يوم الجمعة (١٧ مايو) حضر مخبر الجريدة الذي يريد بأى وسيلة مقابلي فقابلته وسألته عما يرغبه فقال لي انه قرأ في جرائد نيويورك وشيكاغو كثيرا عنى وبما أن للامريكيين مصالح كثيرة في مصر فيود أن يعرف من أخبارها شيئا حتى يكتبه في جريدته ليفيد قراءها فاعتذرت له ببعدي عن المسائل السياسية وفهمته أنى لم أحضر الى أمريكا لأى غرض سياسى بل كل ما أقصد السياحة فلم أرد الكلام معه في هذا الموضوع لقبوله التفسيرات الكثيرة التى تتوسع فيها الجرائد على حسب ملهوى ولما فى ذلك من التعرض لعدم استحسان بعض المشتغلين بهذه المسائل فيكثر القيل والقال والأخذ والرد وربما ينسب الى حديثى ما لم أقله فألى ولهذا الشؤون المقلقة التى ليس وراءها جدوى .

انتقلنا من هذا الحديث الى موضوع رى الأرض ولما أراد معرفة أى الطرق أوفى بالعرض وأنفع للزراعة أخبرته أنى أبلغ من العمر نحو الست والثلاثين سنة وفى خلالها سمعت كثيرا عن أحوال الرى ولا أعلم أى الطرائق المصرية أم الهولندية أم الأمريكية كانت أحسن نتيجة من غيرها وظنى أن كل بلدة ترى أن طريقها أتم وأكثر اتقاناً من طرق البلاد الأخرى وقد ضربت له مثلا اختلاف

افكار المهندسين في هذا الموضوع وقلت له كيف لي أن أحكم في هذا الموضوع والحصيرون به إلى الآن لم يهتدوا ويتفقوا على طريقة واحدة فان كل مهندس يرى أفكاره وطرائقه في الرى أحسن من أفكار الآخرين ولو أنهم في بلدة واحدة فما بال الطرائق المتعددة التي تتبعها البلاد المختلفة . وبعد ذلك رجوته ألا يكتب في جريدته مادار بيني وبينه من الحديث ثم تكلمت معه عن سياحتي وعمالقيت من حسن مقابلة الأمريكيين ولطفهم الذي جعلني أمحو ما علق بفكرى من كل ماقراءته في الجرائد والمؤلفات الكثيرة التي طالما كتبت عما يلاقيه السائح من الصعوبات في أمريكا وغيرها وقد أخبرته أنى أفضل الأمريكي الساذج بأخلاقه السهلة على الأمريكي المثرى صاحب المليارات الذي يتغلب عليه الكبر فيتيه عجا . وقد أظهرت له ما أخذته على أمثال هؤلاء الأغنياء الذين يذهبون كثيرا إلى أوربا للاقامة فيها رغبة في الظهور فان أموالهم الطائلة تجعلهم هناك من أصحاب المنازل الرقيقة حتى يشار إليهم بالبنان فيلاقون من الاحترام والاكرام ما لم يحلموا به في بلادهم الواسعة التي بها كثير من أمثالهم ممن يفوقونهم في الثروة وان كان لهم شئ من الشهرة في بلادهم فهي محصورة في دائرة أشغالهم بين من لهم ارتباط بأعمالهم فلا يعرفون بين

الأمريكيين مواطنيهم الا باسم (المستر فلان صاحب معامل كذا أو المستر فلان مالك أراضى كذا) وبما أن الأغنياء في أمريكا كثيرون فوجودهم في بلادهم لا يوجه الأنظار إليهم . كذلك السيدات المثرىات الشهيرات يجالهن يذهبن أيضا الى أوروبا فتكتب عنهن الجرائد وتفتح أمامهن الأبواب وتتسابق الى معرفتهن أصحاب الألقاب الضخمة فتشرح صدورهن وتحلوهن الإقامة بتلك الديار التي يجدن فيها كل أسباب السعادة والهناء فالفرق إذاً عظيم بين وجودهن في أمريكا الواسعة التي لا تشعر بمقدارهن لكثرة أمثالهن وبين وجودهن في أوروبا موضع الإجلال والاحترام التي تسطع أنوارهن فيها ويظهرن في سمانها كأنهن الأقمار .

انتقل بنا الحديث الى أحوال البحر وتغير الطقس ثم الى أنواع الفواكه والخضر فقلت له في ذلك إن كل شئ في أمريكا كبير مجسم حتى فواكهها فلها أكبر من فواكه البلاد الأخرى فكان الطبيعة أرادت أيضا أن تخرج من نباتها أمثارا تشبه أخلاق الأمريكيين المغرمين بكل شئ كبير ولكن مع الأسف أراها حسنة المنظر قليلة الحلاوة ولذاذة الطعم . افترقا بعد هذه المحادثة وذهب الى حال سيئله مسرورا . أما نحن فعولنا على زيارة حديقة الآلهة Jardin des Dieux

التي تبعد بمقدار اثني عشر كيلومترا فاستأجرنا سيارة وسرنا إليها مخترقين شوارع المدينة مازين على كولورادوسنتي وفي ابتداء الطريق الموصول إلى الكرستال بارك الذي سبق الكلام عليه سرنا إلى جهة اليمين وهناك أيضا المدخل ملك خاص لأحد الألمان فوصلنا إلى حديقة غريبة الشكل صخورها منتشرة ومتفرقة وكلها ذات لون أحمر قاني كلون القرميد فكان لون السماء الأزرق الصافي وأشعة الشمس الذهبية المنبعثة على هذه الصخور تجعل المنظر بديعا رائعا وقد أخذ سائق سيارتنا يقول لنا انظروا إلى هذه الصخرة إنها تشبه الجاموس الوحشي وإلى هذه فانها تشبه السلحفاة وإلى الثالثة التي أمامنا انها تحملين يتعانقان وإلى الرابعة البعيدة عنها قليلا انها تمثل امرأة إيرلاندية وهي تغسل وقد وصل به خياله أن نظروا إلى صخرة وقال ما أقرب الشبه بينها وبين أبي الهول إنها تشبهه من كل وجه . وأخيرا وصلنا إلى صخرتين قائمتين كهيمته باب يسمونه باب حديقة الآلهة فقربتنا من خص (كشك) هناك نرج منه شيخ أراد أن يبعنا صورا (توغرافية) فسألته هل أنت ألمانى : فأجابني بالطبع ولم أعرف سببا لجوابه الا افتخاره بعظمة ومجد أمته وبالشرف الذي يلحقه بالانتساب إليها وقد سألتني هو أيضا هل أتم فرسيون فأجبته إننا مصريون فظهر لي من هيئته أنه قد لا يعرف

بلادنا وموقعها في الدنيا فاشترت منه مجموعتين بهما مناظر حديقة الآلهة وقد قال لى سائق السيارة ان لهذا الألماني . ٤ هكرا من حديقة الآلهة وبقايا ملك لكيلورادوا سيرنج وهو يكتسب من الصور التي يبيعها للسائحين وبعد ذلك استمرنا في طريقنا وعاد السائق الى ديدنه فأخذ يلفت أنظارنا الى الصخور التي تشبه الأسد وغيره من الحيوانات الى أن صرنا قريبين من بعض صخور غبراء اللون يجعل موقعها بين باقى الصخور الحمراء المنظر بديعا فلاختلاف أشكال هذه الصخور وألوانها اعتبرتها الهنود القدماء (ذات الجلد الأحمر) حديقة الآلهة - هذا وقد ألقت نظرنا في هذا المكان صخرة هائلة قائمة على طرف صخرة أخرى وهي مائلة إلى جهة الأرض فيخيل إلى الناظر إليها أنها على وشك السقوط لضعف مركزها وظنى أنه إن حصلت زلزلة بهذه الجهة فلا بد أن تذهب بهذه الصخور -

خرجنا من زيارة هذه الحديقة وصرنا شمالا فوصلنا إلى حديقة طبيعية ملك للجنرال بالمر (General Palmer) في مدخلها وجدا خصا (كشكا) للبواب وهي تستحق الزيارة لشدة الاعتناء بها وقد نظمها هذا الجنرال وأحكم تنظيمها لما كان قومنداننا لهذا الموقع وقد توصل إلى اقتناء ثروة عظيمة تقدر بالملايين . هذا وقد فاتني أن أذكر

أنا قبل مدخل هذه الحديقة رأينا بناء صغيرا جعله الجنرال مدرسة
لثربية أبناء مستخدميه .

إن هذه الحديقة تشبه باقي الأمكنة المجاورة لها فإن بها صخورا قائمة
مكوّنة لأشكال مختلفة بعضها أحمر وبعضها الآخر أغير غير أنها تزيد
عن غيرها بوجود أشجار بين هذه الصخور ونبع صغير يجرى مائه
فاكتسبت جمالا وزادت حسنا وقد تصوّرناها بعد أن تورق أشجارها
وحكنا أنها لا بد من أن تكون آية في البهاء لاسيما ان القصر المشيد بها
المتخذة أحجاره من صخور رصاصية اللون أبعد عنها وحشة العزلة
والانفراد .

ان هذا القصر كان يسكنه الجنرال بلمر وقد توفي منذ سنتين ولم
تفتح أبواب هذه الحديقة لعامة الزائرين إلا من ابتداء السنة الماضية
هذا وقد رأينا غير ما ذكر مصابيح كهربائية منتشرة بين الأشجار محكمة
الوضع وأظن أنها اذا أضيئت ليلا تكون ذات بهجة فستراظرين .
وقد ترك الجنرال ثلاث بنات اثنتان منهن متزوجتان بأمریکا والثالثة
تقيم الآن بمدينة لوندرة .

بعد أن أتممتا زيارتنا بهذه الحديقة عدنا من طريق آخر مستورى
منه منظر المدينة ووصلنا إلى الفندق نحو الساعة الحادية عشرة والنصف

فصعدنا إلى غرفنا لازالة ماعلانا من التراب ولهيئ أنفسنا لتناول
الغداء .

ولما كنا ننتظر مساء ماذا تم في شأن السفر فبعد الظهر لم نرد
الابتعاد كثيرا عن الفندق واكتفينا بركوب عربة للرياضة داخل
البلد التي وجدناها مستطيلة قليلة العرض وقد مررنا في وسط شارع
عظيم على جانبه منازل (قبلاً) صغيرة محكمة التشييد والتنظيم وهذا
الحى هو مسكن بعض الأغنياء أصحاب القناطير من الذهب التي
اكتسبها من استخراج المعادن وقد علمنا أن أعظمهم ثروة يدعى
المستر بورنس وقد كان في الزمن السابق (لميجى) مشهورا بإدماته الخمر
وإفراطه في سكره فساق اليه حظه تكشيف منجم أكسبه هذه الملايين
الكثيرة - نعم إن أغلب المعادن تمتلكها الشركات ولكن أكبر
المساهمين فيها هم الأغنياء . - والطريقة المتبعة في أمريكا أن أى
شخص يثبت للحكومة أنه صرف مبلغ ٥٠٠٠ دولار أى مائة جنيهه
في البحث عن معادن أو غيرها وأنت هذه المباحث بقائدة تعطيه
الحكومة في بقعة بحته ما مقداره عشرة هكتارات ولا شك أن
الباحث اذا رأى فائدة من امتلاكه مايجبور ماينحته الحكومة لا يلبث
أن يشتري مايرافعا له منها بدون صعوبة - ان مدينة كولورادو إسبرنج

مشهورة بمناجمها الغنية وقد كانت سببا في إثراء كثير من المشهورين بالثروة في أمريكا ولكنهم رغما من ذلك لا يصرفون في إصلاحها شيئا وإن هم الرجال أعمال فكما زادت أموالهم اتسع مجال أطعاهم ولا هم لهم الا مضاعفة ثروتهم فلا يشتغلون الا للجمع والادخار كأنهم خلُقوا ليلكوا زمام الأموال . وقد بنى هنا المستر بورنس ملهى صغيرا جميلا للانفعة العامة بل لما سيدرّه عليه من الأموال عند افتتاحه .

هذا وقد رأينا ببولورادو اسبرنج طريقة غريبة لرش الشوارع وهي أن تمر عربة من عربات الترامواي وبها صهرج كبير مملوء ماء قترش الشارع على عظيم سعته وقد لاحظنا أيضا طريقة أخرى لتنظيم الشوارع وجعلها في مستو واحد بسرعة عظيمة وهي : عربة كبيرة تجرّها عشرة أفراس وفي آخرها من الخلف محراثان من الحديد لقلب الأرض وهما موضوعان بميل حتى إذا مشت العربة زادت طبقة الأرض المزالة فتسقط على بساط دائر أيضا يحمل الأتربة ويسير بها الى الأمام فتجتمع في مقدّمة العربة وهناك مجرى بارز على جانبيها الأيمن تخرج منه الأتربة المتراكمة فتأني عربة صندوق تمشي تحت مصب هذا المجرى وتتبعها عربات أخرى مثلها وكلما امتلأت الأولى

أسرعت لتفريغ حمولتها وأخذت مكانها عربة أخرى وهكذا فتحرث الأرض وترال طبقة من وجهها وتحمل الأتربة كل ذلك يتم في آن واحد وقد ربط في مؤخر هذه الآلة أربعة أفراس لحفظ الموازنة وجعلها تمتشى على خط مستقيم . فتأمل الى أى غاية وصل استعمال الآلات المسهلة للأعمال حتى استخدمت في تنظيم شوارع المدن .

لازلنا في رياضتنا هذه داخل المدينة الى أن أخذ المطر ينهمر ولما كانت عربتنا مكشوفة ولم يكن معنا مطريات (شمسيات) نتقي بها المطر ولا (ماكينتوشات) اضطررنا أن نضع أحلاس الخيل (أشلال) القذرة على رؤسنا نتقي بها الأمطار وكان منظر رقيقنا مصطفي مضحكا جدا فانه قبع في حلس (شل) كما يقبع القنفذ في إهابه حتى اختفى فلم يبد منه الا عيانه فتذكرت حالتنا وشبهتها بحالة الفقراء بمصر عند هطل الأمطار وهم يضعون ثيابهم (جلالبيهم) على رؤسهم وكان بودى أن تُرسم صورنا ونحن على هذه الحالة حتى يكون عندنا أثر وتذكار لهذه الاستراضة وعدنا مسرعين الى الفندق على آخر سرعة الخيل .

ولما جاءت الساعة السادسة ذهبنا الى مركز أسفار السائحين للسؤال عما تم في شأن تقديم ميعاد سفرنا فأخبرنا أنهم لم يجدوا محال خالية تكفيهم ومن عجيب أمرهم أنهم قبل أن يصلهم أخبار عن امكان

سفرنا وقبل أن يعلموا هل كنا نقبل السفر بهذه الطريقة الصعبة أرسلوا إشارة برقية الى شيكاغو أعلنوا فيها أننا استغفينا عن محالنا القديمة فساءنى هذا التصرف المدهش وسأتهم كيف رأيتم أنه يتيسر لنا السفر مادامنا ثلاثة ولم نجدوا الا محلين مع مافيه من كثرة الانتقال من قطار الى آخر فطلبت إعادة محالنا القديمة الينا فأخبرونى بأنهم مضطرون إذا إلى إرسال إشارة برقية أخرى الى شيكاغو حالاً لإعادة محالنا القديمة فتكدرت من هذه الحالة اذ يجوز معها أن لا يتيسر لنا السفر فى يوم ٢٠ فنضطر الى الإقامة بهذه البلدة الى الأسبوع التالى فأين تقضى أوقاتنا اذا قدر ذلك ونحن من الآن أخذنا نشعر بالسامة من الإقامة فيها ولما رأوا استيائى من تصرفهم قالوا انهم سيبدلون كل ما فى وسعهم لاعادة محالنا الينا ورغما مما بدا لى من اهتمامهم وتأكيدهم لم أطمئن ولم أثق باستطاعتهم لإرجاع هذه المحال فعدت الى الفندق مغموما وجلست مع رفيق فى طنقمها (فيراثلتها) واذا بسيدة صارت تقرب منا فرأيت من هيتبها أنها ليست أمريكية وذلك لسواد عينها وشعرها وميل لونها الى السمرة وقد أصاب ظنى قلنا لما سمعنا نتكلم بلغتنا العربية جاءت الينا مسرعة تحاطبنا بهذه اللغة الشريفة فعلمت من ألقاظها وهجتها أنها سورية وكنت لا أتوقع أن أجد فى كولورادو اسبرنج

سيدات سوريات فعلت منها أنها تاجرة ولها محل تجارى في البلد وانحر في الفندق فسألته عن حالتها وهل تجارتها رابحة فأخبرتني أنها تباع في السنة بما يزيد عن الألف والخمسمائة جنيه ولكنها تسكو كثيرا من غلاء مطالب المعيشة فكل ما تكتسبه أو جله يذهب في نفقات معيشتها وقد قالت إنها وفدت مع أمرتها الى هذه البلدة حين بلغت الثانية عشرة من عمرها ولم ينسها طول غيبتها عن وطنها هذه المدة لغتها الأصلية ولم تزل تمنح شوقا الى بلادها أما والدها الذي يبلغ من العمر عتياً فإنه لا زال يتذكر وطنه ويترقب القرص التي تمكنه من العودة إليه . وقد رجنا أن تزور دكانها الذي بالفندق فأجبتنا الى ما طلبت فدخلناه ومكثنا به قليلا فرأينا فيه ما تبعه فشحجناها على عملها واستحسننا فكرة والدها ورغبناها في تحقيق أمنيته بعد أن نجمع من المسال ما يكفيها للاقامة في سوريا وبعد ذلك عدنا الى مكاننا .

ومن باب الفكاهة أذكر هنا حادثة يعلم منها القارئ أن في أمريكا كثيرا من الناس يعيشون وباب الأمل في الحصول على الثروة مفتوح أمامهم ولو كانوا من الإملاق بمكان عظيم : قرب منا بواب الفندق وهو انجليزي الأصل ينطق وجهه بما هو فيه من الفقر المدقع وسوء الحال فأخبرنا أنه كان مستخدما في الجندية ببلاد الهند ووفد على

أمريكا من منذ أربع وعشرين سنة فسائه ألم يحصل الى الآن على
الثروة الكافية ولما ذا ترك بلاده وفضل هذه الحرفة على غيرها وهلا
يمكنه أن يشتغل بهذه المهنة في إنجلترا فقال لي عفوا ياسيدى انى مع
مائة من أصحابى مشتركون في منجم ذهب وستسمع ان شاء الله في أول
يناير سنة ١٩١٣ أن هذا الثوب الحقيق الذى يقف أمامك الان له
دخل سنوى يبلغ ستة آلاف جنيه وحينذاك ياسيدى أترك هذه البلاد
وأذهب الى وطنى رجلا من ذوى اليسار وأنى كل مارأيتيه في خلال
السنين الطويلة التى مضت على وأنا أتقلب على ثرى الفقر . فقلت
إذا كنت واثقا من بلوغ تلك الأمانة العظيمة وذلك المستقبل باسم
في وجهك خصوصا بعد هذه المدة القليلة جدا فلم أذا تبقى هنا ثوابا
مع أن في إمكانك أن تقترض من الآن ما يكفيك لمصروفك وتذهب
إن أردت إلى بلادك حتى يأتيك دخلك العظيم فتسد ما اقترضته
وتعيش من الآن متلذذا بثر وتك . فأجابنى انى لا أود ترك مهنتى
لأنى أحبها وأعشقها ولولا أنى في يناير سنة ١٩١٣ سأكون ذا ثروة
طائلة ومن العار على الأغنياء أمثالى أن يجترفوا بحرفة البوابة لما
تركها أبدا فعجبتا من شعوره الغريب ومن تلك الأمانى الباطلة التى
جسمها له الوهم حتى جعلها في نظره حقيقة ثابتة لاريب فيها

فجئني عليها ما بنى من سعادة مستقبله . فتأمل في الأمل وكيف يسهل
المعيشة ولولاه لما كانت كثير من أمثال هذا التحس في أمريكا
يطبقون الحياة التي كلها شقاء .

أغلل النفس بالأمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
أنى ميعاد العشاء فذهبت إلى المطعم وبعده صعدنا إلى مضاجعنا .
وفي صباح يوم الجمعة (١٨ مايو) سألتنا من مكتب الاستعلامات
هل بقى لنا شئ يهتماز يارته فأشار علينا العامل الذى كان بهذا المكتب
أن نذهب إلى (Sud Canion, Nord Canion et les 7 cascades)
في ضواحي البلدة ولما كان الذهاب إلى هذه الأمكنة وزيارتها يستغرقان
أربع ساعات قررنا أن نغادر الفندق الساعة الثانية بعد الظهر للذهاب
إليها وقضينا الوقت الذى كان باقيا على الميعاد فى شراء بطاقات البريد
(كارت بوستال) وبعض جرائد أمريكية . ولما قربت الساعة الثانية
عشرة ذهبنا لتناول غداتنا وفى الساعة الثانية أعد لنا عربية أمريكية ذات
ثلاثة مقاعد يتلو بعضها بعضا وكل مقعد يسع اثنين فهى إذا تسع
سته أشخاص من بينهم السائق وقد كانت تشبه الشربان (Charaban)
غير أن مجلاتها دقيقة كأضراس الأمريكية يجرها فرسان ذهب الكبير
بلونها الأزرق الأصلى واستحال إلى أبيض ذى نقط حمراء فتوكلنا

على الله وركبنا هذه العربة وسارت بنا . وقبل الوصول الى الأماكن المهمة كان يلزمنا أن نقطع ثلاثة أميال انجليزيه لنصل إلى مكان يسمى شينن (Cheyenne) به جملة من الأكواخ الصغيرة متجاورة كأنها الخيام وبها يقيم المصابون بداء السل وقد علمت أن بعض أشخاص أسماءه يسكنون أيضا هذه الجهة فلم أدركيف يأمنون على أنفسهم من الإقامة في هذا المكان المملوء بالجراثيم الفتاكة أفلا يحافظون العدوى خصوصا على أولادهم الصغار الذين لا يميزون بين النفع والضرر ولا يعرفون هذا المرض القاتل حتى يتقوا شره ؟

مررنا بعد ذلك على متنزه جميل به أراجيح وألعاب أخرى للتسلية كالجبال الروسية (Montagnes Russes) وغيرها ويقصده سكان المدينة أيام الآحاد للرياضة وقضاء الوقت في لهو ولعب . ولما قربنا من مدخل المضيق (Entrée des deux Gorges) رأينا اصطبلا كبيرا به عربات كثيرة وخيل وحمير أعدت ليستأجرها الذين يريدون الرياضة في هذا المكان . وقد لاحظنا أن هذه الحمير لها وبر طويل كأمتالها في أوروبا وليست سريعة السير وما الغرض من ركوبها أيضا إلا التمتع . هذا وقد صادفنا أثناء مرورنا ثلاث فتيات راكبات حميرا وهن لا يلبقن في أن أصف حالتهن وكيف كنّ على هذه الحمير .

وصلنا إلى المضيق الجنوبيّ (Bud Canyon) فوجدناه جميلا وأخذنا
تسير بجانب مجرى صغير ونمّز على أشجار شتّى وصخور كثيرة وقد كان
الطريق يضيق بنا تارة وينفّرج أخرى إلى أن وقفنا أمام باب بجانبه
خص (كشك) فسألت عن سبب وقفنا فأخبرني سائق العربة أنه
يلزم دفع ٥٠ سنس (نصف ريال) عن كل شخص لأننا من بعد
هذا الباب سنسلك طريقا مملوكا لبعض الأهلين للحكومة . وقد حكي
لي أن المجلس البلديّ لكونولورادو أراد أن يشتري هذا الطريق وما
يجاوره من الأراضي من أصحابها ليجعله متنزها عاما ولكتمهم لما طلبوا
٢٠٠٠٠ ريال ثمنا رأى المجلس ذلك الثمن كثيرا جدّا فعدل عن
ال شراء . وقد علمنا أن عدد الزائرين كل سنة الذين يدفعون كل شخص
نصف الريال يبلغون خمسة وسبعين ألفا فهذا الدخل ولا شك عظيم
جدّا . بعد أن مررنا من الباب تجلى أمامنا جمال هذا الموقع
وبهاؤه ولو كنت مكان هؤلاء الملاك لما فرطت في هذا الكثر الثمين
ولو دفع إلىّ فيه ثمن عظيم . وبعد مسير خمس عشرة دقيقة وصلنا إلى
جندل (شلال) على مقربة منه خص (كشك) يباع فيه بطاقات اليريد
(كارت پوستال) وأشياء أخرى ولا يرى الانسان هناك منظرا جميلا
إلا إذا رقى ١٠٠ درجة من سلم خشبيّ ثابت يصل إلى قمة الجندل

لا يقل عدد درجاته عن ثلثمائة . فنزلنا من عربتنا وذهبنا الى هذا السلم الذى كان فى فضاء تحته رجل معه آلة تصوير وبجانبه حماران أحدهما أبيض والآخر أسود فلم نلتفت إليه ولا إلى حماريه لأن هذا لايهما وأخذنا أن نصعد فكنت أنا الأول ويتبعنى خيرى ثم زميلنا مصطفى بك فأسرت فى الرقى ولصعوبة الصعود فى هذا السلم لقلبة المخداره رأينا آخرنا يلهث تعباً يعانى فى رفع قدميه كأنهما مثقلتان برصاص إلى أن وقفت مفاصله وخارت قواه فلم تساعده على الاستمرار فجلس على احدى درجات السلم خائراً هامدا مصفراً وصار صدره يصعد ويهبط بسرعة من كثرة التنفس بخلاف خيرى الرجل العسكرى فانه لبقوة جسمه لم تؤثر فيه صعوبة الرقى أما أنا فخالة رفيقنا مصطفى أضحكتنى كثيراً حتى ذهب الضحك بقوى فلم أقدر أن أستمرو . وعلى ذلك فعدنا قليلا على دكة من خشب موضوعة للاستراحة ثم عاودنا الصعود إلى أن وصلنا إلى نهاية السلم فرأينا حقيقة منظرا يستحق هذا التعب الشديد فان الماء كان صافيا والمكان كان محاطا بالتلوج وأينما وجه الانسان نظره لا يرى الا جمال الطبيعة وقد وجدنا قريبا من الجندل شجرة مرشوفة بعدد عظيم من بطاقات الزبارة لأولئك الذين وصلوا إلى هذا المكان فتركوها هناك تذكارا وأثرا

لتحملهم مشاق الصعود ووصولهم إلى متهى السلم . وبعد أن ملأنا أعيننا من مشاهدة هذه المناظر نزلنا إلى حيث أتينا ولكن النزول أيضا كان صعبا لوضع السلم عموديا فبعد الجهد الجهيد وصلنا الى أسفله وركبنا عربتنا للذهاب الى المضيق الشمالى وفى الطريق كان يروقا أيضا المناظر الطبيعية اللطيفة .

ابتدأنا فى دخول المضيق الشمالى (N. Canion) وقد لاحظنا أنه ليس ضيقا كثيرا وصرنا نصعد تدريجيا ولكن ذلك المضيق على ما فيه من بعض السعة لانسلكه سيارة وهى آمنة من الخطر ولذا لم تأذن الحكومة لسيارة أن تسلكه بل جعلته خاصا للعربات التى تجرها الخيل . هذا - ولشدة الاحتراس ولتلا تحدث حوادث مكثرة جعل طريق للصعود وأخر للنزول وهذان الطريقان معلومان لكل الحوذيين يتبعونهما بنظام مطرد حتى لا تصادم عربتان أثناء السير . وقد أنصفت الحكومة فى ذلك إذ كيف يتسنى لعربتين أن تسيرا متضادتين فى طريق ضيق حتى لو أراد أحد الحوذيين أن يدير عربته لما أمكنه ذلك . وقد استمرنا فى طريقنا هذا صاعدين وكلما توغلنا فيه حللا لنا المنظر وازداد جمالا وقد رأينا أيضا جملة فرج فى الطريق فتحها أولئك الذين يبحثون عن مناجم الذهب ولما قربنا من أعلى مكان

وقف بنا سائق العربة ووجه نظرنا إلى أسفل فرأينا سهلا عظيم
الانساع فأعجبنا رؤيته من مكاننا لاسيما أن ظل السحاب يجعله يشبه
البحر الزاهر فكشنا قليلا نمتع نظرا بهذا المنظر الحسن ثم استمرنا
في طريقنا إلى أن وصلنا إلى خصص (كشك) من خشب تسكته
امرأة عجوز تبلغ من العمر السبعين ويسمونها الكبتن چاك
(Capt. Jacques) وقد قيل لنا إنها في هذا المكان من مدة ثلاثين
سنة وهي تبحث عن الذهب والغريب أنها تعيش وحيدة في فصل
الشتاء ويقم معها خادمة أو اثنتان على حسب الضرورة في فصل
الصيف لمساعدتها على خدمة الزائرين الذين يصعدون عادة على
أرجلهم إلى هذا المكان ولبعد المسافة يضطرون إلى قضاء نهار كامل
في الصعود والتزول فيعرجون على كوخ تلك العجوز ليشربوا قهوة
أو يطعموا طعاما مما أعدته هي وخدامتها ليعه هؤلاء الزائرين . من
هنا يتبدى طريق التزول ولا تحذاره أسرع التحليل بعض الاسراع
ومصطفى أخذ يصيح أى رب ماهذا الشقاء ألم تكن في غنى عن
كل هذه المخاطرات التي تروغني وتملأ قلبي رعبا واضطرابا ولقد كا
نصادف مجارى ماء مختلفة بين كبير وصغير فكانت العربة تندفع فيها
عابرة لها وهناك يحدث ارتجاج شديد يزيد اصفرار وجه زميلنا الذي

كلما حدث ذلك ونظر إلى أسفل فرأى الهوة الهائلة التي لا تبعد عن طريقنا بعض سنتيمترات يصرخ قائلا يارب سلم ونجنا من الخطر .
لا شك أن خوفه هذا لم يكن إلا لأنه لم ير من قبل مثل هذه المناظر
الرهيبة فصرنا نكلمه حتى نُسغله ونبعد عنه الخوف إلى أن نزلنا بحمد
الله سالمين . وطريق النزول لم يكن به شئ يستحق الذكر لخلوه من
كل جمال ورواق وبعد نصف ساعة وصلنا إلى الفندق وقد استغرقت
هذه الاستراحة أربع ساعات ونصفا .

وفي مساء هذا اليوم ذهبنا لنستعلم عن أماكننا في عربة النوم لعلنا
نقف على ما يريح أفئدتنا ولكن عدنا مع الأسف بدون جدوى فلم
يصل خير عن ذلك . عدنا إلى الفندق وتعشينا وصعدنا إلى غرفتنا
لنوم والراحة .

وفي يوم السبت (١٩ مايو) ذهبنا صباحا إلى مكتب الاستعلام
للسؤال عما تم فيما كلفناه به فأخبرنا أنه إلى الآن لم يصلهم الجواب
فتكدرنا من ذلك وقلت لرئيس هذا المحل ما العمل أذا ونحن
مصممون بعد الظهر على الذهاب إلى مزار وأتم ربما تغادرون
مكتبكم فمن الذى يعلننا اذا جاءكم خبر فأجابني إن مكتبهم مفتوح
إلى الساعة السادسة ويجرد وصول خير يكتب به ويتركه لي في الفندق

فتركاه على هذا الوعد وذهبنا لتسأجر العربية التي كانت معنا بعد ظهر البارحة وقابلنا السائق وأخبرناه أن غرضنا رؤية المانيتو (Manitou) وويليام كانيون (Williams Canion) ومغارة الأهوية التي يطلق عليها اسم (Wends Cave) واتفقنا معه أن يحضر الينا نحو الساعة الثانية من بعد ظهر هذا اليوم ثم عدنا إلى الفندق وجلست في مكان للكتابة في رحلتي إلى أن أتى ميعاد الغداء . وفي منتهى الساعة الثانية ركبنا عربتنا لهذه الاستراحة التي تستغرق ثلاث ساعات فأخذنا أولاً الطريق التي أوصلتنا إلى حديقة الآلهة بعد أن تركنا كولورادو سنثي ولم ننعطف إلى اليمين أو الشمال بل سرنا إلى الأمام متبعين الطريق الذي به ترام إلى أن وصلنا إلى قرية مانيتو (Manitou) ومن العجيب أن هذه القرية يطلق عليها هناك اسم مدينة مع أن عدد سكانها لا يتجاوز سبعمائة نسمة . نعم إنه في فصل الصيف يأتي إليها كثير من السائحين والمرضى للاقامة فيها والاستشفاء بمياهها الغازية أو الحديدية ومع ذلك لا أرى أنها تستحق اسم مدينة لصغرها . هذا وقد رأينا فيها كثيرا من الفنادق . وكلها بمقتضى الحال منظمة لورود عدد عظيم من السائحين إليها . تركنا هذه المدينة أو القرية وذهبنا إلى مضيق ويليامس الذي به بعض أمكنة ضيقة جدا لا تمر منها العربية إلا بعد

عناء شديد بين الصخور . وقد رأينا فيه كما في بقية المضائق بعض مجارى مياه صغيرة واستمررتنا في طريقنا إلى أن وقتت أمامنا عقبة كأداء لقيت الخليل الشدائد حتى اجتازتها فوصلنا الى خص فوقفنا بنا العربية وقال لنا السائق هنا المغارة فان أردتم فزوروها ولما كنت قد رأيت كثيرا من أمثال هذه المغارة بل أجمل منها في بلاد النمسا وسويسرا لم أرد أن أضيع الوقت في شئ لا يستحق قيمة رسم الدخول التي هي خمسة فرنكات عن كل شخص وذكرت ذلك للموذى وسألته عن مقدار علمه بها فأجابني إنه لا يعرف أهي أجمل من المغارات التي رأيتها أم تلك ولكن كل سائح يزورها كان يخرج منها مسرورا فاشتقت إلى رؤيتها وأخذنا نذكر الدخول وقيمة التذكرة الواحدة دولار . وهذه المغارة أيضا ملك خصوصي وقد رأيت الاقبال على زيارتها كثيرا فهي إذا مورد ثروة عظيمة .

ولما دخلناها استصحبنا دليلا ليرشدنا ويشرح لنا ما يحتاج إلى شرح فقادنا إلى رجة عظيمة مضاعة بالألوان الكهربائية ومنها سرنا في دهاليز بعضها مرتفع وبعضها منخفض وقد رأينا فيها أشكالا كثيرة كما شاهدنا آثار المياه التي أظن أنها بشدة تأثيرها أحدثت هذه الفتحات ورسمت أشكالا مختلفة منها ما يشبه الخفافش وغيره

والذى جذب نظرنا كثيرا وأعجبنا هي أشكال المرجان المتجمعة بكثرة والمنظمة تنظيما بديعا يجعل الانسان يعظم قدرة الخالق . هذا عدا أشكال أثمار البحار المختلفة الدقيقة الصنعة المنتشرة في كل مكان فراقت لى هذه المناظر البديعة التي لم أرها من قبل في مكان آخر وبعد أن أمضينا زمتا في التمتع برؤية هذه الأشكال الجميلة صعد بنا الدليل إلى سلم فزرتنا باقى المغارة المكونة من ثلاث طبقات بعضها فوق بعض وبها جملة غرف بين صغيرة وكبيرة وقد كنا في بعض مامشى نضطر للانحناء حتى نستطيع المرور وقد وجدنا في ركن من أركان هذه المغارة عددا عظيما من بطاقات الزائرين (كارتات) مرشوقة في حائطها تذكارا لشدة إعجابهم بخلقه الاله . كذلك رأينا في حائط آخر جملة من مشابك السيدات التي ينظمن بها شعورهن مرشوقة أيضا على زعم أن ذلك يجلب السعادة لهن . وقد استخلصنا من ذلك أن العالم مهما وصل من الرقى فلا يخلو من المعتقدات التي لأصل لها وهي مختلفة باختلاف الأمكنة والأجناس فأذا لامحل للانتقاد على المصريين والمصريات الذين لهم بعض معتقدات تشبه ما رأينا آثاره في هذه المغارة . استغرقت زيارة هذه المغارة ومشاهدة كل ما فيها ثلاثين دقيقة وإنى أعتقد أنه لا بد أن توجد في تلك الجهة بعض مغارات

أخرى تشابهها وقد استدلت على ذلك من الفتحات الكثيرة التي رأيناها في جبل هذه الجهة .

أما فكرى الخصوصىّ في هذه المغارة فأتى مع ما رأيت فيها مما لم أراه في غيرها أفضل عليها المغارة القريبة من (Interlaken) بسويسرا لاساعها فإن طولها يبلغ نحو ثلاثة كيلو مترات وتجرى المياه في جوفها وتكون بعض بحيرات تسر الناظرين .

خرجنا من هذه المغارة وألقينا نظراً من مكاننا المرتفع إلى ما حولنا فأعجبنا المنظر وبعد ذلك توكلنا على الله وابتدأنا في النزول إلى مانيتو (Manitou) فأمضينا عشرين دقيقة للوصول إليها وفي نحو الساعة الخامسة وصلنا إلى الفندق فأسرعت إلى مكتب الأسفار مع مصطفى بك فعلبت ماسرنى وهو أن محالنا في القطار خالية وقد أعدت لنا غمعدت الله على ذلك وعدت إلى الفندق للاستراحة بعد ما اشترت الجرائد لأقف منها على الأحوال والأخبار . هنا أستمح القارىء أن أذكر له حادثة بسيطة مضحكة جرت وقت ذهابنا إلى مكتب الأسفار . عند ما وصلنا الفندق تركنا العربة وأحبينا أن نذهب إلى هذا المكتب راجلين وقد كانت بيدي عصاى التي أتوكأ عليها وما كنت أعلم أن الأمريكين لا يستعملون العصى فصرنا كلما مررنا على

جماعة نراهم ينظرون إلينا بعين الاستغراب ويشيرون إلينا ضاحكين
مقهقهين فأخذتنا الدهشة من ذلك ونحن لا نعلم أسباب هذا
الاستغراب اللهم الا إن كانت أشكالنا تخالف ما ألفوا أو هيأتنا غير
متظمة في نظرم فصرنا نساءل بيننا هل فينا ما يوجب هذا الضحك
وأخيرا دقت النظر لعلي أجد السبب فأزيله حتى لا نكون موضع
التفاتهم ونظرم وضحكهم فرأيت جميعهم لا يمسون العصى فبعضهم
أيديهم في جيوبهم والآخرون قابضون على لفائف التبغ وليس بين جميع
من في هذا الشارع أحد بيده عصا الا أنا فعلمت السبب ولكن كيف
يتسنى لي إزالته وأنا بعيد عن محل اقامتي فتركهم وشأنهم غير ناظر إلى
ضحكهم حامداً الاله أن السبب نأفه لا يوجب هذا الالتفات الغريب
فماذا يضرنا لو أنا في هيئة تخالف هيأتهم أو على شكل لم يرد عليهم .
نحن في بلادنا لا ننظر إلى هذه الأشياء النافهة فكم بحر أماننا
غرباء بأزياء غريبة قلما ننظر إليها أو نضحك منها وأخيرا وجدت
طريقة أخرجتني من هذا الموقف بأن جعلت عصاى وراء ظهري
حتى تغيب عن أنظارهم فما أشد استغرابهم لأذنى شئ . بعد أن
واريت عن أعينهم ما أضحكهم أخذت أنا أيضا أضحك من حالهم
الغريبة .

أصبحنا في (يوم الاثنين ٢٠ مايو) وهو يوم الراحة فأحضر لنا أحد خدام الفندق رسالتنا الواردة إلينا من مصر وقد أخذت من بينها كتابا مطولا كتبه إلى من طرابلس صديقي طاهر بك ففضضناها وأمضينا وقتا في قراءتها والرد عليها وقبل الغداء مشينا قليلا أمام الفندق ثم عدنا إليه وأخذنا ماطلب لنا من الطعام وبعد ذلك عدنا إلى نعيم الإجابة على هذه الرسائل وفي نحو الساعة الثالثة طلبنا عربة فركبناها للاستراحة وأمرنا سائقها أن يقودنا إلى جهة المضيق الجنوبي وإلى الشاين حيث يوجد أجمل منتزهات البلدة . ولما وصلنا إلى المنتزه العائم وجدناه مملوءا بالمنتزهين الذين كانوا يروضون أنفسهم بالألعاب المختلفة كركوبهم الأراجيح ولعبهم كرة القدم وغيرها . وقد شاهدنا مسابقة بين مشهورى كولورادواسبرنج (Colorado Spring) ودنفر (Denver) في لعب الكريكيت وكان المشاهدون كثيرين جدًا ينتظرون وقد تعد صبرهم لعلوا أى الفريقين يتغلب على الآخر . وقد كان الحماس ظاهرا على الجميع وإنى ممن يشجعون جميع الألعاب الرياضية لأنها في اعتقادي تؤدي إلى تقوية الجسم وما دام الجسم سليما فالعقل أيضا سليم . خصوصا وأن هذه الألعاب توصل إلى نتيجة سامية وهي أن الانسان متى شعر بقوة بدنه فإنه يعتمد على نفسه و يترى عنده

الإقدام وهو أساس الفلاح . إننا معشرَ الشرقيين في بادئ أمرنا كما مهتمين في أوقات فراغنا بجميع فنون الألعاب الرياضية وليس كل ضروب الألعاب الرياضية التي تشغل بها الآن الفريحية وغيرهم من مختبراتهم فان جلها إن لم أقل كلها قد سبقهم اليها العرب وقد كان من زمن ليس ببعيد تخرج الشبان في منتزهات مصر ممتطين جيادهم يلعبون على ظهورها فاندثر أيضا هذا اللعب وأصبحنا لانرى خيولنا العربية الجميلة منتشرة في منتزهاتنا فيالله كم ترك من عوائدنا المفيدة .

إننا تهلونا في كل شئ حتى في مسائل تسليتنا النافعة إني لأقصد بذلك أن نهتم بالألعاب وترك أشغالنا الجلدية ولكني أنصح لأبناء وضي الأعراء أن يعتنوا بأعمالهم النافعة كثيرا وأن يجددوا أوقات الفراغ ما فقدوه من إتعاب الفكر بالرياضة البدنية المؤدية إلى الصحة وتمام العافية - فنعلم هو البال المكثود . قبل أن نصل إلى هذه المنتزهات مررتنا في طريقنا على مايسمونه وادى القمر لونا يارك (Luna Park) وقد كان الجمع هناك أيضا عظيما وحول كل لعبة عدد كبير من المشاهدين فالأمريكيون على شدة حرصهم على أوقاتهم الثمينة لا يجتولون على أنفسهم بما ينسبهم أتعاب الحياة في أيام البطالة . والحمد لله لم نحرم مصر أيضا من وجود مثل هذا المكان وإني لا أتستقد

على الذين يذهبون إليه على شريطة المحافظة على آدابنا الشرقية العالية .
عدنا بعد ذلك من طريق آخر غير الذى أتينا منه ويسمى برودمور
(Broad moor) وعلى مرتفع منه فندق به كازينو لا يفتح إلا فى فصل
الصيد . وقد رأينا فيه بحيرة صناعية جميلة والحق يقال إن موقع
هذا الفندق صحى لجودة الهواء وقد رأينا قريبا من هذا المكان منازل
مشهورى الأغنياء وأخص بالذكر أحدهم المدعو المستر بالدوين
(Baldwen) فانه صرف مليون دولار فى بناء ترياتون تشيها بملوك
فرنسا العظام ولكن أئى له أن يصل إلى أمنيته وغابات فرساليا العظيمة
الجميلة ومتزهاتها البديعة لاحتيط بينائه الشائق الذى يشبه حقيقة من
الخارج بناء فرساليا . إن مقدرته لم تمكنه من الإحكام فى محاكاة
ما فعله أولئك الملوك بالرغم مما صرفه من القناطير المقنطرة من الذهب
فى تشييد قصره الخالى من مناظر فرساليا الفريدة . وقد رأينا أيضا قصرا
كبيرا لأحد مشهورى الأغنياء الذى لا بد أن يكون قد صرف فى بيانه
مبلغا جسيما ولكنه لم يفكر فى حلية القصور وهى المنتزهات والحداثق
وفى نظرى أن القصور العالية مهما وصلت من الاتقان قاتها لا تكمل
إلا إذا كانت محاطة بهذه الحلى التى أراها متممة لجمالها .
هذا ما رأيناه فى يومنا ولا تسل عن عدد الكائنس فى هذه المدينة

فانه لا يحصى وقد أقت نظرنا حين عودتنا إلى الفندق بناء محفل
مأسوفى جميل الشكل .

وصلنا إلى الفندق نحو الساعة الخامسة وأمضينا باقى نهارنا
في الأخذ بأطراف الأحاديث بيننا

أصبحتا في يوم الثلاثاء (٢١ مايو) فباكرنا بالذهاب إلى مكتب
الأسفار لأعلم هل حدث تبدل في نمر أسرتنا والغرفة المخصصة لى
ولكن والله الحمد لم يحصل تغيير كبير الا في سرير واحد أعطى لنا بدله
وبعد ذلك جئنا جولة في المدينة ثم عدنا الى الفندق وأخذنا مكاننا
في طُفَّهها (فيراندِه) فأتت إلينا التاجرة السورية التي تكلمت عنها قبل
وقدمت لنا عددا عظيما من جرائد سوريا التي وصلتها في البريد الأخير
وبينها جريدة من جبل لبنان فشكرتها كثيرا وحمدت لها تمسكها بحب
بلادها وتعلقها بشؤون وطنها مشجعا اياها أن تستمر على قراءة هذه
الجرائد العربية حتى لا تنسى لغتها الشريفة المحبوبة

بعد الغداء شرعنا نرتب أمتعتنا وبعد أن أتممتنا ترتيبها سلمنا الكبير
من حقائبنا إلى بواب الفندق لتسفيره إلى لوس انجلوس (Los Angeles)
ولما كان قطارنا يقوم في نحو الساعة السابعة والنصف مساء سألنا هل
يوجد به عربة أكل فأخبرنا بعدم وجودها فأوصينا أن نتيأ لنا سفرتنا

الساعة الخامسة والنصف وقد بادرتنا الى محل العشاء اذ في مطاعم هذه البلاد لا يقدم للانسان مطلوبه الا بعد نصف ساعة على الأقل من وقت جلوسه على المائدة فاحتطنا لأنفسنا حتى لا يضيع الوقت علينا ولكن بعد ذلك حضر الينا بواب الفندق ونصحنا أن نتناول عشاءنا في مطعم المحطة (البوفيه) قبلنا نصيحته لاسميا وأن في ذلك تغيرا في الحالة ربما نقف منه على شيء جديد من العوائد التي لم نرها الى الآن فالغينا أمرنا الأول . وفي الساعة الخامسة والنصف خرجنا من الفندق الى المحطة راجلين بعد أن أوصينا بارسال باقى أمتعتنا الخفيفة اليها قبل ميعاد السفر فوصلنا اليها بعد خمس عشرة دقيقة وهذه المحطة تابعة لخطوط (سنثافيه) الموصلة الى جنوب كاليفورنيا وهي غير المحطة التي أتينا منها . وقد وجدناها أنظف قليلا من باقى المحطات الأخرى فدخلنا المطعم فراقنا نظافته أيضا وقد رأينا من يقوم بشأن الخدمة فيه خادمت مرئيات ملابس ذات زُواء وأول ما وقع نظرنا عليه ترتيب ووضع أنواع الفطير والحلوى المختلفة الأشكال فطاب لنا النظر اليها ووددنا أن نتناول شيئا من كل نوع فجلسنا بعضنا بجانب بعض وكل طلب ما اشتهاه فلانا أنه سيتمتع بأحسن ما عملته أيدي طباشى أمريكا ولكن منظر هذه الأشياء كان أجمل من طعمها .

وبالاختصار فرغنا من عشاءنا ولم يبق على ميعاد سفرتنا الا عشرون دقيقة ولما حضر القطار أسرعنا لأخذ محالنا بعد أن رتبنا حقائبنا وصرفنا الجمالين بعد أن أعطيناهم أجورهم . تحرك القطار في ميعاده وكان ذلك في وقت الغروب فلم أر شيئا يستحق أن يذكر في رحلتي وأول محطة وقفنا عليها كانت محطة پويبلو (Pueblo) وهي مدينة عظيمة بها ٤٠٠٠٠ نسمة وبها معامل عظيمة لأنواع الحديد الصلب والزهر وبها أيضا بناء شاهق (Mineral Palace) سطحه مكون من ٢٨ قبة كلها مرصعة بأحجار كولورادو اسبرنج الجميلة الخاصة بهذه الجهة . أما ضواحي هذه المدينة فانبثا غنية بمناجم الفحم وغيره من باق المعادن وقد رأينا (Pueblo) پويبلو ليلا وهي مضاعة بالأتوار الكهربائية الساطعة تخرقها الشوارع المتسعة المنظمة التي تكثرت فيها حركة المركبات الكهربائية ف شعرنا بكيورها وشهرتها .

وبعد أن غادرنا هذه المدينة أردنا النوم ولكن من أين تأتينا الراحة وكلما يقف القطار أو يتحرك نشعر برجة شديدة وصددمات يتلو بعضها بعضا حتى يكاد الانسان أن يقع من سريره فإ أصعب هذه الحالة خصوصا إذا أغمض المسافر عينه ونائم فإنه يقوم مدعورا خائفا وقد خيل إليه أن مصادمة حدثت وأرى أن من حق المسافر على هذا

القطار ألا يدفع أجرة سريره لأنه لايجد من الراحة ما يستحق هذه الأجرة .

وقد أيقنت وقت حدوث إحدى هذه الرجات الهائلة ان قطارنا مال عن طريقه ولم يذهب ذلك عن فكرى وتطمئن نفسى الابد أن رأيت أن قطارنا لم يزل مستمرا فى سيره وقد كنا نتبع فى طريقنا منحنيات كثيرة ففوق تلك الرجات المتوالية كانتنا فى باخرة تلعب بيا أمواج البحر المتلاطم وعربتنا كانت الأخيرة فكان اهتزازها أشد من اهتزاز سائر العربات فتصور أيها القارئ حالتنا هذه فهل ترى فيها قليلا من الراحة

قت يوم الأربعاء (٢٢ مايو) مبكرا ولم تأت الساعة السادسة حتى كنت مرتديا ملابسى ونحرت فوجدت صاحبى جالس على استعداد فى مكانهما فسألتهما عما تم لها فى هذه الليلة فأخبرانى أنهما لم يذوقا طعم النوم وقد تسبب عن ذلك مرض مصطفى بك . وفى الساعة السابعة أعد الأكل فى عربته فذهبنا إليها لتناول القهوة وصرنا نرى أننا نسير فى أراضى مستوية يظهر على سكانها الفقر فان منازلهم حقيرة مبنية بالطين تشبه منازل فقراء فلاحى مصر فسألت عن أحوالهم فقيل لى إن أغلب سكان هذه الجهة من الفقراء

وصل بنا القطار الى البوكيرك (Albuquerque) وهي المحطة التي يتفرع منها خطان خط يوصل إلى محوم مكسيكا والآخر إلى الپازو (El Paso) وهناك تفصل العربات الذاهبة إلى هاتين الجهتين وليس بهذه المدينة ما يستحق الذكر إلا أن السائحين ينتهزون فرصة وقوف القطار مدة نصف ساعة فيذهبون إلى دكان بجوار المحطة به معروضات سكان أمريكا القدماء ويسمى المتحف الهندى والذى يدل على أن هذه المدينة ليست كبيرة أن عدد سكانها لا يبلغ ثمانية آلاف نسمة فنزلنا نحن أيضا كسائر السائحين ورأينا نساء هؤلاء الأمريكيين (الهنود) جالسات على الأرض وأمامهن مصنوعات أيديهن معروضة للبيع وقد كانت وجوههن الحمراء التى لا أثر عليها من الجمال مكشوفة وعلى رؤسهن الخمر (الشيلان) وفى أرجلهن الأحذية ذات الساق فألقينا نظرة الى هذه المعروضات ثم ذهبنا الى المتحف الهندى فوجدنا أنه يباع فيه أنواع كثيرة من السجاجيد التى هى من عمل هؤلاء الهنود والأساور والأقراط المختلفة الأنواع بعضها مصوغ من تقود مكسيكا القديمة وهذا غير أحجار هذه الجهات المرصع بها الخواتم والدايبيس وغيرهما يشتريها الذين يريدون أن يقدموا هدايا لأصحابهم وأقاربهم بعد عودتهم من سياحتهم لتكون تذكارا فنظرنا كل هذه الأشياء ولم

تأخذ منها شيئاً وقد استحسنا بعض بطاقات البريد (كارت پوستال) فاشتريناها ثم عدنا إلى عربتنا وما استقر بنا الجلوس حتى حضر إلى أحد مخبري الجرائد وسألني أيكم الأمير (البرنس) فأخبرته أنني أدعى خيري بك الياور المعين في خدمته أما دولته فقد ذهب ليستريح الآن ولا يريد أن يقابل أحداً من مخبري الجرائد حيث إنه تعب كثيراً من كثرة هذه المقابلات خصوصاً وقد قرأ ما يكتبونه عنه فوجد كثيراً من مخالفاً لما صرح به فصار يسألني عما استحسناه إلى الآن في أمريكا وصرت أجابو به مع تمام الاحتياط وأقول له إن هذه البلاد كبيرة جداً فأخبرني أنه يعرف في هذه البلدة أحد السوربين ويدعى المسيو خوري وآخر تركياً اسمه سلمون (Salamon) يسكن (البازو) وهو ذو ثروة عظيمة ولا بد أن يكون هذا الأخير إسرائيلياً ثم انصرف من عندي شاكراً حسن مقابلي له معجبا بقوتي في اللغة الانكليزية حتى إنه ظن أنني درستها في إنجلترا فوافقته على ظنه وبعد أن تخلصت منه أسرعرت إلى خيري بك وطلبت منه ألا يترك مكانه حتى يقوم بنا القطار وقصصت عليه ما دار بيني وبين هذا المخبر ذا كرا أنني استعرت اسمه ووظيفته وتكلمت مع ذلك المخبر كأني خيري . ولأجل أن يتم فصل التنكر هذا ولا ينكشف أمره طلبت من خيري ألا يخرج بل يبقى

مستريحاً اذ لو نرحل فلقية المخبر لوجب عليه أن يحاكني أمام ذلك
 المخبر كما حاكبته أنا من قبل وفي ذلك ما فيه من تكلف الظهور بغير
 الحقيقة . أما قطارنا فقد ما : ببائى البضائع الهندية وغيرهم من
 الذين وظيفتهم الإعلان وتسويق السلخين إلى زيارة الجزائر كانبون
 (Grand Canòn) وقد كما رأينا قبل أن نصل إلى هذه البلدة بمحطتين
 هؤلاء الهنود وعرفناهم من سياهم بالرغم من تغيير ملابسهم واستبدالها
 بالملابس الأوروبية فان ألوانهم وسماتهم كانت ناطقة بجنسهم وأصلهم
 أما نساؤهم فوضعهن الخمر على رؤسهن كان سبب تمييزهن والانتفات
 إليهن . هذا وقد لاحظنا أن الجهة التي يسكن فيها هؤلاء الهنود
 التعسوت رطبة وبها كثير من المستنقعات المسببة للأمراض التي
 تفتك بهم وتقلل من عددهم عاما بعد عام . أما أراضيهم فليست
 مزروعة كما يرام وهم يستعملون من فقرهم أدوات الزراعة القديمة
 فلا يجنون ثمرة أتعابهم إلا بكل مشقة وقد رأينا لهم بعض مراعى
 لتربية الخيول ولكن جل المراعى هناك لتربية الماشية . وقد علمنا أن
 هذه الحيوانات ملك لكثير من التجار وليس هنود الأمريكيين إلا
 خداما يحافظون عليها ويرعونها فى الحقيقة المكسب العظيم هو
 لأرباب الأموال من الأوروبيين والأمريكيين وأما هؤلاء الهنود

فلا يكتسبون الا اجرتهم الضعيفة . واذا أراد الانسان أن يستفهم عن مقدار ثروتهم فانها تقدر بما يمتلكه الشخص من رؤس الغنم والخليل كالعرب . أما وصف مراعيهم فلها من النباتات الطبيعية التي أنبتتها الأرض وقد رأينا خيولهم تزعى الكلالا النبات في وسط هذه المستنقعات وقد ظهر على وجه الماء أو القريب من تلك المستنقعات

قام بنا القطار ونحن نسير الآن بجوار نهر الريبوجراندى (Rio Grande) وهو نهر عظيم متسع يصل إلى مكسيكا جميل المنظر على شاطئيه كثير من أنواع الشجر المخضرة وبين وقت وآخر كما ترى في وسطه جزائر صغيرة لطيفة بها أيضا نباتات وأشجار . وقد مررنا على جملة قرى صغيرة هندية كانت ظواهر أحوالها ناطقة بفقر أهلها وسوء حالهم . هنا أصف للقارى حالة بيوت هذه القرى - إن أغلبها دور واحد ومن مميزاتا أن ليس لها أبواب للدخول فيها على سطح الأرض بل أبوابها في سقفاها ولكل منزل سلم يصعد فيه صاحبه ليصل به إلى جوف منزله نهارا ويرفعه مساء خوفا على أنفسهم من أعدائهم ولكن ما ذا يفيدهم ذلك وهذه البيوت ليست مرتفعة فالفارس يمكنه أن ينزل بسهولة فوق سطحها .

إن هؤلاء الهنود لهم قبائل مختلفة ففي هذه الجهة التي نمرّ عليها قبائل الموكيس (Mokis) والزونيس (Zunis) والتفاجوس (Navajos) والباش (Apaches) والپياس (Pimas) ولا يتصوّر القارئ أن هذه القبائل تكون مدناً عظيمة كبيرة فلها تسكن متفرقة في قرى صغيرة لا يكاد سكان كل قرية يبلغ مائة أسرة وليس كما كنا نسمع أن كل قبيلة لها رئيس يحكمها ويتصرف في أتباعه تصرف الحاكم المطلق فقد ذهب كل شيء مما كانوا عليه قديماً حتى الكثير من عوائلهم وزيمهم وأصبح السائح لا يرى الهنود بملابسهم الغريبة ذات الألوان المختلفة ولا قبعتهم المنظمة المزدانة بريش الطيور الملونة أو المصبوغة بالألوان التي يستحسنونها فقد ذهب كل ذلك وتغلب الزي الأوربي على كل هذه الأزياء والسائح إن أراد أن يرى شيئاً من ذلك فلا يراه إلا بالطلب كعادة تاريخية تمثل فقط أمامه فله الملك وكل شيء زائل الا هو سبحانه وتعالى .

إننا في طريقنا نمرّ على كثير من القرى بعضها عامر بهؤلاء الهنود وبعضها بالمكسيكين أو المهاجرين من البلاد الأوربية وغيرها ولا يجد السائح صعوبة في تمييز هذه القرى بعضها من بعض فكفاه أن ينظر إلى أبوابها حتى يعلم ان كانت للهنود أو لغيرهم وكفاه أن يقرأ

آيات الفقر على حال بعضها حتى يعرف ان كانت للكسيكين أو المهاجرين الأوربيين فان الأخيرين أرق بكثير وأنظف في أحوالهم ومعيشتهم ممن عداهم أما اذا أراد التمييز بينهم في الجنسية فلا صعوبة في ذلك فان الهندي الأمريكى لونه أحمر ورأسه كبير وشعره أسود وقوى البنية ومتوسط القامة أما المكسيكى فانه يشبه سكان صعيد مصر وان كان أكثر منهم سمرة وأضعف جسما ولا تظهر عليه القوة مثلهم .

مررنا على بلدتى إيسلينا ولاجونا (Islita, Laguna) المسكونتين بالهنود الامريكين وليس بها ما يستحق الوصف والأوضح للقارىء بعبارة أفصح أى جهة يسكنها عادة الأوربي المهاجر أو الأمريكى الفاتح أقول . إن الجهات التى بها معادن أو التى أرضها خصبة هى من حقوق أولى اللون الأبيض أما الأراضى المحبذة أو التى بها مستنقعات فهى من نصيب الهنود أو المكسيكين وكفى بهذا دليلا على أن الانسان مهما وصل من الرقى فان الظلم لا يُجْتَنَب من طبيعته والظلم من شيم النفوس فان نجد ذا عفة فلعلة لا يظلم وصلنا إلى ولاية النوفيل مكسيك (Nouvelle Mexique) التابعة أيضا للولايات المتحدة وهى على حدود مكسيكا وأغلب البلدان التى

مررنا عليها لها أسماء اسبانية وليس ذلك بعجيب لأن الاسبانيين هم الذين كَشَفُوا الدنيا الجديدة وزحوا اليها لاستعمارها واستخراج معادنها المكتنزة في أراضيها

أتى معاد الغداء فذهبنا إلى عربة الأكل فوجدنا رئيس الخدم وكذلك الطباخ ألمانيين ولما تكلمت تلتذذ من ابتداء حضورنا إلى يومنا هذا من أطعمة الأمريكيين وجدنا أن الغداء الذي قدم اليه على قلة أروائه كان مصنوعا جيدا فأكلناه مع اشتهاه فأثنت على رئيس السفريين وقيل أن تقوم من مكاننا شعرنا بشدة الحر حيث كانت الشمس تلقى أشعتها الذهبية على الصحارى والأودية التي تمر عليها. فشبه لنا أننا في صيف مصر وكانت المراوح الكهربائية تدور ولكنها لا تغلب على هذا الحر

أتت الساعة الخامسة فرأينا على بعد مدينة تظهر عليها الثروة لكثرة المصانع بها فان عدد مداخنها كان كثيرا جدًّا وهذه المدينة تدعى جالوب (Gallup) وهي شهيرة بمناجم الفحم الحجري ومعتبرة مركزا لمهام الحصن العسكري المعد للدافعة ضد الهنود والمكسيكيين وهي على بعد ٤٠ كيلومترا من هذا الحصن فهي إذا ممّعة للوقع الحربى ولما وصلنا إلى مانويليتو (Manuelito) دخلنا في أراضي الاريزونا (Arizona)

التي بها الجرانديكانيون (Grand Canón) وهي عبارة عن صحراء بها كثير من الصخور ذات الألوان المختلفة وبعدها مررتا على ادامانا (Adamana) وأرضها رملية لونها أحمر وبها أيضا كثير من الصخور الحمراء والسوداء التي تشبه الفحم الحجريّ وبما أن هذه الأراضي قاحلة فلا أثر للزروع بها . وكنا نشاهد حيث يوجد نبع صغير من الماء منزل أسرة هندية واحدة فلم نصادف إذا ما يستحق الذكر الا كلب الوادي المنتشر انتشارا هائلا .

قربنا من بلدة وينسلو (Winslow) المعروفة بحصول واقعة حرية هائلة بها بين الامريكيين والهنود الاپاش (Apaches) وفي هذه الواقعة الشهيرة أوشك الامريكيون بييدون الهنود عن آخرهم . وقف قطارنا وألحقت به عربة للذين يذهبون تَوَّأ الى الجرانديكانيون . ولما أتى ميعاد العشاء ذهبنا لعربة الأكل وفي أثناء العشاء نقل خادم عربتنا الزنجيّ الذي صحبنا من كولورادو اسبرنج أمتعنا إلى العربة الحديدية وما أتمنا العشاء حتى كان كل شيء مرتبا في محلنا الجديد فلم نتعب إذا في النقل ولا غيره بل ذهبنا الى محالنا هادئين مطمئنين . وصلنا الى ويليامس (Williams) نحو الساعة الحادية عشرة وقد كنا متأخرين عن الميعاد الأصليّ بنحو نصف ساعة وهي بلدة صغيرة جدا

شهيرة بقطعان البقر الذي صار وحشيا لبعده عهدده برؤية الانسان .
 هنا انفصل قطارنا عن عربتنا واستمر في مسيره الى لوس انجيلوس
 في كاليفورنيا أما نحن فامضينا ليلتنا في هذه العربة أمام محطة ويليامس
 لغاية الساعة الخامسة صباحا من يوم الخميس (٢٣ مايو) ثم ألحقت
 عربتنا بقطار صغير ليقودنا إلى الجرانديكانيون

فتعرتنا في هذه الساعة بابتداء تحركها وفي الساعة السابعة صباحا من
 هذا اليوم ارتدينا ملابسنا وقد كان الجو صحواً والطقس معتدلا
 حيث كا على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر فصرنا نرى أننا
 نخترق واديا عظيما متسعا به كثير من الشجيرات ترتع فيه الألوف
 من الأراب البرية . وبعد قليل من الزمن وقف بنا القطار في محطة
 صغيرة جداً لم يكن بها الا زرائب من الخشب بها كثير من الغنم
 فكان منظرها وهي مجتمعة في مكانها جميلا و بعد بضع دقائق قام
 بنا القطار فأخذنا ندخل في غابة كثيفة وبعد عشر دقائق من الساعة
 التاسعة وصلنا إلى الجرانديكانيون

فكأننا قطعنا المسافة بين محطة ويليامس والجرانديكانيون في ثلاث
 ساعات وعشر دقائق .

إن الفندق الذي كا نريد أن نزل به على بعد خطوات من المحطة

فترزنا من عربتنا وقصدناه راجلين ولكن قبل أن يصل الانسان إلى هذا الفندق لا بد أن يصعد على سلم عال متعب جدا وذلك لوضعه رأسيا فتسلقناه واجتازنا هذه العقبة أيضا وبعد ذلك وصلنا إلى الفندق وهو منزل كبير مبنى بالأخشاب يحيط به من كل جهة طنوف (فيراندا) فذهبنا تَوًّا إلى حجرة الأكل لنشرب قهوتنا وفي أثناء ذلك حضر أحد رؤساء الفندق وأثبت أسماءنا في مذكرته وبعد أن اتهبتنا من الأكل أردنا رؤية غرفنا فقادونا إليها فاذا هي قليلة الزخرف ولكنها نظيفة ومرتبة وقد أعجبنا حسن موقعها وجودة هوائها خصوصا أننا لانسلمع فيها أى حركة تعلق راحتنا ولا يعجب في ذلك فاننا في خلاء واسع تحيط بنا الغابات الكثيفة الجميلة ولا بد أن السكون والهدوء ملازمان لهذا الموقع الخالى من المنازل وبني الانسان الا السائحين التازلين بهذا الفندق

بعد أن استرحنا قليلا من عناء السفر وتخلصنا مما لحقنا من غبار الطريق وأبدلنا ما علينا من الملابس خرجنا نتمتع نظرا بأ كبر وأعظم أعجوبة في العالم على حسب قول الأمريكين وقد يقولون عنها إنها الدليل القطعى على إثبات قدرة الخالق العظيم ولكنى والله الحمد لم أحضر إلى هذا المكان لأقف على هذا الدليل حتى يزداد يقينى

في الخلق جبل وعلا فاني أعترف بهذه القدرة من ابتداء نشأتي الأولى
 إذا فلا محل عندى لزيادة إيماني برؤيتي هذه المناظر وما كنت لأنتظر
 هذا اليوم حتى يتشبع روعي بعظمة وجلال رب السموات والأرض
 إن موقع الفندق على ارتفاع ٢٠٠٠ متر من سطح الماء ومعنى
 جراندكانيون (Grand Canón) الخلق الكبير أو المضيق العظيم وبلغ
 طوله تسعة وأربعين وثلثمائة كيلومتر وعرضه من ١٣ الى ١٦ كيلو
 متر وعمقه من ٣٠٠ الى ١٥٠٠ متر ويمر بقاعه نهريدعى كولورادو
 (Colorado) لا تزيد أعظم سعة له عن الستين مترا وفي أوقات فيضانه
 لا يزيد عمقه عن السبعين مترا .

إن الناظر إلى الصخور في ذلك المكان يجدها مكتوبة من عدة
 طبقات مختلفة الألوان والأشكال فيرشده ذلك الى أن كل طبقة من
 هذه الطبقات قد كانت في أحد العصور السالفة هي وجها للأرض
 فتوارت بتراب الترى وخلفتها طبقة أخرى صارت بعدها وجها
 للأرض وهكذا الى أن وصلت الى الحالة التي هي عليها الآن ومن
 ذلك يعلم المطلع على تلك الصخور أن الارض قد تكونت منذ عهد
 بعيد جدا والذي كشف للانسان عن هذا السر هو ما حدث من
 حوادث الثوران الأرضية فهي التي ساعدته على الوقوف على هذه

الحقيقة ولولاها لبقيت تلك الحقيقة في ظلمة استنارها اذ ليس
للإنسان قوة في الحفر توصله إلى تلك الأعماق السحيقة فذلك الانفجار
الطبيعي هو الذي أحدث ما نراه من تلك الاشكال المختلفة . أما
تلك الألوان المختلفة فوصفها على حسب ترتيبها الطبيعي من أعلى الى
أسفل هو ما يأتي : -

الطبقة العليا لونها أغبر يليها طبقة ثانية لونها كلون سابقتها الا أنه
يُخللها قطع بعضها أحمر وبعضها أبيض
وهناك طبقات أخرى مختلفة الألوان بين أحمر قاني وأخضر
ضارب إلى الصفرة وأحمر مشوب بسواد ويخلل كل طبقة من هذه
الطبقات قطع من الصخر حمراء صافية

هذا وأول رحالة كشف هذا المكان هو المايجور باول (Pawell)
فانه مشى بقارب صغير في نهر كولورادو الذي يجري في قاع هذا
المضيق كما ذكرنا ذلك قبلا إلى أن وصل إلى هذا المكان العظيم
وقد رأينا طرقا ضيقة جدا تصلح فقط لمشي البغال والحيول لتنزل من
هذه المرتفعات إلى عمق المضيق وهي في الحقيقة متعبة جدا ولكنها
ليست خطيرة . أما نحن فآلتقينا نظرة عامة على هذا الموقع فاستكبرناه
وأعجبنا به كثيرا وهو في الحقيقة يستحق الإعجاب لكبره وعظم عمقه

ولكننا مع ذلك لم نر سببا لإجبار السائحين على قضاء يوم أو بعض أيام في هذا المكان وكان يكفي أن يمر الطريق الحديدي عليه فمن أراد النزول فيه تزل والا اكتفى برؤيته ومشاهدة عجائبه أثناء سير القطار ان الامر يكتفي بالبقاء لا يتركون بابا للكسب بدون أن يلجوه بفتحوا الطريق ينهى بهذا المكان حتى يكون للفندق مورد ثروة من السائحين الذين يضطرون بطبيعة الحال إلى التعرّيج والنزول فيه يوما أو بعض أيام ولا تسأل عن الاعلانات الكثيرة التي ينشرها مشتملة على أساليب التشويق إلى رؤية هذا المكان لجلب الناس إليه أما طرق هذه الإعلانات فنحن في غنى عن بيانها لأن شهرتهم في ذلك تفوق كل شهرة - ولكي أصوّر لك أيها القارئ منظر هذا المكان أقول أتق نظرك على جبلنا الجيوشي وما فيه من المغارات والأشكال التي وراءه ولا فرق الا أن في بلادنا جبلا واحدا (الجيوشي) وهناك من أمثاله مائة جبل وأيضا انك ترى حيث تكون فوق أعلى قمة في الجيوشي أسفل الجبل على بعد ٣٠٠ متر وهناك ترى أسفل الجبل على بعد ١٥٠٠ متر . نعم هذا الوصف هائل ولكن من يدري أنه لا يوجد أمثال هذا المنظر أو أجمل منه في بلاد الشيلي (Chili) والبرازيل (Brésil) وپرو (Pérou) وبلاد اليمن وغيرها .

إنه لا يزال الى اليوم في قارة آسيا أمكنة غير معلومة حتى العلم والله أعلم بحقيقتها ووصفها . وربما كان بها من المناظر الغريبة ما يزرى بعجبنا أمريكا فلا أجد سببا قويا جذب السائحين لزيارة هذا المكان الا تأثير الإعلانات والافتنان في طرق النشر . تركا مكاننا وتوغلنا في الغابة على شفير المضيق فاستدرجتنا رائحة الأشجار العطرية وأثر في أنفنا الهواء النقي فلم نشعر بالتعب مع أننا استغرقنا ساعة ونصفا في المسير للوصول إلى زاوية على طرف هذا المضيق فصرنا نرى من هذا المكان نهر كولورادو من جهتين أى من جهة كل ضلع زاوية وقد خيل إلينا أن ماءه عكر وبعد أن مكثنا قليلا بهذا المكان عدنا إلى الفندق وبالطبع هذه الرياضة جعلتنا نشتهي الأكل فذهبنا نوا إلى ججرة السفرة حيث كانت الساعة الثانية عشرة والنصف وهنالا يبخار الانسان ما يريده من كشف الماء كولات بل أنواع الأكل عامة لكل السائحين فأكلنا بأشتهاء عظيم ولم نشعر برداءة الطعام بل على العكس اتفقنا أنا ورفيقي على أنه أحسن قليلا من غيره وبعد ذلك ذهبنا إلى غرفنا فأقنا بها قليلا من الزمن طلبا للراحة وفي نحو الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر خرجنا ثانية من الفندق لرؤية باقي المناظر وقد قيل لنا قبل حضورنا إلى هذا المكان حسب السائح

أن يرى فندق التوفار (El Towar) الذى نحن به الآن وما حوله فان ذلك يترك فى نفسه صورة عامة لمناظر الجرائد كانيون ولكننا بالرغم من ذلك أردنا أن نتوسع ونقف على كل دقيقة ييم الوقوف عليها فاستفهمنا عن الأمكنة التى يذهب إليها السائحون فعلينا أنهم يذهبون على عربة إلى المكان الذى كافيه صباح هذا اليوم ويبعدون عنه قليلا ولأجل ذلك يلزمنا دفع ستة عشر دولارا عن أنفسنا أى ما قيمته ٨٠ فرنكا فرأينا أن هذه القيمة باهظة خصوصا وأنا مشينا تلك المسافة على أرجلنا بدون تكبد تعب يذكر فعدلنا عن هذا الإسراف ثم علمنا أن هناك استراحة أخرى على ظهور البغال والتليل للنزول إلى أسفل المضيق وتستغرق يوما كاملا ولما كنا رأينا العالدين منها وجوههم حمراء محروقة من الشمس ظننا أن لون الصخور الحمراء ناشئ أيضا من قوة تأثير أشعتها المستمرة وقد كانت حالتهم الجسمية يرئى لها فان التعب الشديد كان باديا عليهم فوفرنا على أنفسنا هذا التعب خصوصا وأمامنا صعوبات أخرى كبيرة لا بد من اقتحامها فقررنا أيضا العدول عن هذه الرياضة الشاقة استيقنا لقوتنا .

بعد أن وقفنا على حقيقة الحال من جهة تلك المزاراة وقررنا ما قررنا رأينا أمام الفندق على بعد بعض أمتار منزلا يمثل منازل هنود

الأمريكيين والسلم الخشبيّ موضوع على إحدى حيطانه للذين يريدون الصعود عليه والدخول في هذا المنزل من بابه الذي في سقفه وقد رأينا أيضا بابا آخر اعتيادا بعمل تسهيلا للذين لا يستطيعون الصعود على السلم حتى لايجرم الشيخ أو الضعيف من الدخول فيه وقد عرفنا أن هذا المنزل محل تجاريّ تديره شركة الفندق لمبيع مصنوعات الهنود والدخول فيه مباح لعامة الناس بدون مقابل فدخلناه ورأينا فيه أنواعا كثيرة من الأجزاء الثمينة كالقيروز وغيره وعددا عظيما من السجاجيد الهندية الأمريكية وكثيرا من الأساور والأقراط من الفضة وسلات مختلفة الشكل والحجم ودلبس الهنود وقبعاتهم وسروج خيوطهم وأقواسهم وسروهم وحرايمهم وتروسهم وغير ذلك .

أما مدير هذا المحل فقد كان يظهر عليه النشاط وقد صحبنا وأخذ يشرح لنا ما يزيد معرفته وقد تبادلنا الحديث معه إلى أن وصلنا إلى أصل هؤلاء الهنود فسألته عن رأيه في أصلهم وهل يعتقد أنهم خلقوا في أمريكا أو هم مهاجرون من بلاد أخرى فأجابني أنه يرى أنهم أتوا من قارة آسيا فسردت من فكرته لأنها تطابق رأئي وقد صرحت بيا قبل زيارتي لأمريكا ودوتها في رحلتي اليابانية فلما رأيت في منشوريا اليورجوت وقارتهم بصور الهنود الأمريكيين

التي رأيتها في بطاقات البريد (كارت پوستال) التي اشتريتها من
 (مكدن) علمت وقتئذ أنه لابد أن تكون هنود أمريكا من هؤلاء
 اليورجوت ومن سكان شمال آسيا وليس بعيد أنهم هاجروا الى هذه
 البلاد في الزمن القديم من طريق كامتشكا (Camtchatka) وعلى ذلك
 الرأي يكون الآسيويون هم البادئون في تكشيف أمريكا قبل
 كريستوف كولومب ولكن لما كانت حالتهم وحشية ومعارفهم قاصرة
 واختلاطهم بباقي العالم معدوما ولا توجد بينهم وبين الأوربيين
 مواصلات ولا مكاتبات فإن تكشيفهم لم يعلم به أحد . ومع ذلك
 لا يمكن تأييد هذا الرأي باقامة برهان عليه من معلومات هؤلاء الهنود
 أنفسهم لأنهم لا يعرفون هم أنفسهم أصلهم ولا يدرون تاريخهم
 فإذا لا يمكن الاتيان براهين قاطعة على صحة هذا الرأي إلا مثل هذا
 الاستنتاج الذي وصلت إليه أثناء زيارتي منشوريا ومقارنتي سكانها
 بأولئك الهنود الأمريكيين . والشئ الغريب الذي ألفت نظري في هذه
 المعروضات وجود (رأس بلجم) مكسيكي به رسم الهلال (وحديثه
 عربية) فقلت إن ذلك من مخلفات وآثار العرب فأننا نعلم أن
 الاسبانيين هم الذين أتوا أولا وحاربوا مكسيكا وبما أن إسبانيا
 كانت ملكا للعرب وبعد نزوحها من أيديهم لابد وأن تبقى في إسبانيا

آثارهم الحربىة والاسبانيون الذين حضروا لفتح مكسيكا ربما كان بينهم من أحفاد العرب أو من المعجبين بأدواتهم الحربىة من أحضروا معهم هذه المخلفات التاريخىة وبعدها انتقلت من مكسيكا إلى هنا على أنها تحف تباع للسائحين والذى أيد فكرتى هذه وجود سروج عربىة بكامل أدواتها معروضة أيضا للبيع وهى بلا شك من مخلفات الأندلسيين المغاربة

وقد زاد استغرابى ما وجدته من المشابهة بين مصنوعات هؤلاء الهنود المتخذة من القصب ومصنوعات السودانيين عندنا أو زوج أواسط أفريقىة فأفكار الانسان وأعماله ملائمة لما هو عليه من الرقى أو الانحطاط فى الشؤون الاجتماعىة فلو أن طائفتين من بنى الانسان تشابهتا فى رقيهما وانحطاطهما فلا بد أن يتشابهتا فى أعمالهما ولو تباعدت أو طابقتا فإن حالة السودانيين الوحشىة لا تقل عن حالة هؤلاء الهنود. بعد أن أتممت زيارتنا لكل غرف هذا المحل التجارى الأثرى أردنا الانصراف فوقع نظرنا على كآبة مكتوبة فى لوحة معلقة على حائط باللغة الانكليزية علمنا منها أنه سيحتفل هذه الليلة باقامة مرقص للهنود فى الساعة الثامنة مساء من هذا اليوم فصممنا على أن نعود ثانية الى هذا المكان حتى نرى شيئا جديدا لم تره من قبل فخرجنا وتزهدنا قليلا

حول الفندق ثم رجعنا اليه لأكتب مذكراتي عن رحلتي ولما أتت الساعة السابعة انتقلنا الى حجرة السفرة لتناول عشاءنا وما أزفت الساعة الثامنة حتى كنا في منزل الهنود الذي سيقام فيه المرقص وقد سبقنا اليه كثير من السائحين فنظمت هذه الحفلة بأن وضعت الكراسي على هيئة نصف دائرة حول محل كاف للراقصين فتقدم اثنان من الهنود الى بيو هذا الميدان وفي يد كل واحد منهما عصا جوفاء صغيرة في طرفها كرة من الخشب بها قطع صغيرة من الأجار (شخشيخة) حتى اذا هزت سمع لها صوت يشبه تمام المشابهة صوت (شخشيخة الزوج) فأخذوا يرقصان ويصيحان بأعلى صوتهما كنباح الكلاب وصارا يرفعان قدما ثم يحططنها ويرفعان القدم الأخرى وهكذا . فرقص الهنود أيضا يشبه رقص زوج أفريقية الا أن صوتهم أكثر إزعاجا . ولما اتبها من رقصهما شرع مدير المحل يحذفهما ببعض قطع من النقود الامريكية ذات الخمسة أو العشرة سنس حتى يذبه السائحون الى أن يحذوا حذوه فصار كل واحد منهم يلقي ما يريد والاثنان يسرعان الى التقاط ما يلقي اليهما

اتهى دور هذين الاثنين نخرجنا من المرقص وتقدم بعدهما خمسة من الهنود يتلو بعضهم بعضا على صف واحد فصاروا يرقصون

و يصيحون أيضا كما يفعل الزوج السودانيون وبعد ذلك تهرت عليهم النقود فصاروا يلتقطونها ثم تركوا مكانهم خلفهم امرأتان هنديةتان عاريتا الأقدام وعلى كتف كلتيهما قطعة من القماش وابتدأتا في الرقص أيضا ثم تبعهما بعد انصرافهما ثلاثة أطفال تمعوا حفلة الرقص وفي كل مرة كانت النقود تلقى على الأرض والراقصون أو الراقصات يسرعون الى التقاطها أما الدف الذي كانوا يضر بونه فهو كدلوكة السودانين أيضا فلم أهدت تمام الاهتداء الى سر هذه المشابهات بين هؤلاء الهنود وسكان أواسط أفريقيا . وأعجب من كل ذلك في وجوه المشابهة أن معاملتهم في الزمن السابق كانت بأججار الفيروز وأنواع الصدف وغيرها فان الأقراط والأساور المصنوعة من هذه النصوص كانت تباع بعبءة رؤس من الغنم أو البقر أو الخيول أما ملابسهم على كثرة ألوانها فلبسهم يزنونها بأنواع الخرز الملون فكان الخرز أيضا كان له قيمة عظيمة عندهم كالزنج

هذه كانت حالتهم الأولى ثم صاروا يتدرجون في تغيير هذه الأشياء بعد اكتشاف أمريكا ووفود الأوروبيين إليها وصاروا يصنعون من الفضة أقراطهم وأساورهم وغيرهما ويغيرون ملابسهم تدريجيا إلى أن وصلوا الآن إلى الارتداء بالملابس الأوروبية على قاعدة أن

المغلوب ولُوع بتقليد الغالب . بعد انتهاء هذه الحفلة عدنا إلى الفندق
واقترقنا للنوم وموعدا الصباح

اجتمعنا في يوم الخميس (٢٤ مايو) حيث كان الهواء عليلا والسماء
رائحة نفرجنا من الفندق نمتع أنظارنا بتلك المناظر الغريبة فترى
السائحين الذين سينزلون إلى أسفل المضيق فذهبا إلى المكان المعد
لركوبهم فرأيناهم وعليهم ألبسة من الكاكي الأصفر أعدتها القائمون
بإدارة الفندق لأيجارها للسائحين فقد كان الرجال ينطلوناتهم السوارى
والتراك والسيدات بحللهن (فساتينهن) الواسعة المصنوعة من هذا
القماش أيضا المعدة للركوب فكان المنظر غريبا يجذب الأنظار اذ كما
ترى رجالا على ظهور البغال وحالتهم تظهر عدم اطمئنتهم من جهة
دوابهم وسيدات بلغن سن الشيخوخة ويردن أن يظهرن مقدرتهن
بئجشم هذه المشاق ورجالا وسيدات بلغوا من عظم الجسم ماجعل
بغالهم تنوء بهم وأطفالا يلعبون فوق ظهور هذه الدواب ولا يجعلونها
تستقر في مكان واحد - وبالجملة أمضينا بعض دقائق ونحن نرى كل
هذا ولم نأسف على ضياع وقتنا سدى وبعد ذلك مشينا من هذ
المكان إلى الأمام حتى وصلنا إلى محل فسيح قد ضرب به كثير من
الحيام موضوعة بنظام كمنظام المعسكرات للذين يفضلون الإقامة بها

من السلخين على السكى بالندق وأظن أن أجرة المبيت في هذه الخيام أقل من أجرة الغرفة في الفندق .

عدنا بعد ذلك إلى الفندق لنعدّ متاعنا فقد صممتا على الرحيل عند ما تمرّ خمسون دقيقة بعد الساعة السابعة . وبعد الغداء أردت أن أستريح قليلا في غرفتي فاعتزاني ألم شديد في رأسي لم أتخلص من شدته إلا نحو الساعة الثالثة والنصف ففضلت الخروج في الخلاء لاستنشاق هواء الأجمة لعل أتغلب على هذا الألم المتعب فصحيت رفيقاي وشيئا إلى أن قربنا من أكواخ الهنود الذين يشتغلون في الفندق أو في المحل التجاري الذي سبق الكلام عليه فرأينا امرأة تسليخ خروفا معلقاً أمام كوخها ولما أردنا الاقتراب منها لئرى ما تفعله دخلت في كوخها فتعمدنا الاقتراب منها لئرى مايجويه ذلك الكوخ الذي توارت فيه فأغلقت الباب في وجهنا فرجعنا بعد أن طال انتظارنا ولكنا عدنا ثانية للاقتراب من الأكواخ الأخرى المجاورة للكوخ الذي اختبأت فيه المرأة الهندية فكان نصيبنا أيضا عدم الوصول إلى معرفة ما بداخلها وكما كلما تقرب من أحدها أسرع امرأة أو طفلة إلى إغلاق الباب في وجهنا فكانهن لا يردن أن يقف أجنبى على أحوالهن الداخلية . إن هذه الحوادث ولو أنها في حد

ذاتها تافهة جدا إلا أنها مرت على نفسي المفعمة بحب المحافظة على العوائد القديمة فوجدت فيها مكانا رحبا فشعرت وقتئذ بلذة ذهب بما كنت أشعره من ألم الرأس وربما يتصور القارئ أنى من المتعصين الذين لا يودون تحسين أحوالهم باختيار أحسن الطرق الموصلة إلى المدينة الحققة وترك العادات العقيمة الداعية إلى التآخر التي يقول فيها الباحثون عن أسرار تأخر الأمم الشرقية إنها العقبات الحائلة دون وصول هذه الأمم إلى درجة التقدم العظيمة التي وصلت إليها الأمم الغربية .

حاشا لله أن تكون تلك سببى وأنا العظيم الحب لبلادى ولكافة الشرق ولكن كثرة سياحاتى واختلاطى بالشعوب الراقية وغيرها وبحيى الدقيق فى عاداتها جعلنى أميز بين النافع والضار منها وطالما سمعت من المتعديين الشكوى المترة من عادات نحن نسرع إلى العمل بها تشبهاً بهم ولا نعلم نتائجها ولا إلى أين هى تسوقنا .

أترك هذا البحث الجليل الفائدة لحضرات علمائنا الأفاضل راجيا منهم أن يوجهوا عنايتهم إليه عساهم يوقفون إلى أنجيح الأدوية لعلاج هذا المرض العضال الذى أخشى كثيرا عواقبه غير أنى أوجه أنظار القراء إلى عادة كان الشرقيون يتبعونها وكانت من أعظم وسائل نجاحهم .

إننا كما في الزمن السابق نعيش عيشة الخشونة بعيدين عن الانغماس في الترف ننفق ما يزيد عن حاجتنا الضرورية فيما يعود على الأمة بالفائدة العامة فلا الزخارف كانت تؤثر فينا ولا حب الظهور الكاذب كما تميل إليه . لانعمل الا ما يجعلنا أمام غيرنا من الأمم مهيين محترمين . كما نحافظ على آدابنا وأخلاقنا وعوائدنا الشرقية . فلنعد اذا الى ما يلائمنا منها وان رأينا في بعضها ما يسبب تأخرنا فلنتركه بعد مشاورة ذوى الرأى منا . إن المجال واسع جدا في هذا الموضوع وأرى أساسه الأخلاق فأسرعوا بإنجاء الأمة إلى طرق هذا الباب والله يوفقكم إلى خير الأعمال . نرجع الى رحلتنا فبعد أن تركنا هذه الأكواخ عدنا إلى الفندق وجلسنا في أحد طنوفها (فتراتنا) نتظر حضور السائحين الذين ذهبوا صباحا إلى أسفل المضيق ولما أتت الساعة الخامسة ونصف رأيتهم قادمين وجوههم محترقة من أشعة الشمس وتظهر عليهم جميعا علامات التعب الشديد وفي الساعة السادسة والربع ابتدأنا نتناول عشاءنا وما أتت الساعة السابعة والربع حتى كما أخرجنا أمتعتنا ودفعنا حسابنا . ثم بعد ذلك توكلنا على الله وذهبنا إلى المحطة فأذن لنا في الساعة السابعة والنصف أن نأخذ مكاننا في عربة القطار وقد كانت به عربتان للنوم احدهما تذهب الى

كاليفورنيا والأخرى إلى جهة الشرق وعربة ثالثة اعتيادية للذين يذهبون فقط إلى محطة ويليامس (Williams) التي فصلت عنها بعد ساعتين ونصف وقد كان القطار مزدحما جدا بالراكبين فتحرك بنا وتحلصنا والله الحمد من الجرانديكانيون الذي هو جميل وعظيم إلا أن بعده عن العالم وخطوه من حركة الحياة جعلاني أتصور اذ كنت فيه أنى لست في عالم الأحياء بل في مقابر زورها ونحن خاشعون ففسي ولو كانت لا تحب كثرة الضوضاء والحركة ولكنها لا تميل أبدا إلى هذا السكون المحزن . ابتداء الخادم الزنجي في إعداد أسرتنا وبعد الساعة الثامنة مساء أخذنا نضطجع عليها لعلنا ننام ونرتاح وقد رأيت في أول مرة على أحد الأسرة سيده وزوجها ولا أعلم كيف يتسنى لها أن يتاما مع راحة وهدوء في سرير واحد لم يكن معقدا الا لشخص واحد .

تركت هذا لها وصرت أعرض عيني متعمدا النوم ولكن من أين يأتي ذلك وأنا أفضل النوم على كرسي طويل على أن أنام على سرير البولمن (Pullman) فإن الإنسان لا يمكنه أن يرفد على أحد جنبه لأن كثرة التعاريج تسبب شدة الاهتزاز ووقوف القطار وقيامه دفعة واحدة يجعلان المسافر في فرع شديد وقد شرحت حالة هذه

القطارات قبلا وما كررتها إلا للاقية من عدم الراحة التي جعلتني أتألم وأشكو كثيرا منها وأخيرا وجدت خير طريقة للذى رماه الدهر وسافر في هذه القطارات الليلية أن ينام على ظهره أو على بطنه ويفرج رجليه بحيث يجعل إحداهما في حرف السرير والأخرى في الحرف الآخر كذلك يفعل بيديه في هذه الطريقة الوحيدة ربما يأمن السقوط المتظر في كل وقت وفي النهاية أمضينا ليلتنا وما طلع بفر يوم الجمعة (٢٤ مايو) حتى أسرعتا لارتداء ملابسنا . ولما أنت الساعة السابعة والربع وهو ميعاد تقديم الفطور في عربات الأكل ذهبنا لتأخذ قهوتنا ولكنا رجعنا على أعقابنا لأنه قيل لنا إننا الآن في الساعة السادسة والربع والزمن هنا يتأخر ساعة لأننا نسير جهة الغرب وبعد انتظارنا أربعين دقيقة عدنا ثانيا إلى عربة الأكل فوجدنا الممشى مكتظا بالسيدات فلم نجراً أن نزاحهن ونحترق صفوفهن فبقينا وراءهن إلى أن فتح الباب ودخلن ونحن وراءهن . ولما استقر بنا الجلوس ألقينا نظرة على الجهة التي نمر فيها فإذا هي صحراء عظيمة الاتساع شكلها مخزن خلخولي من السكان فلا يجدر بالسان أن يزعم أن جميع جهات كاليفورنيا جميلة فقد أنت الساعة التاسعة ونحن مازلنا نحترق صحارى قاحلة رملية بها صنوبر سوداء لا يرى الإنسان فيها شجرة واحدة زاوية بل كما نرى

بين وقت وآخر بعض حشائش طبيعية ذابلة أظن أنها لا تصلح إلا مراعى للعرز أما الماء فلم يكن له أثر هناك والمدن أو القرى قليلة جدًا .

بعد ذلك أخذ قطارنا ينجرق صحراء (Mojave) العظيمة وهي سهل مرتفع رملي بها بعض بحيرات ملحة .
سبق أن قلت إننا نسير جهة الغرب ولو وجه الإنسان نظره شمالا لرأى جبالا مرتفعة ولكنها بعيدة . -

وصل بنا القطار إلى محطة تدعى بغداد والقارى لا يستغرب هذا الاسم فإن الولايات المتحدة لسعتها العظيمة وكثرة مداتها استعير لبعضها أسماء أعظم بلاد الدنيا . وأخيرا وصلنا إلى محطة بارستاو (Barstow) فانقسم قطارنا إلى قسمين قسم يذهب إلى سان فرنسيسكو والقسم الآخر إلى لوس إنجلوس وقد علمنا أن بهذه البلدة كثيرا من المناجم ورأينا بها عددا عظيما من المداخن التي تدل على كثرة المصانع بها وبعد أن أمضينا بهذه المحطة عشرين دقيقة سار بنا القطار ببطء فابتدأنا ندخل في مضائق مكتنفة بالجبال وبعد ساعة عدنا إلى سهل عظيم الاتساع ولكن أرضه خصبة وبها كثير من أشجار البرتقال والقريز (توت أفرنجى) والكروم وأشجار فواكه أخرى وقد أعجبني

كثيرا تنسيق زراعة البرتقال فإن أشجاره كانت على خط واحد ومنفصلة بعضها عن بعض بمسافات عظيمة تمكن العربة من المسير بينها وذلك لتسهيل جنى ثمار البرتقال . أما الأراضي التي بها هذه الأشجار فقد رأينا الاعتناء بجرثها عظيما ولا يمكن أن يرى فيها الإنسان أثرا للشمس وقد جذب نظرنا طريقة رى هذه الأشجار فانها لا تسقى كما نعرف بعمل حفرة حول الشجرة مباشرة بل تسقى بمرور قناة صغيرة على بعد من الشجرة أى فى وسط المسافة التي بين الشجرتين وقد استفهنا عن السرى ذلك فعلنا أن هذه الأشجار لكبرها وامتداد جذورها لا تنفع من الماء إذا كان حول جذوعها مباشرة بل تنفع منه إذا كان بعيدا عنها إذ يكون قريبا من جذورها فهذه الطريقة تأخذ الشجرة ما يكفيها من الماء ولا يحصل لها ضرر أبدا ولا خوف عليها من الغرق

وصلنا إلى محطة سنت برناردينو (St. Bernardino) وهنا انقسم أيضا قطارنا إلى قسمين قسم يذهب إلى لوس إنجلوس بطريق (River side) والقسم الآخر يذهب إلى پاسادينا (Pasadena) وهي الجهة التي سنده إليها -

أما بلدة سنت برناردينو (St. Bernardino) فيبلغ عدد سكانها

ثمانية آلاف نسمة وهي تصدر كثيرا من أنواع القواكه وقد ألقينا
 نظرة عامة عليها فرأينا طرقها عظيمة ومتسعة وحسنة النظم ومغروسا
 في جوانبها أنواع كثيرة من النخيل وغيرها . ومنازلها جميلة ومحاطة
 بمحاطق ذات بهجة ولو أنها صغيرة ولكنها منظمة ومرتببة أما أنواع
 الزهور بها فحدث عنها ولا حرج فكلمنا وجه الإنسان نظره لا يرى
 إلا أنواع الورد وزهورا كثيرة أخرى مختلفة الشكل واللون بديعة
 جدا أسر الناظرين

أتى ميعاد الغداء فذهبنا الى عربة الأكل وأخذنا مكاننا ولما كنا
 في بلاد الزهور فقد تقدم شاب وصار يقدم إلى كل سائح قرنفلة
 جميلة وإلى كل سائحة باقة صغيرة أنيقة من الزهور بدون ثمن فصار
 كل واحد منا يتمتع نظره بهذه الزهور البديعة ويشم رائحة القرنفل
 العطرية ومن حين إلى آخر كنا نلقى نظرتنا فترى الخلاء المملوء بمزارع
 عظيمة لا يمكن الإنسان أن يضحجر من رؤيتها وكلمنا أنعم النظر فيها
 شعر بلذة وسرور في نفسه . هنا حقيقة الحياة الطيبة فإنا شعرنا
 بالفرق العظيم بين ما رأيناه وما نراه الآن وقد ذكرتُ إذ ذاك
 لإخواني أنني أفضل الجمال مع حركة الحياة على الجمال الذي يُحفظ
 بالسكون المحزن . بعد أن اتهبنا وأخذنا ما طاب لنا من الطعام عدنا

إلى عربتنا وصرنا نحترق مزارع كبيرة من أشجار الزيتون ولما وصلنا إلى جلاندورا (Glendora) رأينا بها أشجار الليمون بكثرة كذلك سان جابريل (San Gabriel) فلما شهِيرة بصيد أسماك البقلاء والمرجان وقد كان بجانب طريقنا طريق آخر زراعى عرضه يبلغ الأربعين مترا ومغطى بطبقة من القطران فأضينا نحو عشرين دقيقة ونحن نسير بجانب هذا الطريق ونحترق حدائق بها أنواع الليمون والبرتقال واليوسف أفندى إلى أن وصلنا إلى بلدة إساديننا (Pasadena) وقد كنا لاحظنا بين أشجار البرتقال فى ماشيتها أكواما من البرتقال الذى تلف بالخمونة ولا غرابة فى ذلك إذا عرف القارئ مقدار ما يصدر كل سنة من نوع البرتقال فقط من هذه الجهة فإنه يبلغ ٢,٥٠٠,٠٠٠ صندوق غير باقى القواكه الأخرى

قلت إننا وصلنا إلى إساديننا وهى مدينة يبلغ عدد سكانها اثنى عشر ألفا من النفوس وهى واقعة بسفح جبل فى وادٍ خصب جدا فنزلنا من عربتنا نحو الساعة الثانية بعد الظهر وذهبنا تَوًّا إلى فندق ماريلاند (Maryland) الواقعة فى أحسن شارع فى هذه المدينة وقد أعد لنا فيها غرف فاخرة فأخذنا نفض عنا الغبار ونصلح حالتنا وبعد ذلك نزلنا منها لنطلب إعداد سيارة لنذهب بها إلى داخل هذه المدينة

الجميلة لتمتع برؤية ترتيبها وحسن نظامها وقد كنا أرسلنا باقى أمتعتنا الثقيلة (الحقائب الكبيرة) إلى لوس إنجلوس على نية أننا لانهم بمدينة إسبانيا أكثر من ليلة ولكننا لما أعجبنا ظواهرها صممنا على أن نمكث بها أكثر من ذلك فسلمنا (حوافظ) هذا المتاع الثقيل ليواب الفندق ليقوم بما يجب لإرساله لنا ولم نلبث أن أفهمناه ما يزيد حتى أنت السيارة التى طلبنا إعدادها من قبل فركبنا فيها وسرنا فى وسط شوارع كلها عظيمة وجميلة لاندري أياها أجمل من غيره فهى كالحلقة لا يدري أين طرفاها والحق يقال إنها فى منتهى النظام وجمال العناية والنظافة وقد زرع فى جوانب هذه الشوارع المتسعة على أبعاد متساوية وفى صفوف مستقيمة أنواع من النخيل (Palmiers) ومن المانويليا (Magnolia) ومن أشجار الفلفل (Poivriers) ومن الكافور . أما منازلها فقد بلغت من الجمال غاية فإنتها كلها عبارة عن قبلا (Villa) وقد قدرنا اتساع هذه الشوارع بأربعين مترا وكلها مرصوفة بالمكادام مغطاة بطبقة من القار تجرى فى وسطها المركبات الكهربائية مملوءة بالركاب أما أرضها فمبلطة ونظيفة جدا والذي زاد إعجابنا بها أن جميع هذه المنازل لا يمدق بها أسوار ولا حواجز وبما أنها كلها محاطة بالحدائق البديعة فقد شبهنا مجموع هذه المدينة بمدينة واحدة عظيمة

محكمة النظام رائعة الجمال بها هذه المنازل اللطيفة المرتبة بذوق سليم
أما طقسها فلطيف أيضا ولم تشعر بدرجة الحرارة الزائدة كما كنا نتألم
منها في القطار قبل وصولنا إلى هذه المدينة التي أسميها مدينة الزهور
والرياحين -

هذا وقد أخذ سائق عربتنا يريتنا قبل كل شئ حديقة المسويوش
(Busch) الألمانية الأصل الذي توصل باجتهاده أن يكون من
أرباب الملايين ولما وصلنا إليها وجدنا الدخول فيها مباحا لعامة
الناس لغاية الساعة الخامسة والنصف مساء فدخلناها وأعجبنا نظامها
وشهدنا بأن صاحبها ذو ذوق سليم وهو في نظرنا من أكبر المغرمين
بحب الحدائق والمولعين بترتيبها وحسن تنسيقها وقد استفهمنا عن
أسباب شدة الاعتناء بهذه المدينة فعلينا السر في ذلك وهو أن أرباب
الثروة العظيمة الذين يشتغلون بمدينة (لوس إنجلوس) الواسعة التجارة
الكثيرة المصانع لم يجدوا فيها من الراحة ما يخفف عنهم متاعب
أعمالهم فجعلوها فقط مركز أشغالهم وجعلوا مدينة (سادينا) القريبة
من (لوس إنجلوس) مأواهم في أوقات راحتهم . فمدينة الزهور هي
مأوى الأغنياء فهم كثير والإقبال عليها وقد علمنا أيضا أن الشركات
هي التي وضعت نظامها الحللى اللطيف فإنها التي أنشأت بها المنازل

وأخذت تتأق في بنائها وتبنيها لدوى اليسار وقد اعتدت بترتيب شوارع هذه المدينة فتوجهت الأنظار إليها فترج إليها سكان البلاد المحاورة لها وفي زمن قليل وصلت إلى ماهي عليه الآن من حسن النظام . ولنعد ثانيا إلى ذكر حديقة المستر (بوش) تكلمتُ عن جمال هذه الحديقة وفتاني أن أقول إن بها نباتا ذا أزهار جميلة جدا لونها بنفسجي وقد يفتنون في إقامة الجيلاط الصناعية بها ويجعلونها معممة بهذه الزهور فيكون لها مناظر بديعة رائعة الجمال تتناد أعنة الحدق فتروا إليها أنظار السائحين وكلما زادوها نظرا زادتهم سرورا وإعجابا بها:

إذا ما زدتها نظرا ❁ يزيدك شكلها حسنا

فهذه الحديقة جمعت فأوعت فضلا عن كثرة جيلاطها البديعة بها أنواع من الورد لا تحصى أما أشجارها لحديث ولا حرج عن كثرتها واختلاف أنواعها وقد شيد صاحبها فيها منزلا نفخا له وبجانبه منزلين أحدهما لابنه والآخر لابنته وأجملها في نظري منزل الأخت تركا هذه الحديقة وذهب بنا سائق سيارتنا إلى حي من أحياء المدينة يطلق عليه (سويسرا الصغيرة) وذلك لأن منازلها مشيدة على الطراز السويسري وبعد ذلك صعد بنا إلى ربوة بنى عليها فندق

كبير وهي مقفلة الآن لأنها تغلق أبوابها في هذا الفصل لعدم كثرة وفود السائحين إليها فأمكننا أن نرى من هذه الراوة المدينة بشوارعها العظيمة المنظمة وأشجارها المغروسة بترتيب بديع وزهورها المنتشرة في حدائقها البديعة فأعجبنا جدًا رؤية هذا المنظر البديع لاسيما أطراف المدينة والقضاء الواسع الذي يحيط بها ثم سار بنا إلى بناء شاهق مهجور ذي خمس طبقات وأصله دير مشيد على الطراز الاسباني وقد عرفنا أن في كاليفورنيا كثيرا من أمثال هذا الدير وأغلبها اشترته الشركات لجعله فنادق ولما رأى مديرو هذه الفنادق أن الإقبال عليها عظيم أخذوا في بناء فنادق على شكل الأديرة الاسبانية ولكن هذا الفندق الذي نحن به الآن لم يتم بناؤه لفناد الأموال من أيدي القائمين به فأوقف العمل فيه مع أنه لم يبق لإتمامه إلا قليل من العمل ولكن تفتى بمهارة الأمريكيين في اتخاذ الطرق التي يسلكونها للحصول على الأموال تجعلني على يقين من أن أصحاب هذا الفندق لا يعدمون من يعينهم على إتمامه فيفتح أبوابه في السنة الآتية وينال شهرة كبيرة . وبعد أن تفقدناه خرجنا وسرنا بجوار أملاك المستر (هامنتجتون) وقد علمنا أنه المنشئ لجميع خطوط المركبات الكهربية في مدينة لوس إنجلوس وضواحيها والذي

يدل على مقدار ثروته العظيمة أنه شيد منزلا خصوصا له أتفق عليه مليون دولار وقد حُفَّ هذا المنزل بمجديقة مساحتها ٨٠ هكتارا ولا تسل عن باقي ممتلكاته الواسعة في المدينة فإننا رأينا من بينها أرضا واسعة قسمها إلى شوارع منتظمة وشرع يبنى فيها منازل صغيرة لبيعها لمن يريد وقد سألتنا هل يتيسر لنا زيارة قصره وحديقته فعلمنا أن الدخول فيه غير مباح للعامه فاستمرنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى قصر المئري العظيم الطائر الصيت المستر وكفطر فوجدناه تقفا وجميلا ولكنا علمنا أنه لا يسكنه الآن فنظرناه على بُعد ثم مشينا فمررنا على مدرسة التجارة ومنها إلى (السيورتج جراوند) الذي يلعب فيه جميع أنواع الألعاب الرياضية (كالپولو) وغيره خصوصا في أيام السبت والأحد ولما قربت الساعة السادسة والنصف صممتا على أن نعود إلى الفندق فأمرنا السائق أن يذهب بنا إليه وقد صادفنا في طريقنا عددا كثيرا جدا من السيارات ولا عجب فإن سكان المدينة أصحاب ثروة واسعة وشوارعها تامة النظام عظيمة الاتساع فيسهل عليهم اقتناء هذه السيارات وكثرة ركوبها

أما عدد الكائنس التي مررنا عليها أثناء سيرتنا فعظيم وأظن أن في هذه المدينة ما لا يقل عن ثلاثين كنيسة .

وصلنا إلى اليندق وأسرعنا لتناول عشاءنا وبعد ذلك ذهبنا لتستريح من عناء السفر ومشاقه ولما أصبح الصباح (يوم السبت ٢٥ مايو) رأينا الجوع عابسا والسماء متلبدة بالغيوم فلم يمنعا انهمار الأمطار عن الخروج فارتدينا معاطفنا الواقية من المطر (ماكينتوش) وأخذنا مطرياتنا وتوكلنا على الله وسرنا في المدينة راجلين لئراها على مهل ولم نعد من جولتنا هذه إلا نحو الساعة الحادية عشرة فبعثنا في طلب سيارة لنذهب بنا إلى مدينة (لوس إنجلوس) التي يباهل كوك لتبحث عن رسائلنا وفي الساعة الثانية والنصف أتت السيارة فركبنا فيها وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى هذه المدينة ولما كانت الأمطار لا تزال منهمة لم نستطع أن تقطع المسافة بين بسادينا ولوس انجلوس إلا في ٤٥ دقيقة مع أن المعتاد أن تُقطع في نصف ساعة وذلك لأن الطريق صار كله مزاحج ولم نزد أن ندرع اتقاء الخطر ولكن سيرنا البطيء جعلنا نتمتع بمناظر جميلة وقد كان الطريق الذي نسير فيه على أتم نظام وأكمل نظافة وكانت المركبات الكهربائية تجرى في وسطه بسرعتها العظيمة التي تفوق سرعة ترام مصر الحديدية وكأ أننا وجهنا أنظارنا لانرى إلا مزارع واسعة تنضرة حلت لنا هذه الاستراحة ولم نشعر فيها بملل إلى أن وصلنا إلى مدخل مدينة لوس إنجلوس فلم يعجبنا نظام

لاحتوائه على منازل صغيرة جدًا أغلبها أكواخ تسكنها فقراء العمال وبعد أن احترقنا هذا المكان وصلنا إلى شارع عظيم جدًا اسمه برودوي (Broadway) لا يقل عدد منازله وحوانيته عن الألف وقد رأينا في هذا الشارع جميع أنواع البشر من صينيين ويابانيين وميكسيكيين وهنود أمريكيين وغيرهم ولم نر مصريا واحدا غيرنا ولا تركيا فكأننا بمرورنا في هذه اللحظة جعلنا حظا للصيرين في الاشتراك مع جميع هذه الأجناس في هذا الشارع المختلط ومع كثرة هذا الزحام صرنا ننعّم النظر فيما حولنا لنقف على أحوال هذه المدينة العظيمة وقد دلّتنا تلك الحركة العظيمة التي بها على أنها مدينة صناعية تجارية وبها كثير من معامل البيرة وغيرها .

لا بد أن الحال التجارية في مثل هذه المدن كثيرة البيع والربح لكثرة السكان بها ولاحتياج هذا العدد العظيم من المخلوقات لمطالب الحياة من ضرورة وكألية . إن مدينة لوس انجلوس هي عاصمة كاليفورنيا الجنوبية ونهرها الصغير الذي يسمى باسمها يتحركها ويصب في المحيط (Pacifique) على مسافة قليلة وهذه المدينة أنشأها سنة ١٧٨١ الإسبانيون ثم سقطت في أيدي الأمريكيين في سنة ١٨٤٦ ولم تكن إذ ذاك شيئا مذكورا فإن عدد سكانها كان لا يزيد في سنة ١٨٥٠

عن الألفين ولكن أخذ هذا العدد يزداد في سنة ١٨٨٠ إلى أن وصل إلى الخمسين ألفا أما الآن فعددها يربو عن ٢٨٠٠٠٠ وقد علمنا أن بها ١٣٠ كنيسة و ١٧٠٠ مصنع ودخلها يزيد عن الثلاثين مليون دولار في السنة الواحدة والذي يدل على أن سكانها من أجناس مختلفة عدد جرائدها العظيمة التي تكتب بسبع لغات مختلفة وليل سكانها إلى التشبه بأهل مدن أمريكا الكبيرة أقاموا المباني الفخمة الشاحمة الكثيرة الطبقات (Gratte Ciel) وبالجملة هذه المدينة هي مركز الخطوط الحديدية ومنها ترسل الفواكه إلى سائر أنحاء أمريكا وذلك بلقودة تربة أرضها ولإتقان طرائق الري الصناعية بها وقد ذكر لي أنها ترسل من أنواع الفواكه ما يزيد قيمته عن الثلاثة عشر مليون دولار ولا عجب لأننا رأينا في مزارعها المترامية الأطراف كثيرا من كروم العنب وأشجار البرتقال والليمون والزيتون وغيرها .

وصلنا إلى محل كوك فوجدناه مجاور الفندق اليكسندر يا (Alexandria) الشهير فدخلنا فيه وتسلمنا منه رسائلنا الكثيرة فما كان أعظم سرورنا إننا نَحْنُ إلى بلادنا ونشتاق إلى معرفة أخبارها وتنسم أحوال أقرابنا وأصدقائنا وجدربنا ذلك لبعث الشقة بيننا وبين أوطاننا إذ أننا

في الطرف الآخر من الدنيا وحسبنا دليلا على تنأى ديارنا أن وقت النهار هنا هو وقت الليل بمصر فنحن إذا قرأ أخبارهم ونسبر في هذه الأراضي الواسعة بيننا سكان مصر يتلذذون براحة النوم .

تركنا هذا المحل وسرنا في شارع ماين استريت (Main Street) الذي يمتد وسط المدينة فرأينا فيه مباني شاهقة أعظمها بناء البريد العام ومنه مررنا على جملة شوارع أخرى رأينا فيها مركز المحافظة ونادي (كلوب) السيدات والغرفة التجارية ومدرسة المعلمين وغيرها . أما في شمال المدينة فقد رأينا حيا أهلا بالصينيين وبالجملة لم ترك مزارا يذكرك حتى زرتاه وقد وصلنا إلى متزه علم يبعد عن المدينة بمسافة ميل به بحيرة صغيرة وبجواره مساكن الأغنياء الذين جعلوا مدينتهم تحاكي شوارع مدينة إسبانيا في نظامها وغرس أنواع النخيل على جانبيها وجعل كل منزل يحيط به حديقة بدعة بها أنواع الزهور المختلفة الألوان والأشكال وبعد ذلك عدنا إلى داخل مدينة (لوس انجلوس) فوصلنا إلى ساحة عامة بها حديقة صغيرة في وسطها تمثال صغير وبجانبه مدفع أخذ من الإسبانين وفي هذه الساعة انقطعت الأمطار التي كانت تضايقنا من وقت خروجنا من الفندق وذهبت براحتنا ولم نستطع معها أن نشاهد بدعة كما نشاء كل ما وصفته . ولما كان عندنا

مقنع من الوقت أخذنا طريقا آخر للعودة أوصلنا إلى حديقة جريفت پارك (Griffith Park) ومساحتها ١٢٠٠ هكتار وبها محل سابق قاسترنا فيها أيضا وبعد ذلك استمرنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى الخلاء والمزارع فصرنا نرى بعض رباوات مكسوة بالزهور الطبيعية الصفراء ومن بديع جمالها ونظامها لا يحسبها الإنسان طبيعة ثم مررنا على قرية صغيرة لا تبعد كثيرا عن مدينة پسادينا تدعى الحمراء (Alhambra) وهي على صغرها جميلة أيضا تشبه پسادينا في نظام شوارعها ومساكنها وقد رأينا على جانبي شوارعها أشجار الكافور وغيره فاخرة أيضا هذه القرية وبعد أن جاوزناها صرنا نسير في وسط أشجار البرتقال المورقة التي كانت تبعث منها الروائح العظمية وما زلنا على هذه الحالة في مجبوحة هذا النعم إلى أن وصلنا إلى بلدة پسادينا ووقفنا بنا سيارتنا أمام الفندق في الساعة الخامسة والنصف مساء وبعد ذلك أردت أن أرى الحدائق التي تربي فيها النباتات والأشجار لبيعها فذهبت إلى بستاني لعلى أجد أشجارا نادرة أشترتها وأرسلها إلى مصر ولكني علمت أن دون ذلك صعوبات كثيرة منها أنه قبل نقل تلك الأشجار إلى بلاد أخرى لابد من البحث فيها بواسطة لجنة لتعرف أهي سليمة حتى يؤذن بنقلها ثم عند وصولها

إلى أوروبا لا بد من إعادة هذا الكشف فانصرفت عنى هذه النية
 لاسميا أن كل شئ في أوروبا وطرق النقل منها أسهل وأقرب من
 أمريكا وإن كنت قد علمت أن في هذه الجهات نوعا من الجوافة
 منجبا يقال إنه أحسن من النوع الذى عندنا في مصر بذوره صغيرة
 وقليلة ولكن لم أر أن أشتري شيئا من هذه الأشجار إذ لا قيمة لها
 تستحق ذلك . هذا كل ما وصلنا إليه في يومنا

ولما أصبح يوم الأحد (٢٦ مايو) وأردنا أن نفطر علينا أن الفطور
 لا يقدم قبل الساعة الثامنة صباحا أما الغداء فإنه لا يكون قبل الساعة
 الأولى بعد الظهر أى بعد انتهاء الصلوات . وهل يدل ذلك على
 حرص الأمريكيين على دينهم والعمل به ! فخرجنا للاستراحة قليلا
 في شارع الفندق ودخلنا في محل تجارى لأشتري منه بعض كارت
 پوستال ثم دخلنا إلى محل آخر لشراء شئ من الحلوى فوجدنا أن صاحبه
 صربى وبعد ذلك صرنا نمشى رويدا رويدا ونحن نتمتع برؤية الزهور
 والأشجار المنغروسة أمام كل منزل وهكذا صرنا نتنقل من مكان إلى
 آخر حتى نهاية شارع الفندق ثم عدنا إليه لأكتب في رحلتى ولما أتت
 الساعة لواحدة ذهبنا لتناول الغداء وقد كنت أوصيت أن تعد لنا
 سياره في الساعة الثانية والنصف لنذهب إلى شاطئ البحر لرؤية

(سنتامونيكا (Santa Monica) وادسيان پارك (Ocean Park) وڤينيسيا (Venise) وكلها متجاورة فلما حل الميعاد أتت السيارة فركبتها وسارت بنا في طريق آخر غير الطريق الذي ذهبنا منه إلى (لوس انجلوس) فصرنا نمرين حقول متسعة مزروعة قحما وغيره ثم مررنا على عتة قرى صغيرة لا يبعد بعضها عن بعض كثيرا وكل طرفاتها منظمة والذي ألفت نظرنا أننا لم نمر على قرية إلا ورأينا بها مدرسة مشيدة تشيدا جميلا ماعدا بعض تلك القرى . وفي أمريكا لا ينجون أن يسموا بلادهم الصغيرة قرى بل يسمونها كلهم مدن كما ذكرت ذلك قبلا مخافة أن يغضبوا سكانها وقد تغالوا في ذلك حتى إن القرية الصغيرة التي لا تحتوى على أكثر من عشرة منازل يسمونها أيضا مدينة وتلك عادة خاصة بهم فلا توجد في جميع أنحاء الدنيا . وقد صادفنا في طريقنا كثيرا من السيارات حتى خيل إلينا أن كل فرد من سكان هذه الجهة له سيارة خاصة به وقد سمعت أن جميع هذه الطرقات المرصوفة بالميكادام المغطاة بالقطران أنفق عليها في ذلك مليونان ونصف دولار وهذا ما يدل على عظم ثروة سكان هذه الجهات وقد شهدنا أن نظام هذه الطرقات قد لا يعادا نظام آخر في جميع أنحاء العالم فإن الإنسان يمكنه أن يقضى طول يومه يتنزه بسيارته و يعود بدون أن يتأذى من التراب أو من عدم تمهيد الطريق

نخرجنا من وسط هذه الحقول وتركنا هذه القرى أو المدائن ووصلنا إلى سهل متسع فابتننا أن هب علينا نسيم البحر العليل فشعرنا بقرينا من البحر ثم ألقنا نظرتنا وجود مثلث من أعمدة حديدية في وسط هذا السهل كالأبراج قائمة على أبعاد مختلفة بعضها من بعض ومثورة بدون نظام فسالنا عنها سائق سيارتنا فأخبرنا أنها مقامة فوق آبار البترول فمررنا بجانب بعضها وقد عرفنا أن ثلاث شركات تستغل هنا في استخراج هذا الزيت وهو كثير الوجود في هذا السهل وقد فضحت آبار كثيرة فيه أما المضخات المستعملة لاستخراج هذا الزيت فإنها لا تسرع في حركتها وقد قيل لنا إن بعض هذه الآبار يستخرج منه الزيت بالمضخات ليلا ونهارا وذلك لغزارة الزيت فيها وبعضها الآخر لا يستخرج زيتة إلا نهارا ويترك ليلا ليجم زيتة وقد يوجد منها ما لا تعمل فيه المضخات يوما من كل ثلاثة أيام وحول هذه الآبار يزرع القمح فكان أصحاب هذه الأراضي لا يريدون أن يكتفوا بما تخرجه إليهم أرضهم من ثروة منابع البترول بل يكتسبون من جوفها ومن سطحها . أما العمال الذين رأيناهم يشتغلون في منابع البترول فيظهر عليهم الفقر ولا تسئل عن سوء حالتهم فإنهم في غاية القذارة . وهنا في أمريكا كافة عمال المناجم ونباع البترول يشتغلون ليلا ونهارا وليس

لم في يوم الأحد راحة - وبعد أن قطعنا نحو خمسة عشر كيلو مترا وصلنا إلى قرب بلدة (سنتا مونيكا) فمررنا أولاً على بناء شاهق بديع النظام تكتفه من سائر جهاته حديقة واسعة وقد علمنا أنه معد للذين أصيبوا في الحروب وأصبحوا لاقدرة لهم على العمل ولما كان طريقنا يخرق هذه الحديقة ابتداءً سائق سيارتنا يسير فيها ببطء وذلك على حسب الأوامر فكان نرى على جانبي الطريق شيوخا جالسين وأمامهم منضدات (تراييزات) وكلهم مرتدون ملابس مخصوصة لهم متحدة الشكل وتصدح الموسيقى في أيام مخصوصة في (كشك) في وسط حديقةهم حتى لا يعترضهم شجر من معيشتهم أما هؤلاء الشيوخ فهم *Les invalides de la guerre de Cessionion* التابعون لجيش الشمال أما التابعون لجيش الجنوب فلهم ملجأ آخر .

بعد أن تركنا هذا الملجأ دخلنا في بلدة سنتامونيكا فأول شيء اجتذب أنظارنا أشجارها الدابلة ومنازلها التي تعد في المنزلة الثانية بالنسبة لما رأيناه من المنازل في بلادنا مثلاً أما ساحلها فحالته أيضاً لا تسر كثيراً رغماً من كثرة الحمامات التي به والقهاوى والملاعب وغيرها مما أعد للهو وقد علمنا أن هواء البحر هو الذي ذهب بنضرة هذه الأشجار وغير الألوان الظاهرة لتلك المنازل فلم تنبسط نفوسنا من رؤية هذه البلدة

التي تقبض مناظرها النفوس لاسيما أن النظافة قد عادتْها وبعد أن
تفقدنا حالتها دخلنا بين منازل صغيرة مصنوعة من الخشب ومتجاورة
في صفوف منظمة كأنها خيام معسكر أما الطريق الذي كنا نمشي فيه
فكان ضيقا جدا وقد علمنا أن هذه الأكواخ تؤجر للذين يريدون أن
يمضوا فصل الحمامات في هذه البلدة فيسكنون فيها وعند ما يريدون
الاستحمام يخلعون ملابسهم ويرتدون ملابس الحمام و يخرجون منها
إلى البحر ولا يعجب القارىء من ذلك فان الصور التي رأيتها في بعض
كارت پوستال هذه البلدة أكدت لي أن الخروج في طرقات هذه
البلدة بملابس الحمام مباح ولا ينكره أحد فتصوّر عاقبة هذا الأمر
وأظن أن الشبان الجميلي الحلقة الأقوياء البنية لا يتركون هذه الفرصة
تتمردون أن يعرضوا جمالهم على الذين يهجمهم ذلك أما الغايات
فأظنهن أيضا لا يجنلن على المغرمين بالجمال أن ينظر واليهن ولو بطرف
خفي للتمتع بخلفتهم البديعة . هذا وقد علمنا أن الساكنين في هذه
البلدة لا يزور قلوبهم ملل لوجود كل ما يسر ويبعد الحزن فكل
لا يعدم ما يوافق هواه ويلانم مشتاه من كل جنس . وقد يأتي إليها
سكان مدينة لوس الجلوس التي لا تبعد عنها بأكثر من خمس عشرة
دقيقة وأغلبهم من الطائفة الوسطى للتمتع بما فيبأ وقد مررنا على

مكان مثل وادي القمر (Luna Park) رأينا فيه جمعا محتشدا عدده كبير جدا تغيل إلينا أننا أمام قرية نمل أهلة بسكانها الذين لا يعلم عددهم الا الله فالتفت إلينا سائق سيارتنا وقال هل تريدون النزول هنا فشكرته قائلا إن اليوم يوم أحد ولا أريد أن أعرض نفسي لمزاحمة لا فائدة منها وربما يصيبنا شيء من بعض من لعبت برؤسهم الراح خصوصا وانى أرى على وجوه بعض السابلة ما يجعلنى أشمئز من منظرهم وأظن أن مثل هؤلاء الأشخاص لا يؤد الا انسان رؤيتهم فى مكان متقطع أو فى ظلام ليل حالك فاستمررتنا فى طريقنا لأننا صممنا على أن نعود من طريق (لوس انجلوس) وقد قابلنا سيارات كثيرة مكنتزة بالركاب وانى آسف لعدم إحصائها حيث إنى لم أفكر فى ذلك إلا بعد أن مر منها أمامنا عدد كبير وقد صادفنا فى طريقنا ثملا لعبت برأسه الخمر يركب دراجة (Perolette) ويمشى متخبطا وقد ذهب شعوره فتارة ينعطف ذات اليمين وأخرى ذات الشمال وهو كمن به مس من الجن فلم أدر كيف يترك مثل هذا على هذه الحالة الخطرة على نفسه وعلى غيره فى وسط زحام هائل فرجعت وتذكرت ما يقوله السكيرون إن لهم إلهة خاصة بهم يحافظ على حياتهم وقت ما يفقدون رشدهم . هذا وقد علمنا أن فى أمريكا كل شخص يمكنه أن يكون سائقا لسيارة بدون

امتحان في صنعتته وليس عليه الا أن يدفع دولارين فيبيع له دفعهما أن يكون سائق سيارة ولذا رأينا سيدات وبنات وأطفالا يسوقونها وليس لأحد أن يعارض في ذلك .

وصلنا إلى لوس انجلوس ودخلنا في أحد شوارعها المدعو ويست ادامس (West Adam's) وهو من أكبر شوارعها وأعظمها به منازل نفحة محاطة بالحدائق الغناء يسكنها أصحاب الملايين من الذهب فاستمررتنا في طول هذا الشارع الكبير ولم تقابل كثيرا من المخلوقات وقد كادت المدينة أن تكون خالية لأنه في يوم الأحد يخرج سكانها منها إلى الحدائق والرياض والبلاد المجاورة لاستنشاق الهواء وتغيير المناظر . وبعد أن انتهينا من هذا الشارع خرجنا إلى الطريق الموصل إلى بسادينا ووصلنا إليها في نحو الساعة السادسة والنصف مساء فسررتنا من رياضتنا هذه لاسيما ان الجو كان معتدلا والهواء عليلًا فاتمى بذلك يومنا .

أصبحنا في يوم الاثنين (٢٧ مايو) فلم نعمل شيئا يذكر قبل الظهر الا كتابة بعض رسائل لأقاربنا وأصدقائنا واستراحة صغيرة على الأقدام داخل البلدة وفي الساعة الثانية وخمس دقائق بعد الظهر ركبنا ومعنى مصطفي بك الترام الذي يقف أمام باب فندقنا

للذهاب إلى لوس انجلوس وقد كان يمشى بسرعة عظيمة جدًا فقطعنا المسافة اليها في ٣٠ دقيقة ولكن دخول هذه البلدة بطريق الترام لا يسر كثيرا فانه يمر أمام أكواخ المكسيكيين القذرة فنزلنا منه في الشارع الخامس ومشيئا قليلا الى أن وصلنا أمام فندق الكسندريا فذهبنا إلى محل كوك الحياور لهذا الفندق وتسلمنا رسائلنا ثم أخذنا في طلب سيارة لتذهب بنا الى مكان يبعد عن هذه المدينة بساعتين تربى فيه أنواع الحمام به ١٥٠٠٠٠ حمامة على ما قيل لنا فعامل كوك أحضرها لنا وانفق مع السائق على أجر مقسده ثلاثة دولارات ونصف في الساعة فركبناها ولما خرجنا من المدينة سرنا وبحرى نهر الى أن وصلنا الى باب كبير مكتوب على لوحة معلقة عليه (أكبر محل لتربية الحمام في العالم) فلم نستغرب ذلك أيضا لأننا تعودنا أن نقرأ : (أكبر محل في العالم أو أجمل محل في العالم) كثيرا وقد ذكرت قبلا أن هذه الطريقة متبعة في أمريكا لجلب أنظار السائحين وتسويقهم الى الدخول في هذه الاماكن وقد كانت نغزنا أيضا هذه الطريقة لأننا كما نقول ربما يصدق القدم ولو مرة واحدة فنحظى بالدخول في أكبر أو أجمل محل في العالم فدفعنا رسم الدخول وهو ٢٥ سنس أى خمسة قروش عن كل شخص ودخلنا في هذا المكان فوجدنا أن

عدد الحمام به كثير جدًا ولكن العدد ١٥٠٠٠٠ حمامة يبلغ فيه كثيرا وقد قدره مصطفي بك من عشرة آلاف الى عشرين ألف حمامة فقط أما أنا فقدترته بأكثر من ذلك ولكن الفرق عظيم بين تقديرى وزعم أصحابه فألقينا نظرة عامة على هذه الأسراب من الطيور وقد عرفنا أنه يباع كل سنة من زبله مقدار بمئتين عظيم ويصدر من فراخه كثير الى جهات مختلفة وبعد ذلك نخرجنا وسار بنا سائق السيارة فى جميع الطرق الجميلة الى أنت وصلنا الى منتزه كبير كان فى الأصل معسكر جيش الأمريكين قبل أن يستولوا على مدينة لوس انجلوس وياخذوها من أيدي الاسپانيين وهذه الحديقة لم يتم نظامها الى الآن ولكنها عما قليل ستصير جميلة وتستحق الزيارة والرياضة فيها بفضل العناية العظيمة بها

تركنا هذا المنتزه وتابعنا سيرنا وصرنا ننتقل من شارع الى شارع فى لوس انجلوس الى أنت وصلنا الى الترام الذى يوصلنا الى سادينا ولما أردت انتظاره قال لى سائق العربة الرأى عندى أن تذهبوا الى المحطة العامة للتراموايات فانكم اذا انتظرتم فى هذا المكان لا تجدون محلا لكم فى الترام لكثرة الزحام لاسميا ان هذا وقت خروج العملة من البيوت التجارية ومن المصانع وقد شاهدنا ذلك بأعيننا فان الترام الذى

مرّ أمامنا كان مملوءا والناس بعضهم فوق بعض ولكن هذا لم يمنعنا أن نركب نحن أيضا مع الراكين في هذا الترام ولكن اضطررنا أن نقف على السلم حتى لا يضايقنا التصاق الناس بعضهم ببعض في هذا الزحام الشديد ومع ذلك لم نسلم من وقوف بعضهم على أحيدينا دون أن يعتذر عما فعله اذ يظن أن هذا شئ طبيعيّ وحق مكتسب لا يؤاخذ على فعله . وكلما نزل من العربة واحد صعده اليها عشرة حتى إن ثمانى فتيات صعدن إلى العربة مع هذا الزحام الشديد وصرن يضحكن وكلما وقف الترام يرتجمن تارة ويمايلن أخرى وأظن أن مثل ذلك كان يخفف على الراكب وطأة هذا الزحام . وصلنا الى سادينا ولكن على أىّ حالة ؟ على حالة تعب شديد فشعرت بألم شديد في قدميّ لأنني كنت طول الوقت واقفا على حذر من أن أقع على أحد الراكب أو أن أصطدم معه وهذا الذي زاد في تعبي وقد شكنا إلى أيضا مصطفى بك قائلا إنه لم يلاق عناء مثل الذي لاقاه في هذا اليوم العصيب فترنا وندوصلنا إلى الفندق جلسنا للاستراحة قليلا . وهنا يجب أن أذكر شيئا لاحظته وهو أننا رأينا كثيرا من السيدات والفتيات يركبن الدراجات البخارية (الموتوسيكلية) (Motorcycle) ووراءهن أحد الشبان أو الرجال ويا ليت هؤلاء الرجال أو الشبان كانوا يركبون في العربة

الصغيرة التي تتخذ عادة في أوروبا وراء الدراجة البخارية أو بجانبها ولكنهم يركبون وراء السيدات أو الفتيات ولا بد أنهم يضطرون في بعض الأحيان الى الالتصاق بهن فأنكرت ذلك منهن خصوصا أني أعتقد أن في ركوب السيدات مثل هذه الدراجات ضررا على صحتهن وكفى أنهن يركبن على كرسي صغير جدا وكلما تحركت الدراجة حركة تأثرت الراكبة باهتزازات هذا الكرسي الصغير وأظن أن ركوبها أضر على الفتيات منه على السيدات وقد نبههن بعض عقلاء الأمة الى هذه المضار بالحسمة فلم تصادف نصيحتهم هوى في الفؤاد لأنهن يردن التمتع وربما كان في ذلك ما يزيدهن سرورا ومن الصعب كفتهن عن أحب شيء اليهن . أسرعتا في تناول العشاء وبعده افترقنا لتستريح من عناء هذا اليوم . وفي صباح يوم الثلاثاء (٢٨) مايو ذهبت إلى محل مصور كنت أعطيته بعض أصول (Films) لاطهارها وفيها بعض مناظر كنت صورتها بمصوّرى الشمسى ولكنى أسفت اذ علمت أن هذه المناظر قد أقلت من آلة التصوير فلم تنجح في اقتناصها وبعده ذلك أنفذت في طلب سيارة لنذهب بها الى بلدة ريفرسيد (Riversid) وقد كنا صممتا على أن نمكث بها يومين ولكن لقربها من إسادينا فضلت أن نسكن في الأخيرة مدينة الزهور ونذهب الى الأولى في أى وقت نريده على السيارة

في الساعة العاشرة صباحا وقتت السيارة أمام باب الفندق فركبناها
وسرنا الى ريفرسيد التي لانصل اليها الا بعد ثلاث ساعات فكان
أول طريقنا جميلا جدًا لأننا كنا نمشى بين أشجار البرتقال والليمون
وكانت الروائح العطرية تحيي أفئدتنا وأحيانا كنا نمشى وسط طريق
محفوف من جانبيه بأشجار كبيرة من الكافور أو من (الكازوارينا)
وكان نمشى بجوار الطريق الحديدى الذى ذهبنا منه الى سنابرتاردينو
(St. Bernardino) ولكنا قبل أن نصل إلى هذه البلدة بمقدار خمسة
عشر ميلا مشينا في طريق آثر على اليمين لايسرك أن تسلكه فكله
رمل يحاطه تراب ثائر فعلانا من الغبار شئ كثير وكان نرى على بعد
بعض كروم عنب فاستمرنا على ذلك ونحن نمر أيضا على مصانع كثيرة
لعمل النبيذ وغيره من المشروبات الروحية . فابتدأنا نتألم من هذه
الحالة لا سيما أن الحركان شديدا جدًا بالرغم من سرعة السيارة حتى
إنه أثر في وجوهنا فتغيرت ألوانها حتى صارت حمراء وما زلنا على هذا
الحال إلى أن دخلنا في وسط سهل عظيم ثم قربنا من بعض روابى
صغيرة إلى أن وصلنا إلى نهر صغير أوشك أن يفيض ماؤه فررنا عليه
وبعد ذلك أخبرنا سائق السيارة أنه لم يبق لنا الا خمسة أميال
للوصول الى ريفرسيد . هنا رأينا ثانيا مزارع الفواكه كالبرتقال وغيره

وقد علمنا أن الفواكه التي تخرج من هذا الوادي أحلى من غيرها وتنضج قبل فاكهة سائر الجهات الأخرى بأربعة أسابيع . قربنا جدًا من المدينة وصرنا نسير في طريق صالح قد غرس على جانبيه أنواع النخيل وهو أيضاً مرصوف بالميكادام ومغطى بطبقة من القطران . وصلنا إلى فندق جلينود (Glenwood) في الساعة ١٢ و ٣٠ دقيقة وكان أمام أبوابها كثير من السيارات وذلك لكثرة الوافدين عليه وهو في الحقيقة يستحق الإعجاب به لأنه دير قديم إسباني فنزلنا من سيارتنا ودخلنا فيه فوجدنا في حديثه وفي طنوفه كثيراً من الزائرين اختاروا هذه الأمكنة ليروا الوافدين على هذا الفندق وقد أتى ميعاد الغداء فابتدأنا أولاً بتناوله في البهو المعد لذلك وهو حجرة بها كثير من الأعمدة القائمة في ساحتها ومعلق على حيطانها جملة من الرماح والحراب وغيرها من كل ما يذكر بتاريخ الأزمنة الوسطى فاحترنا مائدة ثم أقبلت اليانا رئيسة الخدم وأخبرتنا أن من قانون هذا الفندق دفع الثمن قبل تقديم الطعام للذين لا يسكنون به فدفعنا عن كل شخص دولاراً وهي القيمة المقررة أما الطعام فيقدم لكل الآكلين سواء وهو عذة أصناف يقدم من كل صنف شيء قليل جداً ويأتيها مع ذلك طيبة فانها لا تؤكل الا اضطراراً فنذكرت رحلتى ببلاد اليابان حيث

كان يقدم لنا كثير من أنواع الأطعمة ولكن الذى يقدم من كل صنف قليل جدًا فكأ نحسبها (عينة) لنختار بعد أن نذوقها مانشاء . وقد ينطبق مثل بعض الجرائد الألمانية الهزلية على حالتنا فى هذا الفندق فقد رأيت يوما فى جريدة من هذه الجرائد صورة رجل ويده منظر معظم ينظر فى صحفته (طبقه) لعله يجد ملبا من الطعام فهكذا كا والحمد لله . أما حجرة الطعام فكانت مكتظة بالخلوقات وبعد أن أتممتا غداءنا خرجنا لزيارة الفندق فأعجبنا نظامه وألقينا نظرة أولا على حديثه فكان أمام الباب الداخلى للفندق بيغاون وفى طنوفها (فيرانداتها) أربعة أخرى فشينيا قليلا فيها ووجدنا بناء صتيرا منفصلا عن محل السكن به جملة غرف معدة للطالعة والجلوس ولعب (البلياردو) ثم عدنا ثانيا الى داخلها فسمعنا صوت الموسيقى الشجى ولما كنت مغرما بسماعها مشيت الى الجهة التى أسمع منها هذه النغمات فاذا رأيت ؟

رأيت كنيسة بديعة النظام وسيدة تلعب بالأورج (Orgue) ورجلا يدق على (المارب) فسررت جدا وأردت أن أجلس لأشرف أذنى بهذه النغمات التى تدعو إلى السكون من شدة تأثيرها فى النفس ولكن ساعنى أنه لم يكن لدينا متسع من الوقت وقد جال بى كرى أن هذا

المكان ربما كان معدًا للعبادة (كنيسة) وربما كان في وجودنا تكدير لصفاء المتمسكين بدينهم لاسيما أن سيدة عجوزا صارت تنظر الى شئرا فاستمرت أنا وزميلاي ننظر الى كل ملهبا فأعجبنا جدا بقاؤها على حالتها الأولى وقد رأينا كثيرا من السيوف القديمة والتروس وغيرها من آلات الحرب القديمة معلقا كل ذلك على حيطانها فصرنا ننقل من مكان إلى مكان إلى أن وصلنا إلى محل يباع فيه بعض أشياء للسائحين فدخلنا فيه لشراء بعض بطاقات البريد (كارت پوستال) وسألت الرجل الذي يبيع هذه الأشياء هل المكان الذي تعرف فيه الموسيقى كنيسة فأجابني لا ياسيدي إنه في الزمن السابق كان محل إقامة الصلاة وقد ترك على حاله الأولى وهو الآن قد اتخذ محلا للموسيقى وفي المساء ينقلب الى مرقص فأنكرت على القوم ذلك لأنى ممن يحترمون كل مكان اتخذ للعبادة الخالق وبعد ذلك أخذنا نطلع على ملهبا هذا الدكان فرأينا جملة مصابيح وكثيرا من أنواع الأثاث القديمة وغيرها وقد عرفت من هذا البائع أنه مضى على المحل نحو أربعين سنة وهو يتاجر في هذه التحف فسأله . قل لى بريك كيف تمر هذه الأزمان الطويلة وأتم تبيعون من هذه التحف دون أن يفرغ منها دكانكم .

فأجابني وهو لا يملك نفسه من الضحك . إن كثيرا من السائحين

يشترون هذه الأشياء ليزينوا بها منازلهم ولا يودون أن يعرفوا حقيقتها وانها ليست تحفا قديمة بل هي أشياء جديدة تحاكي التحف القديمة وليس من واجباتنا أن نذكر حقيقتها لئلا تكسد تجارتنا وإني قد اشتريتها على حالتها التي تراها عليها فلست مسؤولا عن تاريخها فضميرى مرتاح من هذه الوجهة .

ولما كان الوقت لا يوسع أن نمضي في هذا المكان أكثر من المدة التي أمضيها فيه لاسميا أننا نريد الذهاب الى روكلند (Roedland) أسرعنا إلى ركوب سيارتنا وأمرنا سائقها أن يذهب إليها فصرنا نمشي في وادٍ به أيضا كثير من أشجار البرتقال التي تثمر برتقالا صغيرا به بذور كالتي تخرجه أرض مصر ولم نر شيئا جديدا غير هذا وكنا نشعر بحمى شديد . قربنا من روكلند فالتفت الينا سائق السيارة وقال إني من سكان الشرق وهنا أهل الغرب مشهورون بالمغالة فطلما سمعت كثيرا منهم يقول ان مكان كنا هو أكبر أو أحسن أو أعظم مكان في العالم والحق يقال اني لم أر الى الآن شيئا يؤيد ما يدعونه فوافقتهم على قوله لأن ما سمعته عن روكلند جعلني أشناق لرؤيتها ولكن لم نر شيئا يذكر وهي تشبه قليلا بساديتا من حيث المزارع وتزيد عنها بسدة حرارتها فلم نر موجبا لقطع ٢٥ ميلا في هذا السير بدون قائدة فأمرته أن

يعود بنا إلى حيث أتى فعرض علينا أن يرجع من طريق أطول من الذى جئنا منه فقبلنا ومار بنا فيه وصرنا نرى بين وقت وآخر بعض أشجار الكافور العظيمة والاروكاريا الكبيرة وبعد قليل غير وجهة الطريق ومشى بنا إلى جهة الجنوب فانتقلنا إلى أودية مختلفة لا يوجد بها أشجار القواكه بل كلها مزروع فيها أنواع الحبوب وصرنا نتمتع على كثير من الضياع التى يدل ظاهرها أن أصحابها من ذوى الثروة وأن كل هذه الاراضى فى غاية الخصوبة وقد حدث السائق السيارة فأخذت تطوى الأرض طيا بكل قوتها فررنا على أربعة وديان متشابهة وخصبة واستمر على هذه السرعة إلى أن قربنا من مدينة بسادينا وقد خرجت للرياضة هنا أربع مرات قبل هذه مرتين بالسيارة وثلاثة بالترام واربعة بالقطار وما كنت أرى فى كل مرة الا أشجار القواكه ولم أكن أعلم أن بالقرب من مدينة بسادينا حقولا كبيرة كالتى رأيتها هذه المرة .

وصلنا إلى الفندق الساعة السادسة والنصف وأظن أن ما قطعناه اليوم من المسافات الطويلة يكفى لختام هذا اليوم .

أصبحنا فى يوم الأربعاء (٢٩ مايو) فعزمنا أن نترك مدينة الزهور للذهاب إلى بلدة أخرى اسمها سنتابارا (Santa Barbara) فأعدنا العدة لمغادرة هذه المدينة على القطار الذى يتحرك من مدينة

لوس انجلوس الساعة الثانية وخمس دقائق فنهبت رئيس السفيرين أن
يجهز لناغداء باردا قبل الظهر بربع ساعة وما أتت الساعة ١٢ و ٣٠ دقيقة
حتى كا على أهبة الرحيل فأخذنا معنا بواب الفندق ومشينا نحو خمس
دقائق إلى أن وصلنا إلى محطة الترام والحمد لله أمكننا أن نأخذ مكانا
فيه ونستريح حيث كل الناس في هذا الوقت مشغولون يتناول غدايتهم
وفي الساعة ١٢ و ٥٠ دقيقة تحرك بنا الترام وبعد ٣٠ دقيقة
وصلنا الى لوس انجلوس وذهبنا حال وصولنا الى محطة سوترن
پاسيفيك (Southern Pacific) وعند دخولنا فيها طلبت منا تذكرة
فسلمناها وتسلمنا غيرها ثم ركبنا قطارنا وقد لاحظنا أنه كبير جداً يسع
عددا عظيما من الركاب أما عرباته فقد كانت كبيرة أيضا وطويلة جدا
وبها صفان من المقاعد كل مقعد معد لشخصين أما متكا هذا المقعد
فانه يتحرك بحيث انه إن كان معك أكثر من شخص أمكنك أن تحول
هذا المتكا فتجلسوا متقابلين لامتدابين وبذلك تقطعون المسافة
بأحاديث السمر دون أن تشعرأ بلبل هذا وفي كل عربة محلان
للغسل أحدهما للرجال والآخر للنساء كذلك بها مثلجة ماؤها نقي مثلوج
ليطفي الشارب ظلاً من شدة الحر فابتدأ قطارنا يتحرك في مياعده وصرنا
نرى المزارع التي تشبه كثيرا مزارع المسانيا وبعض جهات النمسا

وشرق فرنسا . هذا وقد كثر نرى العمال يعملون فيها وبين وقت وآخر كما نمر على ضياع كبيرة بالنسبة لأمثالها بأوربا . أما هؤلاء العمال فأغلبهم مكسيكيون أو يابانيون والظاهر أن أرباب الضياع يفضلونهم على غيرهم لأن أجورهم قليلة بالنسبة لغيرهم . اخترق قطارنا قفقا وبعده صرنا نمر في واد آخر خصب جدا وأظن أن دخله عظيم جدا - وصلنا إلى مدينة قانتورا (Ventura) أو سانت بوينا قانتورا (San Buena Ventura) وهي مدينة يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف وخمسمائة وهي مركز تجارة البنجر واللوبياء ومنها أخذنا نقرب من شاطئ البحر فرأيناه هادئا ساكا تهب منه الرياح البليلة فتذكرنا بلادنا وقانا متى نركب البحر لنعود إليها وقد أحدث في نفوسنا بعض السرور تغيير المنظر لأننا أمضينا زمنا طويلا ونحن بين صحارى ووديان وجبال فأطلقنا لأنفسنا عنان الخيال للتمتع بالأشياء اللذيذة نفيل إلينا أننا في الباحة على مقربة من منار مدينة الإسكندرية الزاهرة حيث لم يبق علينا إلا قليل لترى أهلنا وأقاربنا وكل عزيز لدينا .

نحن الآن على بعد ٢٠ ميلا من مدينة سنتابارا ونرى الآن كثيرا من آبار زيت البترول قريبة من الماء وبعضها في الماء وهذا ما لم أره من قبل . ومن الغريب أن المضخات المستعملة لاستخراج

هذا الزيت من البرهى المستعملة لاستخراجه من قاع البحر غير أنه ليس لكل مضخة آلة بخارية تديرها بل اكتفى هنا بآلة واحدة ذات قوة عظيمة تدير عدة مضخات . قربنا من سنابارابارا ودخلنا فى طريق تكنتفه بساتين كثيرة فوقف بنا القطار أمام ناد يدعى كاويتى كلوب (Country Club) له منزلة عظيمة بين النوادى لأن أصحاب الثروة العظيمة من الأمريكيين يفلدون إلى تلك الجهات فى فصل الشتاء لقضاء بعض أيام بها إذ لا يشتد فيها البرد فيتخذون ذلك الندى مجتمعا لهم وبما أن فى أمريكا أصحاب الملايين هم الذين لهم الحول والطول والنفوذ العظيم الذى يضارع نفوذ أمراء الشرق فى الزمن السالف يقف القطار أمام هذا الندى إرضاءً لؤلؤ الأغباء الذين يديرون حركة هذا العالم بسلطة الأصفر الزان .

وقف بنا القطار فى محطة سنابارابارا فلبحت عربىة فندق پوتر (Potter) الذى نقصده فاسرعنا إليها وأخذنا مكاننا فيها وقد ركب معنا ثلاثة سائحين ولما لم يجد قائد العربىة غيرنا سار بنا ثم دخل بنا من حديقة الفندق القريبة جدًا من شاطئ البحر ولما وصلنا إليه وجدناه كبريا وعظيما فأمرع البنا من تسلم متاعنا وبعد ذلك عرضت علينا غرف جميلة فى الطبقة الثالثة تُطل على حديقة الفندق الغناء ويرى

منها الرصيف والبحر ومرفاً سنتاباربارا الذي هو في الحقيقة أكبر من ثغر (نايلي) لكن منازله أقل من منازل نايلي ويمتاز الثاني أيضاً بركان فيزوف المدمر . والنظر إلى الثغر الأول تجلي له فيه الطبيعة بجبالها وهيبتها . اتساع عظيم وجبال شامخة وأشجار خضراء تكسو الأرض حلّة مستندسية فتريد جمالها - رأينا في هذا الثغر قسماً من الأساطيل الأمريكية فأحصينا عددها فإذا هي قطعتان لخضر السواحل وثلاث قطع من نوع التوربيل وكل قطعة بها أربع مداخن ولكي لم يصغى شكلها بقلها من السفن القديمة .

إن الهواء ليليل والسماء غابسة مفكّهرة والجوّ مندر بوابل من المطر فنظرنا إلى ساعاتنا فإذا نحن في الساعة السابعة فذهبنا إلى حجرة الأكل لتناول عشاءنا فإذا هي كبيرة ونظامها وحسن ترتيبها يدل على أن الفندق من أعظم الفنادق وأنظفها فشرعنا نأكل ما طاب لنا من الطعام وكان عشاءنا لذيذاً ولم نصادف أحسن منه إلا في مطعم (مارتن) الفرنسي بنيويورك وقد كانت الموسيقى تشف آذان الحاضرين ويديرها ثلاثة أشخاص أحدهم يضرب على البيانو والآخرا تانجو في أيديهما الكنتجة ولكن رغمًا من أن هذين الأخيرين يحاكيان رجال هذا الفن الجليل في إرسال شعرهما على ظهرهما ويتشبهان

في تركتهما بمتقنى الموسيقى كانا لا يتبعان في عملهما نظاما واحدا بل كل واحد منهما كان مستقلا عن صاحبه ولا يسير معه في تلحينه فصرنا نسمع نغمات مختلفة لأصل لها - نخرجنا من حجرة المائدة في الساعة ٨ و ١٥ دقيقة فوجدنا في فناء الفندق طائفة أخرى من الموسيقيين ولكن ليست موسيقاهم وترية وقد كان رأسها شاب قد أرمى أيضا شعره على ظهره وقد تقلدا دقيقا كجار المقتنين والمؤلفين في فن الموسيقى وهو وطائفته من الإيطاليين الذين يقيمون في سنتابار بارا بخلستانا على مقربة منهم لعلنا نسمع ما لم تكن نسمعه من قبل فوقف رئيسهم في بركة حلقتهم وفي يده عصا صغيرة فأذن لهم في الابتداء وصار يحرك رأسه يمينا وشمالا بسرعة ليس بعدها سرعة كاللدى به مس من الجن ويطوح بذراعيه تارة إلى الأمام وأخرى ذات اليمين وذات الشمال فله ذره ما أخف حركاته الرياضية وكلما زادت أعصابه اضطرابا صفق له الحاضرون تصفيقا حادا فيزداد تهيجا ولكالم تصفق له شفقة عليه ورأفة به لأن هذا المحتال عرف كيف يوجه الأنظار إليه وبأى طريقة يجذب السامع إلى موسيقاه حتى يزيد إعجاب الناس به وبمن معه فما أحقهم وأجهله . وقد قال خيرى : إن هذا الرجل يكسب حقيقة رزقه بعرق جبينه ولا بد أنه بعد أن يتم

أدواره يتام نوم أهل الكهف ولا يستيقظ إلا والطيب يعالجه من
داء الجنون الذى حل به . أما مصطفى فلمعرفته التامة بفن الموسيقى صار
يتأوه إشفاقا على هذا المسكين و يقول إن عقله ذهب فى علم الخيال
وما حركته المدهشة إلا نتيجة اضطراب أعصابه فصار لا يعى ولا
يعرف ما يفعل أما رأي الخالص فى هذه الموسيقى وليس من شيعتى
أن أجنس الناس حقهم فهو أنها كانت موسيقى فنية محكمة فليست حالة
رئيسها المضحك الطائش بداعية للحط من قدرها . حضرت أمتعتنا
فى نحو الساعة ٨ و ٣٠ دقيقة وبعد هذا الزمن بقليل سعدنا إلى
غرفنا للنوم والراحة .

قضينا ليلتنا فى هدوء وسكينة وفى صباح يوم الخميس (٣٠ مايو)
خرجنا ليرى المدينة فإذا هى شارع واحد طوله نحو ثلاثة كيلو مترات
فشيئا فيه نحو نصف ساعة راجلين ثم عدنا إلى الفندق راكبين الترام
الذى يمر فى وسط هذا الشارع حتى يصل إلى رصيف البحر ويقف
أمام الفندق فلم نر إذا إلى الآن ما يستحق الوصف وما سرتنا إلا أن
البحر كان صحو والشمس تلى أشعتها الذهبية على هذا الثغر الطبيعى
الجميل . نزلنا من الترام ودخلنا الفندق من باب حديقته العامة وما
كان هذا اليوم من أيام الأعياد وفيه تحيى ذكرى العساكر الذين قتلوا

فى حرب (Guerre de Cessation) فقد كانت الأطفال وعاة أهل
البلد مرتدين ملابسهم النظيفة وبأيدى الصغار منهم الأزهار أما
أنواع الشرائط الحررية المختلفة الألوان فإنها كانت تزين ملابس
البنات ورؤسهن بجلست أنا وخيرى فى إحدى طنوف الفندق التى
تطل على حديقتها وعلى البحر وإذا بضابط عظيم حضر بملابسه
لرسمية ممتطيا جوادا فألفت نظرنا شئ واحد وهو لون حوافر الحصان
الفضى فإن نعاله متخذة من معدن الالومينيوم وأظن أنه آت من
حفلة تمرينات عسكرية فنزل من فوق جواده وتقدم إليه تابع له
فأخذ الجواد وركبه وسار به إلى إصطبله .

اوصيتُ بإحضار عربة لتركب فيها بعد الظهر كي نرى ضواحي
بلدة سنتاباربارا ولم أطلب سيارة لأن الحالة لا تستدعى الإسراع ولما
أنت ركبناها وسرنا بها أتولا إلى حى الأغنياء فإذا هو مجموع منازل جميلة
محفوفة بمجذائق واسعة تشبه منازل إسادينا وقد تسكنها الأغنياء
فى فصل الشتاء لا اعتدال جؤها فى هذا الفصل ويصطاف فيها الذين
يقصدون منهم الحمامات البحرية فى هذه البلدة وفى أثناء الطريق
مررنا على شجرة موز كبيرة جدا أمام أحد المنازل فنادت البستاني
وسأته عن نوعها ولم كانت هكذا عظيمة فقال إنما ذلك لتقدم عهدا

فلما تبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة وبعد ذلك استمر بنا في طريق تكتفحه أشجار الكافور وغيره إلى جهة الجبل فوصلنا إلى أملاك أحد أغنياء الأمريكيين وأصله طلياني وقد قيل لنا إنه منغم بترية أنواع النباتات وقد أنفق في بناء منزله ملايين من الدولارات وبه باب قديم جدًا من أيام (Pompée) وبه أعمدة تاريخها من ٤٠٠٠ سنة فدخلنا في حديقة قد أهملت العناية بها ورأينا فيها منزلا صغيرا فوجهنا نورا لرؤية الباب المشهور وظننى أنه من فينسيا وتاريخه ربما يكون من القرن الثالث عشر وقد رأينا عليه صور رؤس فرسان وكلمة بعض صلوات مسيحية وهو ما يؤكد أنه عمل بعد ظهور السيد المسيح . فخرجنا نضحك من هذا القصر الذى لم أقدر ثمنه مع حديقة وكل ما اشتمل عليه بأكثر من ستة آلاف جنيه على فرض أنه بمصر وبعد ذلك عدنا إلى المدينة ومررنا على فندق يبعد عن الساحل بميلين عدد غرفه ثلثائة أما عدد غرف الفندق الذى نحن نازلون به فخمسةائة وفى فصل الشتاء لاحتلوه منه غرفة واحدة لكثرة وفود السائحين ولما وصلنا إلى فندقنا دخلنا في حديقة للاستراحة فوجدنا فيه كثيرا من أنواع الزهور وقد رأينا البستانيين ينضحون الأشجار بماء قد أذيب فيه صابون أسود لقتل الحشرات التى تضر بحياة هذه الأشجار أو إيقاف

نمّوها . وقد رأينا فيها مكانا قد أعد لبعض حيوانات وطيور كالقردة والبيغاء والتبتل . وبعد ذلك عدنا إلى داخل الفندق وفي الساعة السابعة والنصف ذهبنا لحجرة المائدة لتناول العشاء ولم يكن بها الموسيقى الوترية بل بها في ساحة الفندق الداخلية موسيقى من النوع الآخر وبعد العشاء جلسنا في هذه الساحة وقد رأينا فيها أغلب السائحين الذين كانوا معنا في الجمراندكانيون (Grand Canons) وأظن أن كل السائحين يدعون خطة واحدة . وقد فاتني أن أذكر أنا وجدنا على مقربة من آبار زيت البترول مستنقعات بها كثير من البط الجليّ وقد رأينا على شجرة بلوط قديمة تسرا واحدا وهو الوحيد الذي رأيتُه إلى الآن مطلق الحرية وهو من نوع النسر الصغير أكبر في الجسم من الحدأة المصرية وأصغر من النسر المسعى (النسر الإمبراطوري) (Aigle impérial) وقد كانت رأسه بيضاء وكذلك عنقه أما جسمه فأسود وقوائمه غارية من الريش وأطراف جناحيه بيضاء وهو من أحسن أنواع النسور التي أعرفها على أن رؤية هذه النسور لا تسر كثيرا وفي كاليفورنيا ألوف من طيور (Tanagra) يراها الإنسان على طول الطرق الحديدية وهي في جسم الشحرور ولونها أسود غير أنها من تحت العنق فما فوق لونها أحمر صافٍ وهذان اللونان متناسبان

جدًا ينشأ عن اجتماعهما منظرٌ بديع عندما تطير هذه الطيور في الفضاء فيكون منظرها بالغ العلية من الجمال . ذكرت قبلاً أننا جلسنا في فناء الفندق فأقبل إلينا مديره وقال إنه مستعد لتأدية أى خدمة تريدها وهو رهين الإشارة فشكرته على مجمله ثم سألتني هل زرت ضيعة أمريكية فأجبت لا فدعاني أن أذهب معه إلى الضيعة التي يمتلكها صاحب الفندق ومساحتها ٧٠٠٠ هكار . هنا يجدرني أن أقول إن السابقين الذين تزحوا أولاً إلى أمريكا هم الذين استولوا على الأراضي الواسعة بدون ثمن أو بقيمة زهيدة جدًا وورثتهم هم الذين استغنوا وصاروا من أرباب الثروة العظيمة لما ارتفعت أثمان هذه الأراضي وذلك باستخراج كنوزها أو بإصلاحها وتمهيدها للزراعة والفلاحة .

في صباح يوم الجمعة (٣١ مايو) وصلنا من محل كوك بولس انجلوس رسائل مرسلة إلينا من مصر فقرأناها ثم خرجنا من الفندق لشراء بعض بطاقات البريد (كارت پوستال) تذكراً لزيارتنا بلدة سنتابار بارا قمشينا راجلين لأن الجو كان معتدلاً ثم عدنا إلى الفندق راكبين في الترام لكاتبه مذكراتنا عن الرحلة وللد على ما وصلنا من الرسائل وعند دخولنا سلم إلينا رسالتان إحداهما من صاحب الفندق يدعونا إلى التمتع

(Country Club) الذى به الجولف والبولو والتينس والثانية من المستر مارتن رئيس الزراعات الواسعة (Chef des grandes Cultures) التابعة للشركة الزراعية الكبرى القريبة من مدينة ساكرامنتو (Sacramento) عاصمة كاليفورنيا ومعها جملة خراطم أيضا . وبعد الغداء فى الساعة الثانية بعد الظهر حضرت سيارة لتركب فيها إلى ضيعة صاحب الضيق وهى على مسافة ثلاثين دقيقة من هنا فركناها ولىا وصلنا إليها ذهبنا أولا لرؤية إصطبل البقر وقد علمنا أن البقر يعى طول السنة فى المراعى وذلك لحدودة الطقس ولا يدخلونها فى الإصطبل إلا لخلبها وقد رأينا فيه ٤٨ بقرة واقفة فى صف واحد بعضها بجانب بعض وثلاثة حلابين يحلبونها ولا يمكنها أن تتحرك لأنها وقت الحلب تكون رقابها مشدودة فى حواجز من خشب . (بطريقة خصوصية) وأمامها مداود بها أوراق الترة مقطعة قطعاً صغيرة وقد أضيف إليها جزء من النخالة وقد اتخذت الحيطه التامة من تغطية الأوعية وتنظيف القوارير بآلة مخصوصة لغسلها حتى يكون اللبن نظيفاً وقد رأينا خارج الإصطبل فى أمكنة مخصوصة كل ما يلزم لحفظ الألبان ولعمل الزبد والجبن الخ . ورأينا أيضاً مخزنين كبيرين للعلف أما هذا البقر فن النوع الصغير الجسم الذى يدرّ البانا كثيرة فهو

يشبه بقر جزيرة جرمسى أو هولستين بالمانيا أما نتاجها فالذ كرمته يعنى
بتريته حتى يسمن ويذبح والأخى تبقى للانتفاع بتاجها وألبانها وقد
توضع مادة كاوية على قرونها وهى صغيرة فصجزها حتى أنها لما تكبر
لا يخشى من تناطحها بعضها مع بعض

نرجنا من هذا المكان وذهبنا إلى الضيعة الأخرى التى يربى فيها
الحمام وعدده من عشرين إلى ثلاثين ألف حمامة وقد شاهدنا ان
الاعتناء به وبنظافته أكثر من الاعتناء بحمام لوس انجلوس الذى
تكلمت عنه قبلا . ويجانب هذا المكان محل معدة لتربية الخنازير
وبه أكثر من مائة غير نتاجها الكثير .

وبعد ذلك ركبنا السيارة للعودة إلى الفندق فسار بنا السائق فى طريق
جميل به مزارع كثيرة إلى أن وصل إلى نادى (كلوب) الجولف وهو
عظيم ومتسع وفى مكان جميل ولعب الجولف الآن هو أحدث أنواع
اللعب فلا يختار له إلا أحسن الأمكنة بلطب الناس إليه وقد رأيت فى هذا
الندى محلا معدا للراحة (Chalet) وسيدتين ممتطيتين جوادين ومررنا
على محل لعب البولو وقد قيل لنا إنه مهمل منذ سنة فلم يلعب فيه .
نرجنا من هذا المكان فذهب بنا سائق السيارة إلى الساحل وهناك
استرضنا فى الأجمة التى به وهى قديمة وأشجارها مهشمة فالتحذت

أشكالا غريبة وبعد ذلك وصلنا إلى المدينة ولم يبق علينا إلا زيارة محل تربية الدجاج القريب من فُندقنا وبه ٤٠٠٠ من الدجاج وفراخها وهي من النوع الإنكليزي الذي بيض كثيرا ولونها أبيض وضئيلة الجسم . وبعد ذلك مرنا في المدينة فصادت مزارعا بلجيكيًا (*Horticulteur belge*) فنزلت من العربة لرؤية ما عنده فعلت منه أن اسمه المسيو لوجون (*Le Jeune*) ويتبع المسيو زيردن بيروكسيل (*Zirden*) ولم يعجبني شئ عنده أكثر من اجتهاده في القتك بالحشرات التي تضر بالأشجار وقد عرفت أن هذه الحشرات هي التي تضر بالموز الهندي عندى فسألته عن الطريقة التي يتبعها لمنع أذى هذه الحشرات فقال لى إن البلاد هنا غنية ولا يعز عليها أن تنفق النفقات الكثيرة لإبادة هذه الحشرات ولا شئ يرجعها أبدا عن عزمها ولذا أعتنى بتربية حشرات أخرى تتغلب على هذه الآفات وتأكلها فلم أستفد مما قاله شيئا جليدا لأنى أعرف ذلك من قبل ولكن ماهى الطريقة التي تودى إلى الحصول عليها والانتفاع بها فى بلادنا . إن فى أمريكا محالّ معدة لتربية هذه الحشرات المفيدة والزراع يشترون تلك الحشرات بئمن قليل وقد أسفت كثيرا لحرمان بلادنا من أمثال هذه العتة التي يدفع بها عدو خيرات الأرض وقد

وجدت في أمريكا كثيرا من الأشجار التي أشتري الواحدة منها بمخمين أو خمسة وسبعين فرنكا من أوروبا ولا تساوى هنا إلا خمسة ولكن ما العمل وما هي الطريقة في نقلها ونحن في كاليفورنيا في آخر العالم . إن سكان هذه الجهات تنتظر بفارغ صبر افتتاح قناة بناما لتسهيل طرق التجارة ويظن أن التجارة بعد فتحه تضاعف حركتها . أما صعبوبة إرسال البضائع بالطرق الحديدية فعظيمة لأن أجور النقل باهظة جدا والبضائع تتأخر كثيرا في الطريق لأن أغلب الطرق الحديدية ليس بها إلا خط واحد وذلك من أكبر دواعي الإبطاء في نقل البضائع . وقيل أن أخرج من عند هذا البستانى قال لى إن عنده نخلة نادرة وهي الوحيدة في جميع كاليفورنيا وهي جميلة جدا تتخذ للزينة فأليت على نفسى أن يكون لمصر نصيب فى واحدة منها .

رجعنا إلى الفندق ونحن مسرورون من رحلتنا هذه فقابلنى مديرها وسألتنى عن حالة الضيعة فأطريتها وأظهرت له إعجابى العظيم بنظافتها وعظيم الاعتناء بها وبما فيها خصوصا نظامها الحسن فقال لى إننا بعد أن نأخذ منها كل ما يحتاجه الفندق نبيع لسكان المدينة سائر ما بقى من اللبن والبيض والحمام ولحم الخنزير وقد قال لى إن لهم مزرعة خصوصية لأنواع الخضر فهأته بذلك وبما هم فيه من نعمة اعتدال

الحق في هذه المدينة حتى صارت صالحة لصفاء الحياة فيها صيفا
 وشتاء والمناخية ترضى في مروج مخصصة طول السنة وهي مطلقة الحرية
 وهذه من أجل نعم الله عليهم
 بعد تناول العشاء جلسنا قليلا لسماع الموسيقى ثم اقتربنا للراحة
 والنوم .

أتى يوم السبت (أول يونيه) فعزمنا على الرحيل من هذه المدينة
 فأعدنا أمتعتنا وبعد ذلك نزلت ومعى مصطفى بك لدفع ماوجب
 علينا دفعه للفندق فوجدناه في هذه المرة معتدلا فشكرت لمديرها
 حسن اعتنائها بالسائحين وبكل مايربحهم والحق أننا هنا سررنا جدا
 من الخدمة والاعتناء فإن كل المستخدمين كانوا يؤدون طلباتنا
 بكل همة ونشاط وكل مستخدم كان يعرف واجباته فيقوم بها أحسن
 قيام

في الساعة العاشرة والنصف صباحا صحبني خيرى بك وتركنا مصطفى
 بك ومعى باقى أمتعتنا الخفيفة في الفندق على أن يلحقنا في المحطة
 فشيننا راجلين إلى أنت وصلنا إلى المحطة وفي الساعة الحادية عشرة
 والربع تحرك بنا القطار إلى مونتيرى (Monterey) ومنها إلى ديلمونتى
 (Del Monté) وهي لا تبعد عنها بأكثر من عشر دقائق

بعد ثلاثة أرباع الساعة من ركوبنا أى في الساعة الثانية عشرة نودى بأن الغداء حاضر فذهبنا لعربة الأكل ولما أتى لنا بالطعام وجدناه غير جيد وقد كان الحر شديدا حتى صار السفريون السود يتصبب عرقهم ولم تكن النظافة يادية عليهم

صرنا نمر في سهول ليست جميلة ولكنها أحسن من صحارى الأريزونا (Arizona) فهنا امامنا بعض مزارع ولا نمر على جبال مرتفعة فلما نظرنا تنغير إذا بين حقول وأراضى غير مزروعة ومستنقعات وغيرها وصلنا مرة أخرى الى منابع زيت البترول الكثيرة وقد عرفنا أن القاطرات هنا يستعمل في إدارتها زيت كقاطرات سيريا وفي محطة ساليماس (Salimas) رأينا مخزنا كبيرا لهذا الزيت وهو تابع للطريق الحديدى الجنوبى الباسفيكى (Southern Pacific) (railway) ولما وصلنا الى محطة كاسترفيل (Casterville) نزلنا لتركب قطارا آخر يوصلنا إلى ديلمونى وهى التى نقصدها وطالما سمعنا الألسنة لاهجة بالثناء عليها وقد وقفنا في هذه المحطة نحو عشر دقائق وبعدها تحرك قطارنا ومشى بنا في سهول غير مزروعة وليس بها الا شئ من الكلاب وبعض شجيرات ضعيفة نابتة في هذه الرمال .

نحن لانبعد الآن كثيرا عن شاطئ البحر ونمر على آكام مرتفعة

ولا نرى جبلا ولا آجاما جميلة كما سمعنا فالتفت الى صديقي وقلت لهما ها نحن وقتنا أيضا في الفخ وأظن أننا إذا استمررتنا على هذا الحال نكون قد تكبدنا متاعب بدون جدوى وبيننا نحن في هذا الحديث وإذا بنا دخلنا في حديقة غناء تزينها أشجار ثم وقف بنا القطار في وسط أجرة هائلة وسمعنا ناديا يقول ديلهوتى فأسرعنا بالتزول وركبنا عربة الفندق العامة التي سارت بنا في وسط مروج جميلة وحدائق بديعة وكانت الطرق منظمة ومرصوفة بالميكادام محفوفة بالأشجار المورقة على جانبيها أما محطة ديلهوتى فهي تابعة للفندق الذى نستزل به

بعد أن مضى من الساعة الثامنة عشر دقائق وقفت بنا العربة أمام الفندق فرأيناه عظيما ولما دخلناه وجدنا السيدات بملابس المساء والرجال مرتدين الأسموكين وبعد ذلك أعطيت لنا غرف في الطابق الأول تطل على الحديقة الجميلة وقد كررت كثيرا في مثل هذا المقام جملة تدل على عظم وجمال الفندق وكتبها في الحقيقة تقصر عن الوصف وتقف دون التعبير عما فى الضمير وقد قلنا فيما بيننا : هنا يمكن أن يمضى الإنسان شهرا فى لذة وهناء حيث تجلى له الطبيعة بكل محاسنها ويستنشق الهواء العليل ويتمتع بالهدوء والسكينة والراحة

التامة ولذا يفد إليه كثير من سكان سان فرانسيسكو الأغنياء الذين يطلبون الراحة التامة ولكن قد أسفنا لأن خطتنا لا تأذن لنا بالبقاء فيها أكثر من يوم واحد وبعد ذلك دخلنا حجرة المائدة لتناول العشاء وهو يقدم على حسب برنامج معين فلا يختار الأكل ما يشتهي من أصناف كثيرة تعرض عليه

ولما قدم لنا وجدناه لا يؤكل وقد كان بجانبنا أحد السائحين فطلب قطعة جبن فقدمت له قطعة صغيرة لا تصلح لإدام لقمة واحدة فأطلع عليها امرأته وأولاده وصار يضحك وفي خلال الأكل كما نسمع ما يسمونه موسيقى ويدبرها فئاتان إحداهما كانت تنفخ في الكورنيت وظنى أن شفتيها رقما من كثرة النفخ والأخرى كانت تضرب الكنجة ومعهما فتى يضرب على البيانو ولا تعرف هل الحاضرون يسمعونها أو أنهم لاهون عنها بطعامهم . أوصيت بإعداد سيارة قبل أن نصعد للتوم لأجل رياضة السبعة عشر ميلا المشهورة في أمريكا فأشار على مدير الفندق أن نذهب أيضا إلى المنتزه الجديد واقترقتا على أن نتمتع في صباح يوم الأحد (٢ يونيه) بهاتين الرياضتين وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم المذكور أتت السيارة فركبناها ومررنا أولا على مدينة موترى التى يبلغ عدد سكانها نحو ٣٠٠٠٠

وقد علمنا من كثرة الزحام بها وكثرة السيارات التي تسير أو تنتظر من يركوبها أنه سيقام فيها حفلة طيران بعد ظهر هذا اليوم لأن هذا يوم الأحد وكان عدد المشاهدين كبيرا

ان هذه المدينة ليس بها شيء يذكرك غير أنها لما كانت تحت حكم الاسبانيين كانت من المدن المهمة وقد رأينا بها بعض مباني قديمة كانت قديما مركزا للكوس وللقضاء وغيرهما ورأينا أيضا تماثلا لأحد المرسلين المدعو الأب سيرا (Serra) أقامته سيدة عجوز ثم مررتا على صليب من الرخام أقيم تذكارا للشجرة بلوط كانت في مكانه وأقيم تحتها أول صلاة في يوم أحد فهكذا تكون المحافظة على الآثار الدينية وظنى أن مثل ذلك لا يرى في بلادنا ومن العجيب أنه ينسب لنا دائما التعصب فليعتبر أبناء الوطن الأعزاء وليحافظوا على التقاليد القديمة . وهنا يجدر بي أن أقول انى منذ سنتين أريد أن أحى تاريخنا مجيدا للعرب الذين فتحوا مصر بجيديد (جامع عمرو) وجعله أثرا لا يمحي خالدا الى ماشاء الله فلم ألاق إقبالا يشجع ولكن أملى في الله وفي أولى المرءة أن لا يرضنوا بالمساعدة في هذا العمل الجليل الذى أراه تذكارا لأهم حادثة تاريخية في حياة مصر وما ذلك على الله وعلى ذوى المرءة ببعيد .

مررنا بعد ذلك على تمثال نسر من الجرانيت أقيم تذكارا للقائد الأمريكي الذي أخذ هذه المدينة من الاسبانيين - وبموتى قوة مؤلفة من ألفى جندي نظمي . هذا وقد كنا نسمع في الطرق كثيرين يتكلمون باللغة الاسبانية ولما صعدنا على مرتفع منها رأينا ثغر موتى والبحر فيه هادئ جدًا لأنه مقفل وقد كان ماؤه أزرق ساكنًا تسبح فيه مئات من السفن الشراعية فعلى بعد يراها الإنسان كأنها طيور بيضاء وهي ملك للصيادين الذين بعضهم صينيون .

استمررنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى شاطئ البحر فشعرنا ببرد قليلة وبين وقت وآخر كنا نمر على صخور تتلاطم فيها الأمواج فتعلوها الرغوة وقد كان الساحل جميلًا جدًا فصرنا نتمتع أنظارنا بهذه المناظر البديعة إلى أن وصلنا إلى باب كبير دخلنا منه في أملاك الفندق التي تقدر مساحتها بسبعين ألف هكتار وهي آجام لم أر أجمل منها . فيها طرقات بديعة النظام وبنيايمر الإنسان في وسطها المنتشرة به الأشجار الهائلة إذا به يخرج إلى شاطئ البحر فتتمثل أمامه الطبيعة بمناظرها الحليمة المؤثرة في النفس وقد رأينا مئارا وعلى مسافة منه بعض صخور عليها كثير من نوع الطيور صيادة السمك ولا ينسى القارئ أننا على المحيط الباسفيكي . مررنا بعد ذلك على كوخ حقير مهتم لأحد

صيادى السمك الصينيين . هنا وقف بنا سائق سيارتنا وأشار منيها
أنظارنا إلى صخور قريبة من الشاطئ عليها كثير من ال (Phoques)
وقد كان أحدها يسبح حتى صار على مقربة منا فصرنا ننظر إليه
وأعجبنا شكله وهو يعوم أما الأمواج فلا تؤثر فيها غير أن صعودها على
الصخور ولا أرجلها لا بد لها دونه من تجشم صعوبات كبيرة لأنها
ترحف على بطنها وقد تصعد على هذه الصخور طلبا لحرارة الشمس
وقد رأيناها نائمة على سطحها هادئة مطمئنة فكنتنا قليلا من الزمن
لنمتع نظرا بها ثم أتبعنا السير إلى أن دخلنا في سهل صغير يرعى فيه
قطيع من البقر ورأينا مكسيكياً على جواده لحراستها وللحفاظة على
الغابة من الحريق ولا يخفى على القارئ أن أشجار الصنوبر سهلة
الاحتراق كالهشيم . وصرنا نستشق من روائح هذه الأشجار الذكية
ونحن نستمر على السير فصادفنا تيتلا ذا قرون صغيرة تدل على
أنه حديث السن وقد كان آمنا مطمئنا على مسافة قريبة منا فتركاه
وشأنه ووصلنا إلى مرفأ يدعى مرفأ كارمل وذلك لقربه من دير
الكارمليت (Couvent des Carmelites) هنا وجدنا خصا جميلا تابعها
للندق قد أعد للذين يجيئون تناول طعامهم فيه بين هذه المناظر
اللطيفة . هنا يباع كل أنواع السمك وأثمار البحر . مررنا بعد ذلك

على قرية صغيرة يسكنها بعض الصينيين الصيادين و يظهر عليهم سعة العيش وحسن الحال . حوّل السائق طريقه وذهب بنا إلى الطريق الحديد وليكن في علم القارئ أننا ما زلنا في الغابة الكبيرة . هنا رأينا نحو . . . ٤ فدان حرقت أشجارها من مدة أربع سنوات وقد أخذت الشجيرات الصغيرة فيها تنمو ونموا حسنا وظنى أنها بعد سنتين تصل إلى ما كانت عليه من قبل فتكسوها الأشجار فلا تكون عارية كما نراها الآن إن هذه الغابات ملك لثلاثة أشخاص اشتراها آباؤهم من قبل أربعين سنة كل هكار بخمسة فرنكات وهم الآن لا يبيعون الهكار بأقل من ألف دولار فانظر الفرق العظيم بين الثمنين تعلم منه أن ثروتهم عظيمة . لا أقول إن الغابة كبيرة تضارع غابات سيبيريا أو كندا أو برزيبيا أو أواسط أفريقيا أو استراليا ولكن جهة استعظامها أنها ملك لثلاثة أشخاص وأنها تابعة للفندق -

إن بالفندق حديقة كبيرة على أبداع نظام معتنى بها غاية الاعتناء بداخلها لقر (لايرنت) من نوع ال (Sypres) منظم تنظيما بديعا . وقد علمنا أن بالحديقة نحو ١٥٠٠ نوع من أنواع الأشجار المختلفة والزهور ولا عجب فساحتها تقارب أربعمائة فدان وبها أيضا عدد عظيم من أشجار (الأريكاريا) و (الكاكتوس)

أما الفندق فلا يتقصه شئ من دواعى الراحة فيه مكتب للتلفراف
 وآخر للتلفون وثالث لإرسال الأمتعة وصيدلية ومحل كبير للحلاقة وفناء
 واسع للألعاب وبه سبعة ملاعب للعب التنيس تظلمها الأشجار وبحيرة
 تسير فيها زوارق بالتجذيف ومحل للعب الجولف وفي الأجمته يصاد
 فيه نوع من السمك يسمى المرجان وحمام كبير على البحر به خص (كشك)
 للذين يريدون أن يرافقوا زوجاتهم والوالدات اللاتي يردن مراقبة
 أطفالهن ولا شئ أدعى إلى سرور الإنسان وأشرح لصدده من أن يكون
 في غرفته ناظرًا من نوافذها إلى كل هذه المناظر الجميلة لاسيما مع هبوب
 النسيم البليل يحمل على جناحيه الروائح الشذبة المنبعثة من زهر البرتقال
 والليحون فإنه ينعش الروح ويحبب إلى الإنسان الحياة الطيبة - فأسفت
 كثيرا لأنى عزمتم على السفر منها وكان بودى أن أمكت بها زمنا
 طويلا لولا أنى أسير على خطة معينة وبرنامج محدد تقتضى الحال اتباعه
 نحن في يوم أحد وقد جرت العادة أن لا يقدم الطعام في هذا اليوم
 قبل الساعة الأولى بعد الظهر ولكن لأجل حفلة الطيران التي ستقام
 بعد الظهر أذن لنا بتناوله بعد الظهر بنصف ساعة فأكلنا وبعد ذلك
 دفعنا ما يجب علينا للفندق وأمرنا المكلف بإرسال المتاع أن يرسل متاعنا
 وصحبتى خيرى بك وتركنا مصطفي بك بالفندق لقضاء بعض شؤونه

على أن يلحقنا بالمحطة ومدينة راجلين (لأن مسافة الطريق لا تستغرق أكثر من عشر دقائق) ترويحاً للنفس بين تلك الأشجار الخضراء والزهور الباسمة وقد كان الهواء عليلاً فلم نشعر بأن الطريق انتهى لكثرة إعجابنا بهذه المناظر التي نتمتع عليها وبتنا نحن ننظر بالمحطة سمعنا صوتاً عالياً فقال لي رفيق خيري إن هذا الصوت لابد أن يكون طنين طائرة ولم يمض على كلامه زمن قصير حتى رأيناها تحلق فوق رؤسنا وهي من نوع البيلان (Biplan) فأخذت ترسم في طيرانها دائرة كبيرة ومررت فوقنا ثلاث مرات والناس يجرّون لرؤيتها فحمدت الله إذ رأيت أن الجري وراء مثل هذه الطائرة ليس مقصوداً على بعض المصريين في بلاد العلم والنور يوجد كثير ممن هم على شاكلتهم في ذلك . وأظن أن مثل ذلك شيء عام في جميع الشعوب . رأينا تحت هذه الطائرة إعلاناً قد كتب بخط واضح عن معرض سنة ١٩١٥ في سان فرانسيسكو وقد قرأنا هذه الكتابة رغمًا من ارتفاع الطائرة فانظر وكيف لا يدع الأمر يكيون أي فرصة تفلت منهم دون نشر إعلاناتهم فهم والحق يقال تفوّقوا على جميع الأمم افتناناً في الاعلانات ولو رأى القارئ ما كتب عن هذه الطائرة القويحة لاغتر كثيراً وربما أحسفره ولو كان مصمماً عليه فإنا قرأنا ما خلاصته : في الساعة الثانية والنصف من

هذا اليوم سيكون سباق هائل في مضمار الطيران - ألا يفهم القارئ من هذه العبارة أن عدة طيارات ستسابق فتطير من محل معين إلى غاية معينة والتي تنال قصب السبق يكون صاحبها هو الفائز . إننا رأينا كثيرا من السائحين الأمريكان يسيرون إلى هذا المكان وأظن أن بعضهم غزه هذا الإعلان فهل يكتفون بالنظر إلى هذه الطيارة الوحيدة . هذا ما تركته لهم ولينشروا اعلانتهم كيفما يريدون .

حضر القطار ولحسن حظنا وجدنا مكانا خاليا بجلسنا فيه رغما من كثرة الزحام به فإنه مملوء بالفلاحين الذين ينتهزون في يوم الأحد .

قام بنا القطار في الساعة ٣ و ٢٠ دقيقة بعد الظهر ونحن نأسف جدا لفراقنا ديلهونتي الجميلة وسارينا في طريق سننا كروز (Santa Cruz) إن طريقنا هو الطريق الذي أتينا منه إلى ديلهونتي ومن كاسترفيل (Casterville) استمرنا إلى پاچورا (Pajora) وهي بلدة شهيرة بأشجار الفواكه بنويها التفاح والكريز والبرقوق وليس بها شئ من أشجار البرتقال والليمون . انتظرنا بهذه البلدة القطار الذي يأتي من سان فرانسيسكو ولما حضر نزل منه عدد لا يقل عن مائة شخص وركبوا معنا قطارنا وقد كان من ضمنهم أسرة فلاحين اسبانية جلست بجانبنا وكانت القذارة ظاهرة على كل أفرادها حتى إننا اضطررنا أن ندير عنهم

جاعلين ظهورنا قبلهم ونطل من نوافذ العربة هربا من الروائح الكريهة التي كانت تتصاعد منهم ومن رؤية قذارتهم التي تسمئز منها النفوس وينبو عنها النظر .

وصل بنا القطار إلى محطة سنتا كروز (Santa Cruz) في الساعة ٥ و ٥ دقيقة وهي أمام كازينو فندق (Casa del Re) كازديل رى الذى مستزل به فألقينا نظرة عامة فوجدناه حديث النشأة وعلينا أن هذا الكازينو تابع لإدارة هذا الفندق . دخلناه وأعطيت لنا غرف صغيرة ولكنها منظمة ومرتبطة وبعد أن حضر متاعنا نزلنا منها وأنفذنا في طلب سيارة لتحضر إلينا غدا لنذهب بها إلى الأشجار الكبيرة (Gros arbres) وبعد ذلك دخلنا إلى ججرة المائدة فصادفنا أمام بابها موسيق يديرها ثلاثة أشخاص أحدهم يضرب على البيانو والثاني يعزف على الكنتجة والثالث يدق على السمبالون فاقتربت من الأخير وسألته هل أنت مجرى فأجابني نعم فقلت له ما أبعد بلادك عن هنا فرأيت السرور باديا على وجهه لما رأى من اللاتفات إليه وإلى صناعته وسألني هل أحب أن أسمع بعض قطع خصوصية فشكرته قائلا إني أكتفي بما تلمحون على حسب البرنامج الذى وضعتموه وصرنا لانسبح من هذه الطائفة إلا نغمات كألحان السودانيين والكيكوك (Cake Wack)

وبعض مروس فالس ولم نسمع منهم ألحانا مجرية فاقتربت من
المجربى وسألته هل يعرف لحن الجرداش فأجابني هنا ياسيدى
لايجبون مثل هذه الألحان ثم استطرد في حديثه وأخبرنى أنه في الثامن
من هذا الشهر سيحضر ثلاث فتيات ليم بين نظام موسيقاهم وفي
فصل الشتاء يذهبون جميعا إلى لوس انجلوس ليشتغلوا في فندق
اليكستندريا (Alexandria) أما في فصل الصيف فيمكنون عادة
في هذه البلدة وقد أخذ يشكو من حاله ويقول إنه مضى عليه ثلاث
سنوات في هذه البلاد ولم يكتسب شيئا مذكورا لغلو أسعار لوازم
المعيشة وإن الكسب في أوروبا أكثر منه هنا ثم قال ضاحكا نحن
الموسيقيين لانتخدمنا القرص كباقي العمال أو المضارين .

وبعد أن مكثت قليلا معه أسمع من أحاديثه تركته وصعدنا
للنوم . في صباح يوم الاثنين (٣ يونيه) بعد أن تناولنا قهوتنا مكثت
في الفندق إلى قرب الساعة التاسعة وأنا أكتب في رحلتى ولما أتت
السيارة التى كنا طلبناها ركبناها وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى الأشجار
الكبيرة قرب بنا أولا على شاطئ البحر ليرينا بعض منازل الأغنياء ومن
بينها منزل رئيس (شيخ البلد) مدينة سان فرانسيسكو السابق ومررت بعد
ذلك على منار فقال لنا السائق ان الحكومة قررت اتفاق . . . ٢٩٠٠ دولار

لبناء منار آخر أهم وأكبر من هذا . وأخذنا نسير على الشاطئ وهو جميل جدًا وقد أثر ماء البحر في بعض الصخور فحفرت فيها مغارات كبيرة (Grottes) حتى إن بعض تلك الصخور اخترقتها المياه فصارت بكسر طبيعي (كوبرى) وقد مررنا أمام إحدى هذه الجسور (الجارى) الطبيعية وكان مهتمًا فأخبرني السائق أن ذلك من تأثير زلزلة كبيرة حصلت من منذ ٣ أو أربع سنوات فخرت هذا الجسر الذى كان أكبرها وأجلها . وبعد قليل أخذ السائق طريقًا آخر أمام معمل نشارة كبير وعدنا ثانيا إلى وسط المدينة ثم انعطفت شمالا ولم يمض علينا قليل من الزمن حتى وصلنا الى مضيق مكنتف بالأشجار ومنه ابتدأنا نصعد فى طريق غير متظم وصرنا نرى بعض عربات فى طريقنا . وبعد عشرين دقيقة من خروجنا من الفندق وصلنا الى الأشجار الكبيرة ووقفت بنا السيارة أمام منحدر عظيم فنزلنا منها ومشينا فيه بصعوبة الى أن وصلنا الى جسر من الخشب معلق (Pont suspendu) فمررنا عليه ونحن فى وسطه تحت فتاتين أمريكيتين ممتطيتين جوادين وهما من تحت هذا الجسر فأشرت اليهما أن يقفا لأصورهما وهما على هذه الحالة وفى وسط الأشجار قبلا طلتى فرسمتهما بالمصوّر الشمسى وبعد ذلك عبرنا هذا الجسر واستمرنا

في طريقنا قليلا الى أن وصلنا الى أجمة مظلمة لا يسمع فيها أى صوت فرأينا فيها أشجارا هائلة استعير لكل شجرة منها اسم شخص مشهور مثل ليكولن وروزفلت وغيرهما وقد أحصينا عدد أعظمها فاذا هي لا تزيد عن ثمان أو تسع ولكن بجانبها عدد آخر من الأشجار أكبر حجما وأكثر ارتفاعا وهي محاطة بسور ومملوكة لشخص قد أذن بزيارتها لكل من يدفع فرنكين وقد وجدنا في الغابة العامة التي نحن فيها الآن رجلا يبيع بطاقات البريد (كارت پوستال) وأشياء أخرى للسائحين واختار لذلك مكانا تحت ظل بعض الأشجار وأنشأ فيه دكانا من الخشب وضع فيه بعض كراسى لمن يريد أن يستريح عنده فاقترب منا ووجه أنظارنا بإشارته الى سلم يصعد فيه الى ارتفاع بعض أمتار على شجرة مقطوعة وعند مقطعها مكان يشرف على هذه الأشجار الكبيرة التي يدفع من أراد الدخول اليها لمشاهدتها القيمة التي ذكرتنا قبل وقال لنا اصعدوا على هذه الشرفة وانظروا الى الأشجار الكبيرة التي يكتنفها هذا السور اذا أردتم أن تروا بدون دفع شئ فعلنا بإشارته لاسميا اننا عازمون على الذهاب إلى يوزميت قالى وهو مكان به أكبر الأشجار العجيبة .

عدنا بعد ذلك الى السيارة وركبناها وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى الفندق وقد كان هذا الرجل هرما ولا يكف عن الحديث لحظة

واحدة وكثيرا ما اصطدمت سيارته بأشياء صادفتنا في الطريق .
ولما قربنا من طريق نخته هوة هائلة أعرضت عن سماع حديثه حتى
لا أشغله لئلا يوقعنا حديثه في خطر ولما رأى أني لا أكلمه قال لي
ياسيدي مضى على عشر سنوات وأنا أسوق هذه السيارة في جميع
هذه الطرقات ولم يحصل لي والحمد لله ما كثر راكبا فلا تخف إذا
وكن مطمئنا فشركته ولكن ثقته بنفسه هذه لم تجعلني أستمتر على محادثته
بعد ما رأيت من كثرة اصطدام سيارته وعلى ذلك أوصلنا والحمد لله
الى الفندق . وبعد أن تناولنا الغداء دفعنا ملو جب علينا وفي الساعة ١
و ٤ دقيقة ذهبنا الى المحطة واجلين فوجدنا قطارنا مكتظا بالركاب
وهو مركب من ثلاث عربات (Wagon couloir) ويلزمنا أربع
ساعات لتقطع مسافة الستين كيلو التي بين سانتا كروز وسان فرانسيسكو .
تحرك بنا القطار ولما كانت حرارة الجو أشد من حرارة مصر وهنا
الحرية مطلقة فلا تقدر على إنسان فيما يفعله فلم أبدأ من خلع سترتي
من شدة تأثير الحر . دخل قطارنا في وادي الأشجار الكبيرة ثم صار
يمر على جبال عالية وكل خمس دقائق يقف بنا في محطة وهكذا الى
أن وصلنا الى بلدة باجارو الشهيرة بقوا كهها ومنها خرجنا الى سهل به
مستنقعات ترعى فيه أنواع الماشية ثم دخلنا في مزارع خضر لمدينة

فرنسيكو - وبعد ذلك صرنا نرى البحر الى أن وصلنا الى مدينة (Oakland) أوكلندوهي واقعة أمام فرنسيكو . هنا كل الركاب تنزل لأخذ نقالة تجارية توصلهم إلى مدينة سان فرنسيكو ويوجد ست أو سبع نقالات لهذا الغرض تشابه المستعملة في نيويورك أى يمكنها نقل عربات أبيض من الشاطئ الى الشاطئ الآخر فنزلنا في إحداها وكان بها عدد عظيم من العمال والركاب وفي أثناء سيرها تقابلنا بقالات أخرى آتية من فرنسيكو مملوءة أيضا بالعمال الذاهبين الى أوكلاند التي يسكنها كثير من الفقراء أو الذين لا يقدررون أن يسكنوا بسان فرنسيكو لارتفاع أجور المنازل بها ولما كانت الساعة الخامسة كان كل الركاب الذاهبين الى أوكلاند هم العمال الذين نخرجوا من أشغالهم وأرادوا العودة إلى مساكنهم . وصلنا إلى فرنسيكو فوجدناها عظيمة جدا والحركة بها عظيمة فأخذنا السيارة التابعة للفندق الذى سنتل به وسار بنا سائقها إليه فصرنا نشاهد في كل مكان إعلانات عن معرض سنة ١٩١٥ أمامنا ولها في الحقيقة أجمل من منازل نيويورك فان أشكلها شارحة للصدور . وقبل أن نصل إلى الفندق صرنا نصلد تارة في طريق مرتفع وتنزل أخرى في منخفض صحيح لأن مدينة فرنسيكو مبنية على تلال وفندقنا قائم على أعلى تل فيها ولذا كانت سياراتنا تصعد في طريق مرتفع في غاية الصعوبة

وصلنا إلى فندق فايرمونت (Fairmont) فدخلناه فوجدناه على عظمه هادئا ومنظما تنظيما جميلا وأغلب مستخدميه من الأوربيين .
الابعضهم الذين يؤدون الأعمال الشاقة فانهم من الصينيين . بعد أن
كتبنا أسماءنا صعد بنا أحد وكلاء إدارته وأرانا غرفنا فقبلناها
مسرورين ثم تركنا لننظف محل كوك بالهاتفون ونطلب من المدير أن
يحضر إلينا صباحا في الساعة التاسعة .

أتى معاد العشاء فتناولناه وكان لذيذا ولما أردنا النوم وجدنا الحر
قد أطاره من أعيننا فقضيناها ليلة ساهرة حلقنا فيها السهاد الى أن
ابتسم فجر يوم (الثلاثاء ٤ يونيه) فاعترائى من شدة التعب نوبة عصبية
ولما أتت الساعة التاسعة صباحا حضر المستر ستوك (Stokes) مدير
محل كوك ومعه رسالة لى من شقيقى وجلستا معا نتحدث في رحلتنا
وعدلنا في خطتنا بعض التعديل وحذفنا من برنامجنا الذهاب إلى
يللستون بارك لأن مناظرها لا تساوى مشاق الوصول إليها ولم تكن
تستحق ماسمعتها من المدح فيها وعزمنا على أن نقضى في كندا الأيام
التي كنا نريد قضاءها في يللستون بارك .

أنفذنا بعد الظهر في طلب عربة لاندو ولما حضرت ركبنا فيها
وأمرنا سابقها أن يذهب بنا إلى المستراض العام وقد أخذ الحز يعتدل

ووطأة الحر تنخفض قليلا قليلا ولكن السماء كان بها بعض الغيوم ولما كانت الطرقات تارة ترتفع وأخرى تنخفض كان سير العربية بطيئا ولذا قضينا وقتا طويلا للوصول الى المستراض ولما دخلنا فيه وجدناه كبيرا ولكنه غير معننى به كمنزلة شيكاغو — رأينا فيه تمثالين للشاعرين الألمانين الشهيرين جوتى (Goethe) وشيللر (Schiller) (وقد علمنا أن بمدينة فرنسيسكو بحسين ألف ألماني) ثم حديقة يابانية فيها مكان معد لتناول الشاي .

قضينا ساعتين ونصفا في رياضتنا ثم عدنا إلى الفندق وطلبتنا تغيير غرفنا لعل الهواء لا يضرنا علينا بنسيمه الليل فتبدلتنا بها أخرى في الجهة الشمالية وبعد تناول العشاء سعدنا اليها طالين من الله أن يمن علينا بالراحة في هذه الليلة .

أتى علينا والحمد لله يوم (الأربعاء ٥ يونيه) ولما جاءت الساعة الثامنة صباحا ذهبنا إلى محل كوك فوجدت به إشارة برفية بعث بها إلى من الخاصة ولما سألت هل أعدت ما يلزم لسفرنا على حسب تغيير خطتنا علمت أنه إلى الآن لم يتم شئ سوى أنه أعدت لى حجرة (Cabine) بها حمام فى الباطنة التى ستركب فيها الى ألاسكا (Alaska) عدنا بعد ذلك إلى الفندق سائرين على مهل ننظر مخازن المدينة

ومتاجرها الشهيرة وقد اشتريتا في الطريق بعض بطاقات البريد (كارت پوستال) تذكارا لزيارتنا لهذه المدينة وبعد الغداء رأينا أن نذهب إلى شارع پولك (Polk Street) لشراء بعض جراند فرنسية ومنه نذهب إلى أحياء الصينيين ويسمونها المدينة الصينية . ركبا الترام الذي به مقعدان ملتصقان وممتدان على طول العربة فيقعد الركاب بعضهم بجانب بعض وكلما صعد الترام إلى مرتفع يحكم الضرورة دفع الناس بعضهم بعضا من الجهة المضادة لسير الترام ويحدث عكس ذلك عند ما ينحدر وصلنا إلى شارع پولك وقضينا لوازمانا منه ثم اتخذنا طريقنا إلى المدينة الصينية التي فقدت كثيرا من عظمتها بعد أن احترقت إثر ثورة الصينيين وقد قيل لنا إنه قبل حصول هاتين الحادثتين كان يبلغ عدد الساكنين بها ٤٠٠٠٠ صيني واليوم لا يزيدون عن العشرين ألفا أما الأبنية التي تجددت بعد الحريق فانها فقدت بهجة المنازل الشرقية الصينية . وصلنا إلى طريق يذهب بسالكه إلى دكاكين صينية حيث مدخل المدينة فتقدم إلينا شخص أمريكي وأظهر لنا رخصة تسمح له أن يصحب السائحين الذين يريدون مشاهدة ما في هذه المدينة وقال لنا إنه يعلم جميع محباتها وكل شئ غريب فيها يستحق الزيارة وعرض علينا خدمته هذه على أن يكون جعله دولارا عن كل شخص

فقبلنا منه ذلك وأخبرنا أنه مضى عليه ٢٣ سنة وهو يحترف بهذه الحرفة . أخذ يرينا أولاً محل جزار صيني ثم مخبزاً فصيدلية صينية رأينا فيها تماثيل مينة وكذا أفرانخ دجاج وكلها محفوظة في سائل في أوعية وقد علمنا أن الصينيين مازالوا يتبعون أديوتهم القديمة ولم يعتقد خاص في تأثيرها في أمراضهم . دخلنا بعد ذلك في دكان جوهرى والظاهر من الأشياء المعروضة فيه أن الصينيين لا يعرفون من الحلى الا الذهب وحجر اليشب (Jade) ثم نخرجنا منه الى مسكن امرأة مجوز صينية تسكن تحت الأرض هي وبناتها العشر ويستغلن جميعا في ترقيع بعض الملابس ورَقْفها وغسلها على أجرة قليلة جداً وقد رأينا مضجعهن فاذا هو عبارة عن بعض ألواح من الخشب موضوعة بعضها بجانب بعض وفوقها غطاء كبير واحد لجميعهن فرئنا لحالتهن التى تنطق بما هن فيه من الفقر المدقع ثم زرنا باقى الغرف التى فى هذا المسكن وعددها نحو خمس عشرة سعة كل واحدة منها ٣ أمتار طولاً فى نحو مترين ونصف عرضاً ويسكنها شخص أو جملة أشخاص فما أتعسهم . وقد ذكر لنا دليلنا أن شرط أمريكا نجد صعوبة هائلة فى ضبط القتلة الصينيين أو قطاع الطريق منهم وذلك لثلاثة الشبه بين جميع الصينيين ولكثرة أبواب منازلهم الموصلة الى طرق

متشعبة وقد يقتل صنيى شخصاً ويلجأ الى أوى منزل ثم يخرج من الخلف من باب آخر فلا يقف الشرطى له على أثر الصينيون لايساعدون رجال الأمن على ضبط المتهمين ولو كانوا يعرفونهم خوفاً من الانتقام منهم إن دلوا عليهم .

ذهبنا بعد ذلك إلى منزل موسيقى هرم فضرب لنا أولاً على آلة تشبه الصهاثور بقضيين من البامبو (الخيزران) قصيرين أخذ يضرب بهما على أوتارها ثم ضرب على القيثارة ثم ضرب على كنجته التي لا تختلف عن الربابة فى شئ . فبعد أن سمعناه أعطينا له دولاراً وخرجنا من عنده الى مسكن أسرة صينية فقيرة فسمعنا غناء ابنتين صغيرتين وقد ابتدأنا أولاً بالتلعين باللغة الانجليزية ثم باللغة الصينية . ولا ينسى القارئ أن جميع هذه المساكن تحت الأرض وبعد ذلك أراد دليلنا أن تزور مساكن أخرى صينية فأراد الدخول فى أحدها وفى أثناء فتح الباب نخرج عليه صاحب المنزل وطرده فعلبتنا أن هؤلاء المساكن يكثرون من تعاطى الأفيون والحكومة ترى ذلك جريمة تعاقب كل من ارتكبها بغرامة مالية قدرها ٥٠ دولاراً وأظن أن هذا الرجل كان يتعاطى هذا السم القاتل هو وأصحابه داخل المنزل ولما عالج دليلنا فتح الباب حصل لهم خوف شديد وحسبوا أن الشرط

قد باغتهم لضبطهم بفرج صاحب المنزل مترجما وأغلق الباب في وجه
الدليل وهو في أشد الحَقِّ والقارى لا يستغرب ذلك فان مثلهم كمثل
حَشَّاشينا عند ما يهاجمهم رجال (هارفى باشا) فانهم يهرون ولهم في ذلك
طرق شتى ولا يخفى ما يستولى عليهم عادقن الدعر والفرع اذا شعروا بأن
الطارق عليهم هو من الشرط (البوليس) . ذهبنا بعد هذه الحادثة
لزياره معبد صينى في الطابق الأول من أحد المنازل فوجدناه مزخرفا
ومحلى بالأخشاب المكسوة باللون الذهبى فقابلنا الكاهن وأخبرنا أنه
يفتئنا بمستقبلنا بعد أن يؤدى الصلوات اللازمة لذلك فتركناه يعمل
ما أراد ثم قال لنا ما يقوله عادة الذين يدعون معرفة الغيب من تلك
الأقفاظ المحفوظة المعروفة في جميع أنحاء العالم . دخلنا بعد ذلك
في متجر كبير ورأينا فيه أنواع الآنية وثياب الحرائر الصينية ثم زرنا
غرفة تجارتهم وفيها الفصل في خصوصياتهم على يد قضاة يُختارون من
بين التجار المشهورين وهم يفصلون في دعاويهم المدنية وينظرون
في أحوالهم التى تتعلق بقرائهم وأقاربهم في بلادهم الأصلية .
اكتفينا بعد ذلك بما رأيناه من شؤون المدينة الصينية ودفعنا للدليل
جعله وذهبنا إلى فندقنا الذى كان غير بعيد عن هذا المكان .
في صباح اليوم الثانى (الخميس ٦ يونيه) ذهبنا لمحل كوك للبحث

عن رسالتنا ثم عدنا الى الفندق وفي الساعة التاسعة صباحا حضر إلينا المستر ستوك مدير محل كوك ومعه جوازاتنا (تذاكرنا) وبرنامج خطة سياحتنا الجديد وبعد الغداء عزمنا أن نذهب الى المتزه الذي به حديقة الحيوانات فركبنا الترام الموصل إليها وبينما نحن في الطريق إذ عرفنا أن هذا المتزه هو بعينه الذي زرناه بالعربة عند حضورنا الى فرنسيسكو فلم نر حاجة لزيارة مارايناه من قبل فنزلنا من الترام وركبنا آخر أوصلنا الى الفندق ولما كان في نيتنا أن نعود إلى مدينة سان فرنسيسكو بعد السفر منها تركنا من متاعنا ما يلزم غسله حتى اذا عدنا وجدناه مغسولا وبعد العشاء دفعنا ماوجب علينا للفندق وفي الساعة ٨ و ٣٠ دقيقة ركبنا السيارة التابعة للفندق لتصل بنا الى مرسي البواخر الثقالة التي تذهب إلى الشاطئ الآخر لتركب قطارنا من أوكلند وهي المحطة التي أتينا منها وقد كان ميعاد قيام القطار الساعة ١٠ و ١٠ دقائق فعندنا من الوقت متسع ولكنا أسرعنا حتى نأخذ مكاننا في العربة قبل أن تزدحم وننام ولو قليلا قبل قيام القطار فأرسل معنا مدير الفندق خادما ليساعدنا في نقل أمتعتنا وقد تفضل علينا بهذه المساعدة العظيمة لما عرف أننا غرباء من بلاد بعيدة ونحتاج إلى المعاونة . إن وجهتنا هي الذهاب إلى محطة أوكلند لركوب

القطار الذى يوصلنا الى البورتال (BI-Portal) فلم يعرف خادم الفندق الطريق الذى يلزمنا الذهاب منه واتخذ طريقا آخر مضاذا لوجهتنا ولحسن الحظ رأيت مكتب استعلام فأسرت إلى عامله وسألته عن الطريق فقال لى إن الجهة اليمنى خاصة بالطريق الحديدى الباسفيكى والجهة اليسرى خاصة بالسنتافيه (Santa Fé) ولما كنا أتممنا سياحتنا فى الطريق الأخير الذى يذهب إلى جنوب كاليفورنيا عرفت أن طريقنا فى جهة اليمين وفى الساعة ٩ و ٥ دقائق فتح الباب الموصل إلى الرصيف الذى تركب منه الركاب فى البانورة الثقالة وبعد ربع ساعة وصلنا إلى أوكلاند ودخلنا المحطة فوجدنا القطار ينتظر فيها فسلمنا خادم العربة الأسود أمتعتنا الخفيفة وطلبنا منه أن يعد أمتعتنا وفى الساعة ١٠ و ١٠ دقائق تحرك بنا القطار ونحن على أهبة للنوم فى الساعة ٦ من صباح يوم الجمعة (٧ يونيه) كما على استعداد ومرتين ملايسنا فصرنا ننظر لتعلم أى طريق نسلكه فرأينا قطارنا يمشى فى مضيق محاط بالجبال على شاطئ نهر سريع يدعى مرسيد (Merced) نغيبل إلينا أننا فى بلاد سويسرا الجميلة لأن المناظر التى كانت تحيط بنا لا يميل الانسان من رؤيتها غير أن الفرق بينها وبين مناظر الأولى أنها طبيعية ولم تغير يد الانسان خلقتها الأصلية - كما ترى

بين حين وآخر بعض آلات مولدة للكهرباء موضوعة على مجرى النهر السريع ولا بد أنها تدور بدور وتولد قوة كبيرة لسرعة الماء العظيمة . في الساعة ٧ ونصف وصلنا الى محطة اليورتال وقد كانت السماء صافية والجو معتدلا فنزلنا من قطارنا ولا بد دون الوصول الى الفندق من أن نصعد مسافة ٥٠ مترا على أقدامنا فقطعنا هذه المسافة ولما وصلنا الى الفندق دفعنا دولارا عن كل شخص لتناول الفطور قبل الدخول الى قاعة الأكل وهذه هي العادة المتبعة هناك فاخترنا مكانا وجلسنا وقدمت لنا أنواع المأكولات التي كانت في غاية الرذاعة . وبعد أن انتهينا من تناوله سألت في مكتب الفندق هل جامتهم أخبار لها اتصال بنا من المستر ستوك مدير محل كوك بسان فرنسيسكو من جهة إعداد عربة لنا فقال أحد العمال لا . وقال الآخر ربما يكون ذلك ثم تقدم الى شيخ هرم ويده رسالة وقال لي نعم وان أردتم فهي رهن بإشارتكم على تمام الاستعداد فضلت الرحيل حالا حيث إننا متأهبون ولا قلدة لنا من الانتظار فذهب هذا الشيخ وبعد خمس دقائق حضرت العربة ووقفت أمام سلم الفندق الخالص بالمسافرين ولمنع تراحم المسافرين على العربات نصب على السلم حاجز من الحبال في وسطه منفذ يقف عليه أحد عمال الفندق لا يأذن لأحد

في المرور منه إلا على حسب الترتيب وبمقدار العدد الذي تسعه كل
عربة ولما أتت عربتنا أراد بعض السائحين الركوب فيها فتنعوا ونودي
علينا فركبناها ووضعنا حقائبنا وشدت بالخيال حتى لا يسقط منها شئ
في الطريق فسارت بنا العربة في طريق ملك للحكومة صعبة المسلك
لأنها رملية ولذا كنا نسير ببطء مع أن أربعة أفراس كانت تجر عربتنا
وبعد أن قضينا مدة ثلاث ساعات متوالية على هذه الحالة في وسط
مناظر بديعة وسماء رائعة وشمس محرقة وصلنا إلى جسر (كبرى)
في وسط وادي يوزميت قالى على ارتفاع ٤٠٠٠ متر عن سطح البحر
وبعد أن عبرناه وجدنا عددا عظيما من الخيام قدرناه من ٨٠ إلى ١٠٠
خيمة وقد أعطى لهذا المكان اسم معسكر يوزميت وقيل لنا إن جل
سكانه من المشتغلين بأعمال البورصة أصحاب الثروة المتوسطة وقد
أتوا الى هذا المكان طلبا للراحة من عناء الأشغال مدة من الزمن ثم
يعودون بعد ذلك الى أعمالهم الشاقة وبعد ربع ساعة من مزايلة هذا
المكان وصلنا الى فندق سانتنيل (Sentinel) وسمى بهذا الاسم لوجود
صحفة قريبة منه معروفة باسم الحارس (سانتيل) وهذا الفندق مبنى
من الأخشاب على طراز (البانجلوب) فاخترنا غرف ليست ذات
زخرف ولكنها جميلة وقد أعجبنا مناظر هذه الجهة فان موقع الفندق

كان على نهر عظيم يسمى مرسيد ريفر (Mersed River) يتدفق ماؤه الصافي بسرعة كبيرة وحيثما وجه الانسان نظره لا يرى امامه الاخضرة تكسو سطح الأرض أو ماء صافيا يجرى إلى جهات مختلفة وأظن أن هذا الوادي لا يماثله واد آخر لأنه جمع كل المناظر البديعة فينا يرى الانسان مجرى النهر وما حوله من النباتات المختلفة الشكل واللون والأشجار الخضراء الناضرة التي لا يداينها شجر في نضرتها وروتقها البهي يرى جبالا مرتفعة تشرف على الوادي من الجهتين وتسقط من أعلاها مياه عظيمة كسباتك من فضة لامعة تجرى على البساط السندمي وتنصب في هذا النهر العظيم الاساع فكاننا كما في منتزه كبير منسق أحسن تنسيق لا يمكن الانسان أن يتصور أجمل منه .

وقد رأينا بجانب هذا الفندق مكتبا للطرق الحديدية وآخر لرئيس المركز العسكري وخمسة دكا كين للتصوير بالمصوّر الشمسي (الفوتوغرافية) ومحلا لخياط ودكانا للبقالة وهذا كل ما في هذا المكان .

وقد وصلنا الى الفندق نحو الساعة ١١ و ٤٥ دقيقة فلم يبق لنا من الوقت الا مايسع غسل أيدينا وتناول غدائنا وبعد الظهر ذهبنا في عربة الى ضواحيها فمررنا على مكان به ما يزيد عن المائة خيمة يدير شؤونها ويؤجرها للسائحين صاحب الفندق الذي نزلنا به ويدعى

هذا المكان معسكر كارى (Camp Curry) أما أجرة السكن في هذه الخيم قليلة بالنسبة لقيمة الفندق ولذا لم يكن سكانها من الأغنياء ولما كانت هذه الجهة مجموع غابات تملكها الحكومة أذنت لمن يريد أن يضرب خيمته في المكان الذي يحلوه ليقم فيها المدة التي يريد بدون دفع أجر فكارى بين وقت وآخر خيمة أو أكثر تحت ظل الأشجار تسكنها أسرة أو عدة أسر فتتمتع بالمعيشة المادنة وتنقل اذا أرادت الى مكان آخر حيث تطيب لها الإقامة تشبها بمعيشة البدو الصحية السائمة . ذهبنا بعد ذلك لرؤية جزيرتين يطلق عليهما اسم (هاني إسلاند) (Happy Island) يصل اليهما السائح بواسطة جسرين جميلين فأعجبنا موقعهما وهما في وسط النهر العظيم ومنهما انتقلنا الى مكان به ألوف من الصخور وقد علمنا أنه كان مأوى هنود أمريكا يخبئون فيه اذا حزيهم أمر للدافعة عن أنفسهم من إغارة الفاتحين لبلادهم وطلما حصلت حروب هائلة بين الجنس الأحمر والجنس الأبيض انتهت بفوز الأخير وطردهم من هذه البقعة واستتصالحهم من هذه الجهة إذ الذين سلبوا أنفسهم وقبلوا أحكام المغيرين قاموا على أنفسهم بعض الأمن واستخدم بعضهم عند الجنس الأبيض في خدمات حقيرة والبعض الآخر لم يزل محتبثا بين الصخور يقتات من حشائش

الأرض وأسماك النهر وأغلبهم من بقايا قبائل الشوشونية (Shoshones) الوحشية . مررنا بعد ذلك على الاصطبلات التابعة للفندق سانتيفيل وهي تسع ثمانين بغلا وخمسين حصانا كلها معدة للسائحين بأجرة معلومة ومنها ذهبنا الى معسكر به مائة وثمانون جنديا غير الضباط وعملهم مقصور على حراسة هذه الجهة وما فيها وقد كان رؤساء فرق هذه الجنود وكذا الضباط يسكنون متعزلين عن باقي الجنود في مساكن مصنوعة من الخشب (Chalets) أما رئيس هذه القوة فهو ماجور ويسكن بمركز هذا المعسكر القريب من الفندق وبعد ذلك وصلنا الى أسفل جندل يوزميت (Cascade de Iosmite) وماؤه يسقط من ارتفاع ٧٦٠ مترا وهو مقسم الى ثلاث طبقات الطبقة الأولى عمودية وتسمى الجندل الأعلى وطولها ٤٣٨ مترا في عرض ١٠ أمتار ثم تلاقى مسطحا صغيرا في الجبل فتتفرع الى جملة فروع صغيرة وتسقط جميعها عمودية من ارتفاع ١٩١ مترا ويطلق على هذه الطبقة الجندل الوسطى ثم تصادف مسطحا آخر وتسقط ثانيا من ارتفاع ١٣١ مترا وتصب في النهر وهذه الطبقة الثالثة تسمى الجندل الأخيرة مجموعها اذاً هو جندل يوزميت وهو أعظم جندل من جهة الارتفاع على وجه الأرض وقد كنا نرى في كل جهة لوحة

مكتوبا عليها (ممنوع صيد الأسماك قبل أول يوليه) وذلك للحفاظ على الأسماك الصغيرة وقد علمنا أن أنواع السمك توجد بكثرة في نهر مرسيد المذكور . مكثنا قليلا قرب هذا الجندل العظيم ثم عدنا الى الفندق واستفهمت من مديره عما ينبغي زيارته غدا فأخبرني بضرورة رؤية بحيرة المرآة (Lac miroir) والذهاب إليها يكون بالعربة ومنها إلى أمكنة الثلوج (Glaciers) ولكن لوعورة الطريق لا يمكن للعربة الاستمرار في السير من بعد هذه البحيرة ولا يمكن أيضا الإنسان أن يصل إلى هذه الثلوج سائرا على الأقدام لبعدها العظيم فلا بد دون الوصول أن يمتطى ظهور البغال أو الخيل وهذا ما وجدته شاقا ومتعبا فقررت الاكتفاء بزيارة البحيرة

في الساعة ٨ من صباح يوم السبت (٨ يونيه) ركبنا عربة وسرنا في طريق للذهاب إلى البحيرة فصادفنا دبا وحشيا صغيرا يجرى في وسط الأشجار فأوقفنا عربتنا ونزلت مع خيرى بك ثم لحقنا مصطفى بك لعلنا نراه من كَثَب ولكنه ذهب كالمهم مخترقا الأشجار التي كانت تحتها شجيرات وفروع يابسة متواشجة تجعل المرور بينها صعبا جدا فلم نره وناب عن أعيننا فعدنا إلى عربتنا واستمرنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى هذه البحيرة وهي على بعد ستة كيلو مترات ونصف

من شمال فندقنا فرأينا ماءها صافيا ساكا وحقيقية وجدناها كالمرآة ترى فيها صور كل ماحولها من جبال وأشجار وغيرها وهي على صغرها إحدى عجائب الدنيا فيؤمنها كثير من السائحين ولا يرى الإنسان على سطحها أقل حركة تعكس هذا الصفاء فاسمها مطابق لاسمها وبعد أن سرنا على شاطئها تمتع نظرا بهذا الجمال مشينا على الأقدام إلى الأمام وصادفنا جتدين وكلما توغلنا حلالا لنا المنظر فعدنا مسرعين إلى العربة لتذهب بنا إلى اصطبلات الفندق لتؤجر الدواب وننخذ دليلا يوصلنا إلى أمكنة التلوج حتى لا يفوتنا رؤية جمال الطبيعة التي سحرتنا وجعلتنا ننسى كل تعب ولما وصلنا إلى الاصطبلات قيل لنا إنه لا يمكننا الوصول إلى ما نريد قبل ثلاث ساعات وقد كانت الساعة وقتئذ العاشرة أي أننا نصل إليها نحو الساعة الأولى بعد الظهر والعودة تكون من طريق آخر أبعد من الأول ويُقطع عادة في أربع ساعات ونصف فشدت إعجابي بالمناظر التي رأيتها جعلتني أصمم على الذهاب إليها مهما صادفنا من المشاق ولما كان الفندق قد أعد مكانا هناك لراحة السائحين وتناول طعامهم فيه وأنشأ سلكا تلفونيا بيننا وبينه ركبا عربتنا وذهبتا مسرعين إلى الفندق وتكلمنا تلفونيا مع عامل الفندق المقيم بتلك الجهات الثلجية فأخبرناه بأننا سنحضر قرب

الساعة الواحدة إلى أمكنة الثلوج حتى يهين لنا طعامنا وبعد ذلك أخذنا معنا بعضا من الساندويتش ثم عدنا إلى الإصطبلات وركبت أنا ومصطفى بك بغلين وركب الدليل وخيرى بك جوادين فكنا قافلة صغيرة قائدها الدليل وآخرها خيرى بك ومع أنا بذلنا غاية الجهد فى الاستعداد لتسرع فى المسير لم يتيسر لنا مغادرة الإصطبلات قبل الساعة العاشرة والنصف وبعد أن مشينا قليلا وجدت دابة بليدة بطيئة السير جدًا فتبدلت بها دابة مصطفى بك حتى لا أتعب من حثها بالضرب وأتبعنا طريقا ضيقا جدًا تمر منه الدابة بعد أن تلاقى ماتلاقى من المشقة وقد اختاره دليلنا لأنه أقرب طريق يوصلنا إلى غايتنا فى الميعاد الذى حددناه لتناول الغداء . وبعد ساعة من المسير وقف دليلنا بغتة وأخذ يكلمنا وكان غرضه من ذلك أن تستريح الحيوانات قليلا وكما تغلغنا فى الطريق تزداد الصعوبة وتعظم المشقة على الدواب لأننا فى سيرنا صاعدين فصار دليلنا يقف بنا قليلا كلما قطعنا جزءا من الطريق لتستريح الدواب حتى صرنا على ارتفاع هائل من الوادى وصار الناظر كلما رى ينظره إلى ذلك الوادى السحيق تخيل له مناظر الطبيعة الجميلة ولكن ضيق الطريق المخوف بالخطر والخوف من الهوى لا يمكن الراكب من أن يملأ عينه من هذا الجمال التادر فإننا

كأ نسير على شرفات الجبال وتحتنا هوة هائلة رائعة - وصلنا إلى مكان يرى منه الإنسان عن قرب جندل يوزميت كله فازدادت عظمته في أعيننا ثم استمررتنا في طريقنا فإذا نحن أمام ركب من السائحين ينزلون ممتطين ظهور بغالهم ومتبعين الطريق الذي نسير فيه فما العمل إذاً ولا بد أن نحلى لهم الطريق فأراد دليلنا أن يداعبنا بلطائفه فأوقفنا إلى جهة الهوة أى على حافة الجبل فوقتنا على شفير تلك الهلوية وأذن للركب أن يمر آمنة مطمئناً فأقل مصادمة كانت يتبعها السقوط في قرار عميق ولكن الله سلم وعدنا نسير إلى الأمام صاعدين ومتبعين طريقاً كله انعطافات وبينا نحن في طرف منعطف وإذا بيغلين وجوادين مطلقين يسوقها أمامه دليل هندي وهي تعدو أمامه بجميع قواها فتجسم أمامنا الخطر بكل معانيه فأسرع دليلنا ونزل من فوق ظهر جواده وسلم عنان جواده لسائح كان يصعد معنا راجلاً وقد حذوت أنا حذوه ونزلت من فوق دابتي وجعلتها بيني وبين تلك الهلوية أما سائق تلك المطايا المطلقة فإنه أخذ يعدو راجلاً لعله يمنع الخطر ولكن فأت الوقت واختلطت دوابه بدوابنا وقد زاد الطين بلة أنها كانت تقمص وترفس فأصابنا دليلنا رفسة آلمته وداس جواد على قدمي ولم أشعر إذ ذاك بالألم لهول ذلك الموقف الذي ينسى الإنسان

نفسه وقد سقطنا كنا على الأجار وأصابنا من الرضوض ما أصابنا ولكنا حمدنا الله الذى سلنا من مهلكة كانت فالغرة فاهنا لتبتلعنا وكاد يعظم الخطب لولا مساعدة بعض السائحين الذين أتوا لخلصنا بضبط هذه الحيوانات الشاردة وبعد أن مررت هذه الحادثة أخذ بعضنا ينظر إلى بعض نظرات الدهول وكانت حالة مصطفي تدعوا إلى الشفقة وصار يقول إن الحياة ثمينة فالى وهذه المصاعب ولم ألقى بنفسى إلى التهلكة ثم امتطينا ظهور دوابنا وسرنا مجدين فى السير إلى أن وصلنا إلى قمة الجبل فى مكان يدعى نقطة الوحي أو الالهام (Inspiration Point) وهى أرض واسعة مبسوطة فوق ظهر الجبل أقيم على أطرافها سياج من حديدحتى يأمن السائح إذا اقترب من حافة الجبل ويرى منه الوادى من ارتفاع نحو ١٧٠٠ متر وذلك المكان جدير بأن يسمى بهذا الاسم لأن الواقف يشاهد أجمل منظر فإن الجبال التى تحيط بالوادى تكسوها الأشجار ويخللها ألوان الصخور المختلفة وتسقط من رؤسها المياه العظيمة فتكون على سطح الوادى المكسو بالأعشاب والزهور نهيرات تصب فى نهر عظيم يجترق هذا الوادى فاذا كان الواقف شاعرا مجيدا فان مجموع هذه المناظر توحى اليه ماتوحى فيهدى إلى عشاق الخيال الشعرى بديع تصوراته وخيالاته فى وصف هذا

المكان الجميل فيتلذذ القارئ من تلك الصور الشعرية الصادرة من تأثير الجمال فتعنيّت لو كان معنا أشعر شعراء لغتنا العربية المحبوبة حتى يرى بنفسه مآثره ويترك لقرينته الوقادة عنّاها فيتحف أبناء أمتنا بما أملته عليه عجائب الطبيعة وآثار القدرة الالهية فيكون أثرا خالدا مدى الدهر تتداوله الأيدي فنمو الأفكار العالية وتصفو الأخلاق وتمتلي النفوس شعورا بجمال الطبيعة وعظمة قدرة الخالق فيزداد اليقين . بعد إلقاء هذه النظرة مشينا في أرض مبسطة بين مروج نضرة مئة عشرين دقيقة فوصلنا إلى فندق جلاسيه (Hotel Glacier) وهو منزل مكون من جملة غرف مصنوعة من الأخشاب وكان وصولنا إليه نحو الساعة ١٢ و ٣٠ دقيقة فكاننا قطعنا المسافة مع الحلقنا من دواعي التأخير في أقل من ساعتين بغلنا قليلا في ردهة تطل على مناظر بديعة ولما حل ميعاد الغداء ذهبا لتناوله في غرفة ساذجة ولكنها منظمة وكانت نخدمنا خادمة تتكلم جيدا باللغة الفرنسية فبذلت كل مجهودها في إحضار غداتنا على عجل ثم انتقلنا إلى ردهة أخرى وكنا نتمتع نظرا أثناء تناولنا القهوة برؤية الثلوج المترامية على رؤس الجبال وبعد ذلك خرجنا ومشينا على أقدامنا إلى أن وصلنا إلى صحرة بارزة من طرف الجبل وقدرأيت

في أحد الرسوم المعروضة للبيع صورة حمار وبجانبه سائح وفي رسم آخر أحد المشهورين بالألعاب الرياضية تمثله وهو يلعب على الصخرة مايسمونه ايكيلبير (Equilibre) ولم يخش سقوطه فيلما من جراءة أعداء جنونا ومخاطرة أما أنا ومصطفى بك فلم يمكننا أن نقرب ونمشي الى نهاية طرفها . عدنا الى ذلك الخوص (الكشك) ودوناً أسماءنا في الدفتر المعد للزائرين ثم امتطينا دوابنا لنعود الى فندقنا وسرنا في طريق لا يخدر كثيرا مدة نصف ساعة الى أن وصلنا الى شجرتين كبيرتين فرأينا نعل جواد قد ألصق في احدهما بمسارير فقال دليلنا هذا النعل هو تذكار الحادثة وقعت في شهر أغسطس من السنة الماضية وهذه الحادثة هي أنه كان تسعة أشخاص واقفين تحت هاتين الشجرتين يتقون بهما الأمطار الشديدة وبجانبيهم دوابهم فنزلت صاعقة صعقت الدواب وقتلتها ولم يحصل لأولئك الأشخاص أدنى فسيحان المنجي . استمرنا في طريقنا الى أن وصلنا الى مجرى ماء غفصناه ولم تصادف إلا بعض سائحين قافلين وهم راجلون . رأينا في طريقنا جنادل ايليلويت (Hilionettes Falls) وهي عظيمة أيضا ثم أخذنا نصعد ثانية إلى أعلى جبل لزيارة جندل (Nevada) نيقادا وهو أكبر من الجنادل السابقة وبعد ذلك عدنا للتزول ثانيا وقد تعبت

دوَابْنَا من توالى الصعود والتزول ولقينا صعوبة كبيرة في حملها على
المسير ثم وصلنا إلى سهل يجرى فيه نهر وهو المكوّن لجنّدل فيرنال
(Vernal Fall) وأثناء السير كنت أرى أن مصطفي بك يحرك كثيرا
على سرجه حركة الضجر فسألته عن السبب فأجاب ان السروج
الأمريكية صلبة لالين فيها ومؤذية وهو يفضل أن يمشى على رجله
على أن يستمر راكبا فأخذت أسليه بأن الباق لنا قليل فليصبر الى
النهاية ولكن بعد الجنّدل الأخير صادفنا في نزولنا انحدارا كبيرا وما
أصعبَ المرورَ منه فقال كلما قوى رجلاؤنا في التخلص من هذه العقبات
يأتينا شئ جديد مخيف فكأننا لسنا طلاب رياضة وترويح نفس
بل كأننا مكتشفون تركا أنفسنا للقادير . وصلنا الساعة ٥ و ٣٠ دقيقة
إلى أسفل الجبل وكانت عربية (شارابان) بانتظارنا من الجهة الأخرى
من جسر (كوري) جزيرتي هاپي (Happy Islands) فركبتها ولما
استقرينا الجلوس وجدنا القمام غطى ملابسنا أما وجوهنا وعيوننا
فانها تغيرت وصرنا شعنا غمرا من كثرة ما علا وجوهنا من النقع المثار
وعجبنا كل العجب لما وجدنا بنطلوناتنا وأحذيتنا لم تنقطع لأننا كنا
في أغلب الأحيان نمر بين أشجار ذات أشواك حادة كأنها القناد وعند
وصولنا الى الفندق خلعتنا ما علينا من الثياب وأبدلناها بغيرها بعد أن

نفضنا الغبار المتراكم علينا فزال بعد عناء وجهد وقد سارعت إلى الخروج من غرفتي حتى لا أظهر بمظهر التعب وذهبت إلى ردهة الاستقبال التي كانت اذ ذاك خالية من السائحين وأخذت أضرب على البيانو . أما مصطفي بك فاته ذهب الى المصور ليأتي من عنده بصورة له وهو على ظهر أتان ولما أنت الساعة ٣.٠٦ دقيقة ذهبنا إلى المطعم وبعد تناول طعامنا أسرعنا الى غرفنا طلبا للراحة والنوم .

ولما أصبح يوم الأحد (٩ يونيه) ذهبت أولا إلى مكتب الطرق الحديدية لأكون على علم من وجود مجال خالية بالقطار الذي يسافر في يوم ١١ يونيه ثم عملا بمشورة مدير الفندق أوصيت على عربة خصوصية قبل ميعاد قيام السائحين بنصف ساعة للذهاب إلى فوفونا (Wawona) حتى لا يصيبنا ما يؤذي بنا من الغبار الذي يتصاعد من سير العربات . قضينا الوقت الى أن حل ميعاد الرحيل وهو الساعة ١٢ و ٣٠ دقيقة ما بين كتابة مذكرات رحلتي واستراحة قليلة على الأقدام وقبل أن نغادر الفندق شكرت لمديره لما لقيناه من الاعتناء بنا وما وجدناه عنده من أسباب الراحة بالرغم من بعد هذا المكان وقد أظهرت له سروري وإعجابي بموقع هذه البلدة الصغيرة وتمنيت لها مستقبلا حسنا خصوصا اذا اعتنت بتحسين حالها الحكومة

الأمريكية أكثر مما هي عليه الآن ولا أرى سبباً لتركها على حالتها بدون زيادة الاعتناء بها مادامت هي مورداً لزيارة السائحين لجمال موقعها وجودة هوائها ثم افترقنا وأخذ كل منا مكانه في العربة ومشينا في نفس الطريق الذي أتينا منه إلى البورتال . وبعد مئة من الزمن وصلنا إلى مُعْطَفْ جهة الشمال مشينا منه وابتدأنا في الصعود وصار الحزويّ يقف بنا بعد كل خمس دقائق دقيقة لراحة الخيول وقابلنا أثناء سيرنا ضابطاً وسيدة راكبين جوادين ووراءهما عسكري وسيدة أخرى ثم صرنا نرى كثيراً من المنتزهين والمنتزهات خصوصاً في الموقع الذي يسمى مكان المصور المبدع (Point de vue de l'Artiste) وهو أعلى مكان يرى الانسان فيه مناظر الوادي الجميل وقد أتت إليه جملة من المنتزهين ومعهم غداؤهم وفي هذا المكان لا بد أن يجلو الجلوس ويعظم اشتهاؤهم الأكل وقد استحسننا اختيارهم قضاء يوم راحتهم في هذا الموقع ووددنا لو كان عندنا من الوقت متسع لنشاركهم في سرورهم ونجلس ولو قليلاً معهم ولكن المسافة التي يلزم قطعها طويلة فاكْتَفِينَا أن نلقي نظرة عامة على هذا الجمال وواصلنا السير إلى أن قطعنا عشرة أميال ثم انتقلنا من الصعود إلى النزول وحثت الخيول فأسرعت بنا ونحن نقول عسى أن لا تصادفنا عربة في طريقنا ولكنا

لم نتم حديثنا حتى التقينا بعربة في منعطف من الطريق الضيق فأردت النزول لمساعدة الحوذي في اقتياد خيوله الأربعة التي كانت تجر عربتنا فلم يقبل وقال انتظر ستري واذا بالخيول تحركت ووقفت على حافة الطريق وفتح طريق لمرور العربة الأخرى وقد قال لنا سائقها ان ثلاث عربات آتية وراه فانتظرناها الى أن مرت ثم واصلنا سيرنا فصادفنا عربة أخرى خالية من الركاب فمرت من جانبنا من الخارج بسرعة عجيبة وقد رأيت بعيني العجلة الأخيرة تدور في الهواء على حافة الطريق فشعرنا بمقدرة هؤلاء الحوذيين وعظيم جسامتهم وبعد بضع دقائق وقف بنا سائق عربتنا أمام خص (كشك) كبير مهمل وعلى بعد بعض أمتار منه خابيتان مملوءتان ماء فترك الخيول لتشرب منها ثم أعاد السير فقطعنا ثلاثة أميال أخرى ووصلنا الى المحطة التي يغير فيها الخيول وهي عبارة عن اصطبل يسع نحو الخمسين فرسا وهو في منتصف الطريق الموصل الى قوفونا وعند وقوف عربتنا أسرع اليها بعض الخدام فجاءوا خيول عربتنا وأبدلوها بغيرها أما نحن فنزلنا قليلا لازالة ما لحقنا من تراب الطريق وبعد ذلك عدنا وأخذنا مكاننا وسارت بنا العربة وقال لنا سائقها اننا قطعنا الى الآن أربعة عشر ميلا ولم يبق علينا الا ثلاثة عشر ميلا ولما كنا نسير في طريق

منحدر والخيول كانت قوية كان السير سريعاً وصرنا ننظر ما حولنا فكنا لانرى في الغاية إلا أشجاراً بعضها محروق والبعض الآخر مورق وقد مررنا على جملة مجارى مياه كانت تعبرها الخيول بدون تعب الى أن وصلنا الى باب كبير مررتامنه وهوحدّ وادى اليوزميت (Yosemite Vallée) فالتفت إلينا سائق العربيه وقال من هنا تبتدى الأملاك الخصوصيه وكل ماقطعاته كان في أرض مملوكه للحكومة وقد قال لنا ان الفندق الذى ستزل فيه يتبعه ٢٠٠٠ هكتار من الأراضى وان ثمن الهكتار الآن عشرون دولاراً فقلت لرفيقى لو كنت أمريكياً لاشرتيت جزءاً عظيماً من هذه الغابات وجعلته متنزهاً أحضر اليه ومعى أصحابى لقضاء شئ من الزمن في هذا السكون التام فان الطقس في هذه الأمكنة جميل والهواء عليل ورائحة الأشجار والزهور الطبيعيه تنبعث فيستنشقها الانسان بلذة أما تغريد الطيور ونحرير المياه قلنا تشرح القلب وتجلى عنه الهموم . مررنا بعد ذلك أمام خصص (كشك) صغير وبجانبه خيمة بها نقطة عسكريه لحراسة مدخل وادى اليوزميت ثم ابتدأنا نسير في سهل عظيم الانساع الى أن وصلنا الى الفندق الذى ستزل به وهو مجموع منازل صغيره محاطة من كل جهة بالمتزهات والحدائق فقابلنا على بلها مديرها وأوصلنا الى غرفنا في أحد هذه المنازل وبعد

ذلك طلبنا ماء ساخنا لازالة الغبار الذى علق بأيدينا ووجوهنا وبعد أن استرحنا قليلا ذهبنا إلى مكتب المدير للاتفاق معه على المزارات التى يلزم زيارتها وبعد أن أتممت ذلك جلست مع رفيق فى ردهة الفندق الأمامية لرؤية السائحين الآتين وراءنا من اليوزميت وبعد نحو نصف ساعة حضروا فرأيتهم والتراب يكسو أجسامهم والتعب ظاهر عليهم وفى الساعة السابعة مساء تناولنا العشاء ثم خرجنا من الفندق لتسير قليلا على أقدامنا فوصلنا إلى مكان ترعى فيه أبقار الفندق وخنازيره وبعد رياضة قليلة عدنا إلى غرفنا وختمنا نهارنا

فما مبكرين يوم الاثنين (١٠ يونيه) وكان البرد شديدا جدا وانتظرنا لغاية الساعة التاسعة صباحا فأتت العربية التى كنت أوصيت باحضارها فركبتها للذهاب إلى الأشجار الكبيرة وبعد أن تركنا الفندق ابتدأنا نصعد فى طريق ضيق ووديء للغاية بين غابات كثيفة ولم تر شيئا يستحق الذكر مدة ساعة من الزمن إلى أن وصلنا إلى كوخين صغيرين يسكنهما بعض الفلاحين فأوقف السائق العربية وسقى خيوله ثم أعدنا السير وبعد مسير بعض كيلو مترات صرنا نسمع صفيرا كصفير قاطرات الطرق الحديدية فاستنفهنا من السائق عن مبعث هذا الصوت فقال لنا ان هذا صغير آلات قطع الأشجار وقد اشترى هذه

الغابات بعض الأغنياء وهم يتجرون في أخشابها فصرنا كلبا تغفلنا في هذه الغابات رأينا علامات الخراب فان حب الثروة قضى على هذه الأشجار والغريب أنه لا يراعى في تقطيع غابات أمريكا النظام المتبع في أوربا فهنا تقطع الأشجار في كل مكان بدون ترتيب بحيث إن الغابة تصبح مشوهة وتفقد جمالها كله ولا يسأل صاحبها عما يفعله فله الحق في قطع ما يشاء ولو كان ذلك يضر بمجاله الغابة وليس الحال كذلك في أوربا فإنه جعل نظام خاص وقوانين دقيقة للغابات فالحكومة تعين الأمكنة التي يمكن قطع الأشجار منها ولها مراقبون يحافظون على حياة الأشجار الصغيرة منها لتنمو وتأخذ مكان الأشجار التي قطعت وبعد أن ينتهي قطع الأشجار في المكان الذي عينته الحكومة يترك المدة القانونية وينقل القطع إلى مكان آخر فهذه الطريقة لا يرى الإنسان في غابات أوربا ما نراه الآن هنا من الخراب وعدم النظر إلى حياة الأشجار الصغيرة ولم أعلل عدم مراعاة الحكومة الأمريكية لهذه القوانين إلا بكثرة الغابات واتساعها بأمريكا ولكن حتى الشديد لتربية الأشجار جعلني أنكر إطلاق الحرية لأصحاب الغابات إلى هذا الحد فصرت كلما مررت على مكان لحقته أيدي الخراب أتأسف كثيرا .

لقينا كثيرا من العمال الذين يقطعون الأشجار وأغلبهم كانوا إيطاليين أما طريقة نقل الأشجار بعد قطعها فهي سهلة جدا وذلك بأن يأتوا بأشجار بعد قطع أغصانها ويكونوا منها خطا مستقيما مزدوجا ممتدا على الأرض إلى قرب المكان الذي يراد قطع الأشجار منه فتنتقل الشجرة المقطوعة وتوضع على هذا المزلق وبواسطة آلة بخارية لها حبل طويل من الصلب يقرب طولها من ميل وسمكة بوصتان تقربط الشجرة بهذا الحبل وتدار الآلة فتجر الشجرة إلى الأسفل على الحجرى حتى تقرب من الآلة تقربط الشجرة في حبل آلة أخرى وهكذا إلى أن تصل إلى معمل تشذيب الأشجار ونشرها وبعد التشذيب والنشر يلقى الخشب في مجرى نهر يوصلها إلى مكان قرب مدينة فتخزن ومنه ينقل بالطرق الحديدية إلى الجهات المختلفة وقد علمنا أنه بواسطة الأنهر يمكن نقل الأخشاب إلى مسافة خمسين ميلا .

قربنا من مكان الأشجار الكبيرة (ماريبوزا هروف أوف بيج تري) (Mariposa Grove of big trees) ومررنا من باب كبير مكتوب عليه تابع يوزميت فاللى يشبه الباب الآخر الذى خرجنا منه قبل الوصول إلى فندق فوفونا وأمامه أيضا مركز عسكرى وهو معد لحراسة الغاية وبه صف ضابط وثلاثة عساكر والظاهر عليهم أن أشغالهم ليست

كثيرة ولذا رأيناهم اقتنوا في انشاء طرق صغيرة مرصوفة بالأحجار المختلفة الألوان حول خصمهم (كشكهم) الصغير وبعد أن تركناهم بنحو خمس دقائق وصلنا إلى وسط الأشجار الكبيرة الهائلة ولا يظن القارئ أن المراد بكبرها أنها طويلة عظيمة الارتفاع فقد رأينا بعض الأشجار التي لاتعد من طبقتها أطول منها بكثير بل المراد بكبرها أنها بلغت من العمر عتيا حتى صارت ضخمة جدا فأغصان بعض تلك الأشجار أضخم من الأشجار العادية التي يستعظمها من لم يشاهد تلك الأشجار الكبيرة فررنا أولا على ثلاث شجرات هائلة في مدخل الغابة اسمها الحزاس الثلاثة ثم رأينا على بعد منها شجرة يابسة ملقاة على الأرض لا يمكن لمن لم يرها أن يتصور مقدار كبرها فإن جذعها إذا مر بجانبه فارس ووقف على ظهر جواده ورفع يديه فلا يمكنه أن يمس غايته وكفى لإظهار جسامه هذه الشجرة أن رأينا في أحد الرسوم المعروضة للبيع عربية يجرها فرسان فوقها فحلتها شارع يسع مرور العربات فأسرعنا إلى الصعود عليها وصررت بألة التصوير صورة لرفيق فلم تكن صورتها بالنسبة لصورة جذور الجذع شيئا مذكورا وهذه الشجرة يطلق عليها اسم الملك المخلوع أو أب الغابة (Le roi détroné ou le père de la forêt) وكان ارتفاعها بالغنا على

ما يقال ١٣٣ مترا وطول محيطها خمسة وثلاثين مترا أما نوع هذه الأشجار فإنها تشبه أشجار الصنوبر ولكن حجم إحداها يبلغ نحو أربعة أمثال حجم شجرة الصنوبر وقد رأينا أن جلفها محروق من أسفله وأظن أن ذلك ناشئ من عدم العناية بحراستها وقبل ستين سنة كانت الهنود تضرم النار فيها عمدا . استمر سائق عربتنا في طريقه إلى أن وصلنا إلى شجرة نُحِت في جوفها نفق ارتفاعه ٣ أمتار وعرضه كذلك فمررنا من هذا النفق بعربتنا دون أن نصادف عائقا وكان طوله ثمانية أمتار وتسمى هذه الشجرة كاليفورنيا (California) فقال لنا السائق انتظروا فسترون ماهو أعظم منها وحقيقة عند ما وقف بنا أمام الشجرة المشهورة باسم جرizzly (Grizzly Giant) اعترتنا الدهشة من جسامتها فإن ارتفاعها يبلغ الثمانين مترا ومحيطها ٣١ مترا وقطر محيط دائرتها تسعة أمتار وعلى بعد ستين مترا من الأرض رأينا أحد فروعها عموديا عليها فقد نشأ من اتصاله بها زاوية قائمة وهو ضخم جدا يبلغ قطر دائرته مترين على الأقل فنزلنا ووقفا بجانبها فشرعنا بضعفنا أمامها وتعجبنا من قوة الأرض وكيف تُثبت مثل هذه الأشجار النادرة ولما رأى سائق عربتنا ما نحن غارقون فيه من لبح العجب قال لنا اركبوا فسأريكم أيضا أعظم منها فشى بنا في الطريق الموصل إلى أعلى الغابة (Upper Grove)

فوجدنا بها مئات من هذه الأشجار الكبيرة فألقت نظرنا إلى ثلاثة منها
يسمونها شجرات الرحمة (Les trois graces) ثم إلى اثنتين إحداهما
ملتحمة بالأخرى و يطلق عليهما اسم الأمتين (Les deux fidèles)
وهكذا صار يشير الى كل شجرة ويذكر لنا اسمها فلم يترك أحد من
مشهورى عظماء الأمريكيين سواء كان من أعظم قوادها أو من
فطاحل كتابها أو من دهاة حكامها أو من رؤساء جمهوريتها إلا وسميت
شجرة باسمه كذلك أسماء المدن العظيمة الأمريكية أطلقت على بعض
أشجار منها كمدينة سان فرانسيسكو ونيويورك وغيرهما . ولما أن فرغنا
من رؤية هذه العجائب ذهب بنا السائق إلى خص في وسط الغابة
أجرته الحكومة لشخص يديره و يبيع فيه صور الأشجار وأوعية وعصياً
مصنوعة من خشبها بجلستا في مكان جميل ووضعنا بيننا ما أحضرناه
معنا من غدائنا وأكلنا باشتهاء ثم قدم لنا صاحب الحصص قهوة لذيذة
فشربتها وفي نحو الساعة الثانية عشرة والنصف عدنا الى عربتنا
وسارت بنا إلى أعلى قمة في الجبل فوصلنا إليها وإذا هي على ارتفاع
٧٥٠٠ قدم من سطح البحر فألقينا نظرة على ما يكتنفنا فأعجبنا رؤية
الجبال المكسوة بالأشجار ثم سرنا إلى شجرة تدعى فوفونا (Wawona)
وهو اسم الوادى الذى به الفندق الذى نحن نازلون به ثم ذهب بنا

إلى شجرة تدعى التيليسكوب (المنظار المعظم) وحقيقة ينطبق هذا الاسم على المسمى فان قلبها كان خالياً فنزلنا ودخلنا في جوفها ونظرنا فوقاً فرأينا السماء ولا يستغرين القارئ ذلك فإنها كانت أحرقت فلم تؤثر النار إلا في قلبها فجعلته رمادا ومع توالى الزمن وتأثير الأمطار مع قيامها على هيئة عمود صار هذا القلب المحروق يتساقط شيئاً فشيئاً إلى ان آلت إلى هذا الشكل واستحقت اسم التيليسكوب . أتممتنا رؤية الأشجار الكبيرة الخائلة وأمرنا سائقنا أن يعود بنا إلى الفندق وفى الطريق قابلنا ثلاث سيدات تحت شجرة وكانت إحداهن راقدة على الأرض وقد خلعت ثعلبها وكشفت عن رجليها لأنهن قطعن الطريق من يوزميت قالى إلى هنا راجلات فلقين من سفرهن هذا نصبا فلم تستطع إحداهن من شدة الإعياء الاستمرار على المسير فألقت بنفسها على الأرض تحرسها زميلتها حتى تصادفهن عربة فتحملهن إلى مكان أمين . عدنا إلى الفندق بعد ساعتين من قيامنا من المكان الذى تناولنا فيه غداءنا وقد كنا قطعنا هذه المسافة فى الذهاب فى أربع ساعات وذلك لأنه فى العودة كان الطريق منحدرًا جدًا فالتحليل تسرع فى المسير .

إن هذه الاستراحة قد شرحت صدورنا بما شاهدناه من عجائب

خلق الله ولو أن طريقها كان متعباً جداً والتعب كان يشور علينا كثيراً
فإن رؤية هذه الأشجار الضخمة الهائلة تنسى الإنسان كل ماقيه من
النصب .

قضينا وقتنا بعد هذه الرياضة في إمطة مالحقنا من التراب ثم في كابة
مذكرات رحلتى إلى أن أتى معاد العشاء فتناولناه ثم خرجنا وجلسنا
في ردهة الفندق وقابلنا الوافدين من السائحين من يوزميت قالى فكان
عددهم خمسين أتوا راكبين في خمس عربات ويجرد وصولهم انفصل
منهم ست سيدات وثلاثة شبان ركبوا سيارتين أعدتا لهم دون أن
يتناولوا شيئاً من الطعام وساروا في طريقهم وقد أخبرنى مدير الفندق
أن هذا الجمع كله تلاميذ وتلميذات ولا يعرف أحد منهم الطريق
ولم يكن معهم من يرشدهم اليه فلم أستغرب هذا الجنون وهذه
المجازفة منهم فإن الطيش أعمى بصيرتهم .

دخلنا بعد ذلك في بهو فوجدنا آتسة قد بلغت غاية الجمال تعزف
على البيانو فلذ لنا السماع وقد يحلو للإنسان سماع صوت الموسيقى
خصوصاً في الأمكنة الهادئة ثم ذهبنا إلى غرفنا مسرورين ونمنا وأصبحنا
في يوم الثلاثاء ١١ يونيو مستعدين للسفر إلى سان فرانسيسكو وكان الميعاد
المحدد لقيامنا منتصف الساعة الثانية عشرة قبل الظهر فقضينا وقتنا

في رياضة على أقدامنا حول الفندق كما في خلالها نرى السائحين
 الذاهين إلى الأشجار الكبيرة وكأية مذكراتي وقبل أن يحل ميعاد
 السفر أكلنا ماطاب لنا من الطعام وفي الساعة المحددة ركبا عربتنا
 ووجهتنا محطة البورتال والطريق معلوم لنا لأننا حضرنا منه وقد كان
 سائق عربتنا هو الذي حضر معنا من يوزميت وهو الذي ذهب معنا
 البارحة إلى الأشجار الكبيرة وهو شيخ هرم مضى عليه أكثر من
 ٢٨ سنة وهو يشتغل بهذه المهنة وقد ذكر لنا مفتخرا أنه كان سائق
 عربية الرئيس روزفلت والرئيس تافت عند زيارتهما لهذا المكان وقال
 إن الرئيس تافت ضخم جدا حتى إنه جلس مكان اثنين في العربية قال
 ذلك وقد ملكه الضحك لأنه تذكر أن هذا الرئيس لما أراد أن يذهب
 إلى أمكنة الثلوج (Glacier Point) لم تستطع دابة أن محمله وتذهب
 به إلى أعلى هذه الجبال فاضطر أيضا أن يقطعها راجلا فكان هذا
 السائق يسلينا بلطيف مسامرته لولا أنه يبصق كل لحظة فكنت أشمئذ
 من حاله ولكن لا سبيل إلى اجتناب هذه العادة القبيحة منه وقد
 تمكنت في نفسه

إن الخليل التي كانت تجر عربتنا هي الخليل التي جاءت بنا من وسط
 طريق وادي اليوزميت ولكن عند حضورنا كانت طريقنا متعذرة

فقطعت المسافة في ساعة ونصف أما ونحن عائدون منها فإننا نصعد ولذا قطعناها بعد مشقة وجهد في ثلاث ساعات ونصف ولما كانت الطريق مضمعة بالتراب وقد عرفناها من قبل أعددنا لها عتتها وارتدى كل منا ما كينشوشة (معطف واق من المطر) وقد وقفنا في المكان الذي استبدلت فيه الخيل في المرة الأولى واستبدلت خيولنا وسرنا في طريقنا الذي يخدر الآن وبعد ساعة وثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى وادي اليوزميت ولم نصادف في طريقنا شيئاً غير الذي ذكرناه قبلاً يستحق أن يذكّر غير أن السائق سأل هل ستحضر عربية أخرى لتذهب بنا إلى البورتال فأمر بأن يستمر في سيره إلى النهاية فاتباعاً للأمر سار بنا إليها وكانت المسافة الباقية للوصول إليها ١٢ ميلاً وكنا نبيع مجرى النهر العظيم ولحسن حظنا وجدنا الطريق مرشوشاً فلم نلاق في عودتنا ما يكدر بصفاءنا وقد قابلنا وكيل شركة العربات يسوق بنفسه عربية قد ركب فيها بعض سيدات ورجال فعرقتي وحياتي فقلت للسائق إن هذا الوكيل يستريض مع أسرته اليوم فقال لا ياسيدي انه ينوب عن سائق لأن كثيراً من السائحين حضروا ولم يكن عدد الحوذيين كافياً فاضطر أن يسوق عربية حتى لا يضيع زمن على أولئك الركاب في عربته وقد أثبت قوله هذا أننا بعد مروره قابلنا عربية ثانية

ثم ثلاثة فسألنا سائق الثلاثة هل تأتى بعده عربات فأجابنا إن العربات الآتية وراءه خمس عشرة وكلها مملوءة بالسائحين .

وصلنا إلى اليورتال في الساعة ٦ و ١٥ دقيقة مساء فقطعنا الطريق ما بين فوفونا واليورتال في نحو سبع ساعات وقد لقينا من سفرنا هذا نصبا لأننا كنا جالسين طول هذه المدة وأيضا لانحدار الطريق كانت العجلات مقيدة فكان لصوتها تأثير سيئ في أعصابنا ثم دخلنا الفندق وذهبنا مسرعين إلى محل غسل الأيدي وأزلنا الملحقا من الغبار وبعد ذلك تناولنا عشاءنا وهوسنا أشبهه ثم ذهبنا إلى المحطة لئرى هل أعدت لنا محال في القطار فلقينا ذلك الزنجي الذي كان معنا في القطار عند حضورنا فتقدم إلى وقال إنه عند هذه الليلة فأخبرته أننا أيضا نساغر معه وقد استفهمت من محل بيع التذاكر هل جاءتهم تنبيهات من كوك تتعلق بنا فأجبت بأن تذاكرنا حاضرة وقد دفع ثمنها فسلمتها وفي الساعة ٨ حضر قطارنا فأخذنا مكاننا فيه وقد كان الحز شديدًا جدًا وبعد ربع ساعة تحرك بنا القطار وقد قضيناها ليلة ساهرة وما أنت الساعة السادسة من صباح يوم الأربعاء ١٢ يونيه حتى كما مرتدين ملابسنا وبعد مدة قصيرة وقف بنا القطار بمحطة أوكلند (Oakland) وهي التي تركب منها في البخرة الثقالة للذهاب إلى سان فرانسيسكو فأسرعنا في نقل متاعنا

اليها حتى تدرك مكاننا لنا فيها لأن هذه الساعة هي ميعاد ذهاب العمال إلى سان فرانسيسكو فالزحام يكون عادة شديدا فسارت بنا إلى أن وصلنا إلى الشاطئ الآخـر وركبنا سيارة فندق فيرمونت Fairmont التي كنا نزلنا فيها في المرة الأولى وأوصلتنا إليها نحو الساعة التاسعة صباحا وقد أعطيت لنا الغرف التي كنا نزلنا فيها أيضا فسررنا وحمدنا سررنا حيث وصلنا إلى هذه المدينة بعد التعب الشديد فرأيت أن أبتدى أؤلا بدخول الحمام الساخن ليذهب عني ما أشعر به من مشاق السفر فأسرعت إلى الدخول وكنت أظن أن حقيقتي التي بها ملابسي الداخلية قد أحضرتها معنا في السيارة ولكن خاب هذا الظن فاني بعد ما اغتسلت وأردت أن أرتدى ملابس نظيفة لم أجد الحقيبة فاضطرت أن أتأزر بإزار وأرتدى برداء كما يفعل ذلك العاملون في حمامات مصر واضطجعت على سريري منتظرا رحمة من سيحضرها إلى فطال انتظاري بدون جدوى فتكلمت بالهاتفون مع مدير الفندق وطلبت منه أن يسرع بإرسالها وبعد مرور ساعة وأنا من طول الانتظار على أحر من الجمر أتت الحقيبة ولكن بعد أن ملكني سورة الغضب ولم ينصرف عني إلا بورود تليفراف من صاحبة الدولة والذقي يبشرني بتمام صحتها التي أرجو من الله دوامها فانقلب الكدر سرورا ونسيت

كل ما كنت أجد من الكدر وبعد تناول الغداء أُجبت دولتها بتلغراف وفي منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر حضر المستر ستوك مدير محل كوك بسان فرنسيسكو وأحضر إلى تذاكر السفر وخطة باقى السياحة فسردت له مآلقته من حسن العناية فى كل الأمكنة التى زرتها وذلك بفضل رسائله التى كانت تسبقنا إلى كافة مديرى الفنادق وغيرهم بالتوصية علينا لعمل كل ما فيه راحتنا وشكرته كثيرا وبعد انصرافه ركبنا سيارة وذهبنا إلى مكتبة فرنسية لشترى منها بعض جرائد أوروبا لنقف منها على الأخبار وبعد رياضة قليلة عدنا إلى الفندق لكاتبه مذكراتى وبذا انتهى أول يوم بهذه المدينة العظيمة وفى صباح اليوم الثانى (الخميس ١٣ يونيه) لم نعمل شيئا يستحق الذكر إلا أنى ذهبنا ومعى مصطفى بك إلى داخل المدينة لشراء بعض أشياء مثل بطاقات البريد (كارت پوستال) وبعض صور وغيرها ولما عدنا إلى الفندق وجدنا فى ردهته عددا عظيما من اليابانيين واليابانيات ومعهم بعض الأمريكين فعلينا أنهم تابعون لجمعية الصليب الأحمر اليابانية وقد حضروا إلى هنا لحضور حفلة تكريم أقيمت لهم وتناول الغداء على مائدة الفندق فصرنا نراهم وهم يحيون بعضهم بعضا ويخنون انحاء العظیم والاحترام وذلك على حسب عاداتهم المتبعة فى بلادهم . أما

ما بعد ظهر اليوم فقضيته في التجوال في أحياء المدينة راجلين وقد شعرنا بالسآمة من الإقامة فيها .

ولما أتى (يوم الجمعة ١٤ يونيه) استفهمت من محل كوك هل وصلته رسائل لنا فعلت أنه لم يصل إليه شيء من ذلك وفي منتصف الساعة الحادية عشرة غادرنا الفندق قاصدين السفر إلى پورتلند (Portland) فأخذنا متاعنا وركبنا السيارة فأوصلتنا إلى مرمى البانحة النقالة التي تذهب بنا إلى أوكلند وهي المحطة العامة التي يسافر منها السائح إلى الجهات التي يقصدها وقد سبق الكلام عليها عند سفرنا في المرة الأولى من سان فرانسيسكو إلى يوزميت قاللي

وصلنا إلى المحطة قبل تحرك القطار بنصف ساعة فأخذنا مكاننا فيه وقد كان عدد المسافرين عظيماً جداً ورأينا بعضهم وعلامات الفقر ظاهرة عليهم فصرت أقول من أين تأتيهم الدراهم حتى يتنقلوا ويسافروا على قُطُر أجورها غالية أما كان الأولى لهم أن يصرفوها في تحسين أحوالهم وقد رأيت بينهم أشخاصاً تدل هيأتهم على الشرّ فإن ملاحظهم كانت تشبه ملاحظ سفاحي الدماء وقاطعي الطرق ولا يجب فإن أميركا يلجأ إليها كثير من أمثال هؤلاء الأشرار الذين يهربون من بلادهم فراراً من القصاص وهرباً من يد القانون وقبل تحرك قطارنا

بمخمس دقائق رأينا علما يتدفق كالسيل للركوب فيه فاستفهمت من خادم عربتنا عن سبب سفر هذه الجموع فأخبرنى أن هذا القطار هو أسرع القُطُر التي تسير على هذا الخط فإن المسافة الشاسعة التي يقطعها في ٣٢ ساعة تقطعها سائر القُطُر الأخرى في ثمان وأربعين ساعة .
تحرك بنا القطار قرب الظهر وأهم مدينة مررنا عليها قبل أن يرمى الظلام سدوله هي مدينة ساكرامنتو عاصمة كاليفورنيا

وفي صباح يوم السبت (١٥ يونيه) كنا نخترق ولاية أوريجون (Oregon) وكان طريقنا بين الجبال وكما بين وقت وآخر نمر بمضيق وكان سيرنا بجانب نهر ساكرامنتو (Sacramento) فلم نحرم من المناظر الطبيعية الجميلة أما الغابات فكان يظهر عليها أنها مهملة لأننا لم نلمح فيها طريقا مستظلا وقد رأينا كثيرا من مناجم النحاس فإذا هذه المقاطعة غنية بمعادنها وقد رأينا أيضا كثيرا من قطعان الحيوانات ترعى بجانب النهر وعلينا أن عددا عظيما من المهاجرين يفد إلى هذه المقاطعة للإقامة بها ويظن أنها مع الزمن ستصبح من أهم المقاطعات عمرانا .
وصلنا إلى مدينة سالم (Salem) وهي عاصمة ولاية أوريجون وهي مشهورة بكثرة معاملها وفي منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر وصلنا إلى مدينة پورتلند وكان عدد الراحلين منها والوافدين إليها من السائحين

كثيرا جدا فشرعنا بانها إحدى المدن المهمة وبيننا كما نتجت عن
سيارة الفندق الذي استزل فيه تقدم إلينا شخص يادن الجسم فسألنا
هل المستر (بيك) (Bey) بيننا (لقد حسب الامر يكون أن كلمة
بيك اسمى) فقلنا له نعم فذكر أنه يقصدنا فتعرفت إليه باسمى المستعار
الذى كنت أسىح مسمى به فقال إني حضرت بسيارة خصوصية لكم
وإنى أسف لوصولى إلى المحطة متأخرا وكنت أود أن انتظركم حتى
لا تلاقوا أى تعب فشكرتموكم بالسيارة فعرفنى بأنه مدير فندق مولتنومه
(Multnomah) ثم أمر السائق أن يسير فرأينا أن الطريق مزين بالأعلام
والزهور فسألته عن السبب فقال إن اليوم عيد الزهور وقدموكم مبارك
ولما وصلنا الفندق صعد معنا إلى الغرف التى كان أعدها لنا من قبل
فى الطابق الثانى فأعجبنا وبعده أن مكثنا بها قليلا من الزمن نزلا إلى ردهة
الفندق العامة فوجدناها قدملثت بالجالسين وعلما أن الدخول هنا مباح
لعامة الناس كفنادق نيويورك فأى شخص له أن يحضرو ويجلس مع رفقاءه
وأصدقائه ولولم يكونوا نازلين بالفندق ثم رأينا فى نهاية السلم الموصل للطابق
الأول رجة تدور حول غرف هذا الطابق وتطل على الردهة العامة وبها
جملة كراسى الجالس عليها يرى الداخل والخارج من الفندق وأمام
كل كرسى سماعة تلفونية توصل له أنغام موسيقى ملهى المدينة الشهير

ويسمع منها أدوار الغناء وبجانب كل سماعة برنامج القطع الموسيقية وميعاد التلحين وهكذا يمكن لأيّ إنسان أن يحضر ويسمع كل ما يدور في هذا الملهى بدون دفع أجرة . وهذا ليس بالشئ الغريب فإن في باريس محلا خاصا يدعى تياتروفون (Théatrophone) به مثل هذه السماعات التليفونية أما بإحاطة الدخول للعامّة في هذا الفندق فالغرض منه جلب السائحين إليه بواسطة سكان المدينة الذين لا بد أن يصفوا لأصحابهم وأقاربهم محاسن هذا الفندق وما هو عليه من النظام ويرغبوهم في النزول به عند حضورهم إلى مدينة پورتلند وقد تم لهم هذا الغرض لأن هذا الفندق على حدّائة عهده قد نال شهرة عظيمة جعلته محط رحال السائحين .

أو صينا على سياره فأتت وكانت أجرة ثلثة دولارات ونصفا في الساعة فركبتها وأخذنا معنا دليلا ليرينا المدينة وقد أغتمتنا فرصة صفاء الجو لرؤية كل ملتهم رؤيته لأننا كما سمعنا من قبل أن الأمطار قلما ينقطع انهمارها في هذه المدينة فذهبنا أولا إلى الأحياء الجديدة ووجدنا منازلها مصنوعة صنعا جميلا من الأخشاب وكلها محاطة بالبساتين ثم مشينا بجانب نهر ويلاميت (Willamette River) الذي يخترق المدينة ورأينا عليه أربعة جسور (جبارى) وهم يشتغلون

في إنشاء خامس وقد تقدمت المدينة تقدماً بينا فإنها في سنة ١٩٠٠ كان عدد سكانها لا يتجاوز ١٠٠,٠٠٠ نسمة وقد أصبح اليوم يزيد عن ٢٢٠,٠٠٠ ولكن جل سكانها من الألمان وقد يوجد بينهم ٣٠٠٠ صيني وسبب اتساعها أنها متصلة بالبحر وهي ملتقى جملة خطوط حديدية والتجارة منتشرة فيها انتشاراً عظيماً خصوصاً تجارة الدقيق والأخشاب وما يصنع منها أما معامل الجعة (البيرة) ومصانع الحبال فعددها عظيم وبينها وبين الصين واليابان مبادلات تجارية بطريق البحر وقد قدرت قيمة تجارتها العامة السنوية بمبلغ أربعين مليون دولار .

ذهبنا بعد ذلك لرؤية دار البلدية والغرفة التجارية ودار البريد العام والمحاكم ودار التمثيل (الأوبرا) وغيرها وكلها أبنية شاهقة وبعد ذلك قربنا من الميناء فوجدنا بها دارعة أمريكية اسمها ماريلاند (Mariland) مزينة بالأعلام المختلفة الألوان ويزورها جم غفير من أهل المدينة والسرور باد على محياهم لما وصلت إليه بلادهم من القوة والمنعة وفي اشراك الحكومة في إقامة معالم الزينة على إحدى مدرعاتها والاذن لرعاياها بزيارتها دليل قطعي على شدة حرصها على مراعاة شعور الأمة ومشاركتها في أفراحها وما جعلت زيارة هذه المدرعة مباحة إلا

لاستجلاب محبتهم وتقوية الرابطة بينهما وبينهم وتُظهر لهم أن الحكومة مجتدة في حفظ مكاتبا بين الأمم وهذه القطعة الحريية ماأُنشئت إلا بأموالم للدافعة عنهم ولصد كل عدو يريد التعدى عليهم فيمثل هذه الأمور تنق الأمة بحكومتها ويترى الحب الصحيح مع الاحترام لها في قلوب رعاياها كذلك يمثل هذه المظاهر يسهل على رجال الحكومة جباية الأموال لأن الشعب يشعر بضرورتها وشدة الحاجة إليها فيدفعها عن طيب نفس .

ذهبا بعد ذلك لرؤية حتى يسكنه الأغنياء ولكننا لم نرفيه عظمة المنازل التي رأيناها في (لوس انجلوس) أو في (سادينا) وقد كما سمعنا أن مدينة بورتلند مشهورة بكثرة أنواع الورد فيها فأخذنا نبحث عن هذه الشهرة لعلنا نحقق من صحتها فلم نجد لها أصلا وما يوجد في بساتينها من الورد لا يقاس بما يوجد في جنوب كاليفورنيا فحملنا هذا أيضا على مغالاة الأمريكين . استمررنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى حديقة (City Park) ورأينا فيها مكانا يشرف على منظر المدينة يمينتها ونهرها والجبال التي تحيط بها وقد خيل إلينا أن المدينة يسكنها مليون من النفوس وذلك لأن شوارعها المتسعة ومنازلها المحفوفة بالبساتين جعلتها كبيرة وعظيمة الاتساع . دخلنا الحديقة

فوجدناها حديقة عادية ولم نرفيها ما يستحق الذكر إلا مكانا معدنا
للحيوانات به أربعة من الجاموس الوحشى فقادرناها مسرعين إلى
ال فندق وبعد تناول العشاء صعدتُ إلى غرقى لأستريح وتركت زميلتى
يذهبان لرؤية عيد الكارفال . وفى صباح يوم (الأحد ١٦ يونيه)
سمعت منهما أن الزحام كان شديدا حتى إن القوى يأخذ فى وجهه
الضعيف ولا حاكم هناك إلا القوة فكان النظام مختلا والقوضى عامة
وقد رأيا كثيرا من الشبان يحمل كل واحد منهم على كتفه فتاة تصيح
إذا رأت أنها على وشك السقوط من مكانها المحبوب ومع ذلك
لا يلتفت إليها ولا إلى استغاثتها فيأويج من كانت فى مثل حالتها إني
لتأخذنى الشفقة على قتي يحمل عادة على كتفه فى وسط هذه الجموع
الذين لا يراعون حرج موقف أمثال هذا القتى الذى ندم على زيادة
تلطفه وتقربه من الغادات الحسان وأظنه إن سلم فى ليته هذه فلن
يعود إلى مافعل ولو كانت الآنسة أجمل النساء . أما مصطفى بك
فإنه فقد نفسه فى هذا السيل الجارف فاستغاثت بزميله فانتشله بعد
عناء كبير ورجع الاثنان راضيين من الغنيمة بالإياب .

إن مثل ذلك يحصل عادة فى أيام الأعياد فى جميع أنحاء الدنيا فما
بالك فى بلاد الأمريكيين والحرية فيها مطلقة لا حد لها وعدم المبالاة

من عواندهم وقد شهد رفيقاي مع مالقيا من الشدة في هذا الزحام بأن ماراً ياه من المعروضات يستحق الإعجاب فقد كانت العربات مزدانة بأنواع الزهور المختلفة الجميلة وقد صوّرت أنواع الطيور مجسمة وكذا بعض الحيوانات كالقيل وغيره وكل هذه الصور قد وضعت على عربات وغطيت بالزهور والحشائش فلا يراها الإنسان وتلك العربات تسير على طريق الترام بقوة الكهرباء مضاءة بأنوار متلاثة ساطعة فكان الإتقان بالغاً حدّه وحسن الذوق آخذاً نهايته .

خرجنا قبل الظهر راجلين للاستراحة ولما عدنا إلى الفندق وجدت رسالة من الأستاذ سان ساين (Saint Sains) ووجد خيري بك رسالة من أخيه علمنا منها بعض أخبار بلادنا العزيزة وفي الساعة الثالثة بعد الظهر ركبنا سيارة وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى الخلاء لتشتشق الهواء النقي فصادفنا في طريقنا جمعا كبيرا يرقضون أنفسهم بالألعاب المختلفة ولما خرجنا من المدينة ورأيتُ الطقس معتدلا أمرت السائق أن يستمر في طريقه متبعا مجرى النهر بعد ما علمت منه أنه يمكننا أن نسير في هذا الطريق المنظم مسافة ٨ أميال وقد مررنا على بعض مصانع صغيرة يشتغل فيها بعض المحكوم عليهم بعقوبات خفيفة .

عدنا إلى الفندق مسرورين من رياضتنا نحو الساعة السادسة وفي صباح يوم (الإثنين ١٧ يونيه) أخذنا نعدّ أمتعتنا استعداد للرحيل وقد كان الحر شديدا حتى عجبنا من بلوغه إلى تلك الدرجة من الشدة في مثل هذه البلاد وقد سألتنا بعض الأمريكيين عن حالة هذا الطقس فقالوا لنا إنهم لم يروا مثل هذا اليوم المحرق . وفي الساعة ٢ وربع صبحنا مدير الفندق إلى المحطة ليودعنا فأخذنا مكاننا في العربة ولكننا لم نطق شدة الحر لضيق الغرفة المعتدلة فامرعنا إلى العربة المكشوفة (Observation Car) لنذكر أماننا فيها قبل الازدحام . وقبل قيام القطار بعشر دقائق تقدم إلينا شخص وسألنا باللغة الإنكليزية هل بيننا الأمير محمد علي فظننا أنه ربما كان أحد مخبري الجرائد فأجبتاه متكرين حتى نخلص منه ففارقنا بعد أن أبدى لنا عظيم احترامه . سار بنا القطار ولم تحف وطأة الحرارة فاضطررنا أن نذهب إلى غرفتي ليخلع كل منا (إلحائه والصدري) كما يفعل الأمريكيون عند اشتداد الحر وفتحنا كل الشبايك رغما من كثرة الدخان والقمام المتصاعد من سرعة سير القطار فلم نجدنا فتح الشبايك نغما وقد وجدت باقة من الزهور مرسله باسمي من أحد السوريين واسمه الخواجه عزيز عطيه فأعجبنا هذا الذوق السليم وهذا التلطف الجميل .

نحن نسير الان في مقاطعة واشنطن بين غابات كثيفة والنظر إلى
 اليمين يرى على بعد جبل (Rainer) وعلى رأسه الثلج ولم نصادف
 مدنا كبيرة تستحق الكلام عليها وفي الساعة ٧ ونحن في عربة الأكل
 وصلنا إلى بلدة تاكوما (Tacoma) وعدد سكانها ٣٠٠٠٠ وبها غابة
 عظيمة (Porêt vierge) وهي شهيرة بمعامل الحديد على اختلافه
 ومصانع الأخشاب وغيرها وتجارتها من الحبوب والأخشاب والقمح
 المحرى والشاى وغيره وصلنا في الساعة ٩ مساء إلى مدينة سياتل
 (Seattle) وقد رأينا بمحطتها خمس طرق حديدية آتية من جهات
 مختلفة فدلنا ذلك على أنها مدينة عظيمة وقد أعجبنا بناء محطتها الحديدية
 وهي في نظري أجمل محطة رأيتها إلى الآن بعد محطتى شيكاغو
 ونيويورك .

ركبنا سيارة بعد أن أعطينا وثائق حقائبنا الكبيرة لأحد العمال
 الذى تقدم إلينا وأخذ يقول . هنا ياسيدى نعتنى كثيرا بإيصال
 الأمتعة لأربابها قبل مضي ساعة من الزمن فكن مطمئنا فسيصلك
 جميع متاعك وأنت في الفندق بعد زمن قليل جدا فتركناه على هذا
 الشرط وأمرنا سائق سيارتنا أن يذهب بنا إلى فندق واشنطن الجديده
 (New Washington) ولما وصلنا إليه وجدناه نغما ومنظما وقد حجز لنا

جزء كبير من طابقه يزيد عن حاجتنا قبلناه حتى نخلع ملابسنا ونستريح من عناء السفر ولكن طال انتظارنا ومتاعلم يؤت به الينا قبل منتصف الساعة الثانية عشرة فلم أتمكن من النوم إلا بعد نصف الليل لوجود الموسيقى التي تعزف عادة ليلا بالقرب من غرفتي التي تطل على شارع يمر منه جملة (ترامات) فأسمع ما يقلق راحتي من الداخل والخارج .

في صباح يوم الثلاثاء (١٨ يونيه) كتفت مصطفى بك أن يذهب إلى إدارة الفندق ليطلب تغيير هذه الغرف فأجبت المدير إن هذه الغرف معدة لرؤساء الجمهورية وليس عنده أعظم منها وإن أجرتها في الليلة الواحدة ثمانية جنيهات فاستكثرت هذه القيمة على مثل هذه الغرف وتمسكت بطلتي لأنني لأأرى من الحكمة أن يمنع الإنسان ماله في غير موضعه لاسمياً أني لست روئشيد زماني ولا فاندربلت أمريكاً ثم انتهى الأمر بأن أدركنا ما طلبنا .

وبينا كنا على مائدة الطعام وصلتني إشارة برقية من الخواجه عزيز عطية وأخيه برحجان فيها يوفادني إلى هذه البلاد ويذكر أن السورين الذين يقيمون في مدينة يورتلاند كانوا يودون مقابلتي لإبداء مافي ضميرهم من الإخلاص والحب لي ولأسرتي فتذكرت الشخص

الذى تقدم إلينا فى المحطة وسأل عنى مع عظيم الأذب والاحترام فأسفت لأنى لم أستفهم منه عما يطلبه لظنى إذ ذاك أنه أحد مخبرى الجرائد ولو كان قد تكلم معنا بلغتنا المحبوبة لما خنى علينا أمره ولما حرمتنا من التمتع بثمار هذه المصادفة الجميلة فأرسلت إليه فى الحال إشارة برقية أشكره على حسن عنايته وأمنى له ولأهل وطنه ببيورتلاند السعادة والرفاهية وكلفت خيرى بك أن يكتب له خطابا رقيقا يعبر عن شعورى نحوهم ورجأت أن يوفقهم الله دائما إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم .

نرجنا بعد ذلك للاستراضة راجلين فوجدنا المدينة عامرة كثيرة السكان والظاهر أنها كانت فى سنة ١٩٠٠ لايسكنها أكثر من ٧٠٠٠٠ نسمة والآن يزيدون عن ٢٤٠٠٠٠ أمانظاتها حثت عنها ولا حرج وقد أعجبنا أكثر من مدينة پورتلاند . وبعد ذلك ركبنا (الترام) للذهاب إلى شركة (Pacific Coast Co.) للاستعلام عن ميعاد قيام البانحة التى ستذهب بنا إلى الاسكا (Alaska) وللاتفاق معها على طريقة إرسال حقائبنا الكبيرة ولمعرفة حالة غرفنا التى أعطيت لنا فى هذه البانحة وبعد أن أتمنا ذلك كله عدنا إلى الفندق وفى منتصف الساعة الرابعة بعد الظهر ركبنا سيارة وأخذنا معنادلينا مطبوعا للسائحين يبين شوارع المدينة والأمكنة التى ينبغى زيارتها .

سارت بنا السيارة في طريق به منازل جديدة متقنة البناء وقد علمنا أنها بنيت مكان تل أزائه يد الإنسان بتسليط قوة تأثير المياه المقدوفة من أفواه مضخات هائلة عملت لذلك وقد ابتدئ في بناء مكان هذا التل منذ خمس سنوات . المدينة عظيمة وآخذة في الرقي بسرعة مذهلة بخديري أن أذكر للقارئ الأسباب التي رأيتها أدت إلى هذه النتيجة السريعة . إن مدينة سياتل واقعة على شاطئ البحر في أحسن موقع طبيعي فهي على لسان داخل في البحر والداخل فيها يرى البحر عن يمينه ساكنا هادئا لوجود جزائر كثيرة مزدانة بالأشجار المورقة فمنعت هذه الجزر تلاطم الأمواج وصارت حاجزا قويا يصد عنها تقلبات البحر الهائلة فلا يرى الإنسان أثرا للأموج المتلاطمة بل يرى وجه الماء كأنه بساط سديمي يضرب لونه إلى الزرقة لا يعكس صفاه إلا سير البواخر المختلفة ويرى عن شماله بحيرتين عظيمتين ماؤهما عذب وفي وسطهما بعض جزر أخرى لا تقل جمالا عن الجزر التي في البحر وهذه المدينة واقعة على حدود حكومة كندا وقد أنشأت حكومة الولايات المتحدة في إحدى الجزر القريبة منها جملة حصون وضعت فيها المدافع الضخمة لحمايتها عند اقتضاء الحال . والبواخر الذاهبة إلى تاكوما التي سبق الكلام عليها تمر أولا على مدينة سياتل فهي إذا محطة

بحرية عظيمة . إن موقع هذه المدينة الذى يسمى (Elliot Bay) على مسافة ٣ كيلو مترات من إحدى البحيرتين السابق الكلام عليهما واسمها بحيرة واشنجتون وطولها ٣٠ كيلو مترا وعرضها يختلف من ٣ إلى ثمانية كيلو مترات فلاتساع هذه البحيرة يستغل الأمريكيون الآن في فتح قنال يوصلها الى مدخل البوت المذكور عرضه ٣٠٠ قدم وعمقه كاف لمروور (أكبر بارجة دريدنوط) حربية فستقبل هذه المدينة عظيم جدًا بالنسبة لموقعها التجارى والحربى ومن التهويل الذى سمعناه من الأمريكيين عن بحيرة واشنجتون المذكورة كما هى عادتهم في كل شئ أن عمقها مجهول إلى الآن ولا يعرف قرارها إلا الله فلم أصدق هذه الدعوى الباطلة لأن الإنسان أمكنه أن يعرف قرار أعمتق نقطة في البحر وهى ٩٠٠٠ متر فهل يتصور أن يعجز عن معرفة عمق هذه البحيرة كلامًا ثم كلا وما ذلك على العلوم العصرية بعزير .

هذا ويجدر بي ذكر سبب آخر وهو في نظرى أهم الأسباب التى دعت إلى ارتقاء هذه المدينة ونمو عمرانها : كشفت في جهات الاسكا مناجم كثيرة للذهب فأقبلت الشركات لاستخراج هذه الكنوز من بطون الأرض ولما كان العمل يحتاج إلى ألوف كثيرة من العمال سهلت الحكومة كل الأسباب لجلب هؤلاء العمال ولكن

في جهات الاسكا لا يمكن الانسان أن يتحمل شدة البرد في فصل الشتاء ولما كانت مدينة سياتل ليست شديدة البرد وهي قرية من (الاسكا) أقبل جميع العملة وأصحاب الشركات على السكنى فيها مدة الشتاء . كذلك تكثيف المناجم في (الاسكا) لم يقف عند حد فمن وقت إلى آخر يكشف منجم جديد يحتاج إلى عملة آخرين كثيرين فيضطرون إلى الإقامة في (سياتل) في فصل الشتاء فالزيادة إذا مطردة ولا يخفى أن الأماكن التي تظهر فيها مناجم الذهب يكون الإقبال عليها عظيماً لأن كل إنسان مولع بالحصول على الثروة فالمهاجرون إلى هذه الجهات يزدادون طمعا في العثور على هذه الخنوز المدفونة في باطن الأرض ولا يفوت القارئ أن منازل أصحاب الشركات ومهندسيها ومدربيها ورؤساء العملة وغيرهم لا يتركونها خالية في فصل الصيف فقد نفذ إليها للإقامة بها جملة أسرات لقضاء فصل الصيف فيها فالحركة فيها مستمرة صيفا وشتاء .

نعود إلى ذكر ما رأيناه في المدينة أثناء رياضتنا بالسيارة : إننا كنا نسير في طرقات منظمة ولكننا غير مستوية لأن المدينة مشتبلة على آكام وتلال وهذا ما يزيد جمالها وقد لاحظنا أن طولها أكثر من عرضها أما منازلها فهي في الجملة متقنة البناء وقد سألنا سائق السيارة

هل لهذه المدينة أحياء قديمة لتزورها فذهب بنا إليها وهي بالرغم من قدمها لا تخلو مما يستحسنه الذوق وأثناء سيرنا رأينا دخانا متصاعدا إلى عنان السماء من جهة البحر فسألنا عن منشئه فأخبرنا أن النار شبت في مخزن أخشاب كبير فأمرنا سائق العربة أن يقصد بنا مكانها لتقف على طريقة إطفاء الحرائق وهل عندهم من المضخات والأدوات الواقية من شر الحريق ما يكفي لحصر النار في جهة واحدة وإخمادها بسرعة فذهب بنا حتى قربنا منها ووقفا على تل عال نرى منه موضع الحريق فيألها من ساعة رهية . إن ألسنة النار كانت تندلع مرتفعة ارتفاعا هائلا في منمع عظيم لا يقل عن اتساع ثكنة قصر النيل ومن الغريب أن بعض الأخشاب كانت طافية على سطح ماء البحيرة فلم يؤثر ذلك في قوة النار فإذا تمديد إذا المضخات وإن كثر عددها في مثل هذه الحالة وقد اجتهدوا كثيرا في فصل جزء عظيم من الأخشاب العائمة على وجه الماء حتى لا يلحقها الشرر فتصبح رمادا ولا تسل عن اجتهد عمال المضخات في إخماد النار ومساعدة الأوف لهم ولكن اجتهدهم لم يكن مخففا وطأة النار التي صارت قطعة من الجحيم وقد كنا نشعر بحرارتها من مكاننا البعيد فكيف يكون حال هؤلاء التعسفين وهم على مقربة منها . ولو كان هذا المخزن في وسط البلد

لدمرها تدميرا وجعلها قانا صفيصفا ولكن المتبع في أمريكا أن جميع مصانع الخشب ومخازنه لا يؤذن بوجوده داخل المدن بل يكون دائما على شواطئ البحار أو الأنهر بمعد من المنازل والظاهر أن سبب الحريق شرارة صغيرة خرجت من إحدى مداخن الآلة المتحركة التي تنشر قطع الخشب الكبيرة فعظم خطبها حتى حدثت هذه الخسارة الجسيمة .

أما الهواء فكان يزيد النار اشتعالا ولكنه كان يأتي من جهة البر فيبقى بها إلى جهة الماء ولا تسل عن عدد الذين حضروا لمشاهدة النار وما عملت فإن السيارات والعربات كانت تحضر عشرات تحمل السيدات والرجال والأطفال ولم نر أحدا من رجال الشرطة حضر للحفاظ على السكون أما عدد المضخات فكان لا يزيد عن ستة ورجالها قليلون . بعد أن مكثنا زما أمرنا سائق سيارتنا أن يستمر في طريقه لتتم زيارة المدينة فمرنا على ثلاث حدائق مساحة احداها ٢٠ ميلا والثانية سبعة أميال والثالثة أحد عشر ميلا ولها حدائق ذات بهجة وهي على شاطئ البحيرة وقد أخبرنا السائق أن هناك مشروعا لاتصالها كلها بعضها ببعض فتصبح مساحة حديقة المدينة ٨٠ ميلا تكتنف البحيرة من كل جهة .

مررنا أثناء سيرنا على القتال الذى يشتغلون الآن فيه وهم على وشك الفراغ منه وقد سبق الكلام عليه أما طريقة حفره فهى أنهم يسلطون المياه المندفعة بقوة من المضخات على الرمال والتراب فتزيلها بسرعة غريبة وقد أعجبتى هذه الطريقة كثيرا .

وقد شاهدنا فى الطريق مستشقى عظيم البناء أنفق على بنائه ١,٥٠٠,٠٠٠ دولار فأعجبنا موقعه ونظامته . وبعد ذلك ذهب بنا السائق إلى الرصيف الذى سنركب منه فى البانحة إلى (الاسكا) فرأينا تلك البانحة متوسطة بين الصغيرة والكبيرة ثم أمرناه أن يعود بنا إلى الفندق ونحن فى الطريق رأينا مضخات تعدو إلى جهة والناس يعدون وراءها ورأينا عمودا قائما على طرف رصيف الشارع له جناح أحمر اللون ومعلق به جرس سمعنا له صلصلة وهذا ماينبئ عن حصول حريق فذهبنا نحن مع الذاهين إلى مكانها ورأينا الدخان يخرج من نافذة منزل ذى ست طبقات وقد وصلت ثلاث مضخات وصارت تستغل فى إطفائها ورأينا على سطح المنزل المذكور آلة صغيرة يديرها بعض الرجال وهى تغمر سطح المنزل بالماء حتى لا تؤثر فيه النار ولكنها لم تأت بما أريد منها فإن مثل هذه الآلات قد تتلف فى وقت اشتداد الحاجة إليها وهذا ماينبت أن الاحتياط ولو عظم لا يفيد شيئا إذا قنر الله أمرا فلاراد لقضائه .

بعد قليل من الزمن أطفقت النيران وأخذنا طريقنا للعودة إلى فندقنا وهناك وجدنا رسالة من مدير شركة (الكاديان باسفيك) يقول لنا فيها إنه حضر مرارا ليرانا والقدر لم يوفقه الى ذلك وهو مكلف من قبل المستر ستورس (أحد مديري كوك) أن يتسلم متاعنا ليرسله إلى فانكوفر (Vancouver) فكتبت له كلمة أشكره وأرجوه أن ينتظرنا صباح الغد بمكتبه

بعد العشاء خرجنا قليلا للرياضة فقرأنا إعلاتا على باب ملهى (تياو) ترجمته :

(هنا سيقوم الليلة بالعباب بهلوانية مدهشة عدد عظيم من التونسيين فنحن الجميع أن نفتنموا هذه الفرصة لرؤية ما يشرح صدورهم ويعجبون منه) فدخلنا هذا الملهى فاذا نحن في ردهة عظيمة غاصبة بالمشاهدين وكانت الموسيقى تشف أسمعهم وبين وقت وآخر يمثل دور هزلى مضحك الى أن أتى ميعاد تمثيل التونسيين فلعبوا ألعابا لاقيمة لها بالنسبة لما تضمنته الاعلانات المنتشرة في شوارع المدينة ثم نخرجنا من هذا المكان نحو الساعة الحادية عشرة للذهاب إلى الفندق للنوم والراحة .

في الساعة التاسعة صباحا من يوم (الأربعاء ١٩ يونيه) ذهبنا إلى

مكتب مدير شركة الكاديان پاسفيك المستر بين (Penn) لشكره على اهتمامه بنا ولتخبره أننا سآخذ متاعنا معنا لأنه أصبح على وشك التلف لعدم اعتناء المحالين به اذ يلقونه بلا شفقة على الأرض غير ناظرين إلى مصالح أصحابه فوجدناه ثائبا وتقدم إلينا مساعده فأخبرناه بما لزم ثم ذهبنا إلى الباطرة لثرى غرفنا فيها فأعجبتنا واستفهمنا عن ميعاد ارسال الحفائب فقبيل لنا في أى وقت زريده وبعد ذلك عدنا إلى الفندق وكتبنا على كل حقيبة اسم صاحبها ونمرة الغرفة وأرسلناها إلى الباطرة . وفي الساعة الثامنة مساء أخذنا باقى الحفائب الصغيرة وذهبنا إلى الباطرة ونحن نظن أننا نجد كل شئ في مكانه من غرفنا ولكن خاب ظننا وصرنا نسأل من هذا وذلك من مستخدمى الباطرة لعلنا نقف على مستقر أمتعتنا فلم نستطع إلى ذلك سيلا وكان جوابهم لا تستعجلوا فسيصلكم كل شئ عما قريب ولكننا لم نطمئن مخافة أن نفقد شيئا ولا نعتز عليه قبل أن تسير بنا الباطرة وبينما نحن نبحث تقدم إلينا مدير ادارة الباطرة وسألنا عما نبحث فأخبرناه به ثم أخذ تذاكر السفر وكلف أحد المستخدمين بالبحث عن حقائبنا فحضر وقال انها لم تسجل إلى الآن فأدهشنا ذلك التقصير من أصحاب الفندق وغشهم السامحين فقد طلبوا ٣ جنهيات لتقلها وتسجيلها وقالوا لنا انكم عند

ذهابكم مستجدون كل شئ في مكانه ولكنهم لم يوفوا بعهدهم فعملنا ما يلزم لتسجيلها ونقلها ولما أردنا أن نتفقد أمتعتنا وجدنا حقيبة مفقودة فأخذنا نبحث عنها ورئيس الخدم يأمر أحد الملاحين أن يساعدنا في التفتيش فلم يسمع له أمرا فتشأتما وكانا على وشك التضارب لولا لطف الله ومن هنا تبين لي مقدار آداب القوم ووقوف كل عند حده وقد خفت هذه الحالة ما ألم بي من الكدر لأنني علمت أن الرؤساء عندهم لا احترام لهم فلا عجب إذا ساءت معاملتهم للسائين قبل ارحمال الباهرة بعشر دقائق وجدنا الحقيبة ملقاة على الرصيف فقلناها وبذلك انتهى فصل الحقب . وبينما نحن على ظهر الباهرة تقدم إلى شخص بادن الجسم وقد خلع لحيته وشاربه فسألني هل أنا من رفقاه رستم بك فظننت أولا أنه أحد مخبري الجرائد ولكن لما رأيت أنه لم يبق من الوقت متسع يستطيع فيه أن يتنسم منا أخبارا تهمة لقرب تحرك الباهرة لم أرد أن أردّه خائبا فأبرز لي بطاقة فعلت منها أنه المستر دومان (Mr. Dumann) المفتش العام لشركة البواخر التابعة إليها بانترتا ثم أخبرني أنه وصله رسالة من المستر (ستورس) بسان فرنسيسكو يوصيه أن يساعدنا في كل ما نحتاجه فصلغته وسررت لأنني علمت أنه لا بد أن يعتنى بخدمتنا ما دام ملازمنا وقد قال لي إنه يسافر عادة

في أول باخرة تسيير بالسائحين إلى جهات الاسكا في فصل الصيف
 ليعلم مقدار راحة السائحين وخدمتهم العامة في كل الجهات لخدمنا
 الله إذ قادنا حفظنا إلى الركوب في هذه الباطرة وقد أخبرني أنه يعلم
 حقيقة اسمي ولذا أمر جميع الخدم بأن يسرعوا إلى اجابة طلباتنا مع
 عظيم الاعتناء بسائر شؤوننا وقد حجز لنا في حجرة السفرة مكانا خاصا
 بنا واختار لخدمتنا غلاما يعتقد فيه النباهة وجمال الأدب ولصغر حجرة
 السفرة وكثرة السائحين يقدم الطعام مرتين وقد نصحنا ألا نأكل
 إلا في المرة الثانية فكانت مواعيد أكلنا هكذا : نغفر الساعة التاسعة
 صباحا وتغدى الساعة ١ و ٣٠ دقيقة وتغشى الساعة ٦ و ٣٠ دقيقة
 فقبلنا نصيخته ولو أن هذه المواعيد لا توافقنا

بعد قليل من الزمن سمعنا صغيرا من ريان الباطرة وكان هذا
 الصغير إيذانا بالسير فتحركت بنا الباطرة باسم الله وإذا بأمر آخر قد
 صدر لمدير حركتها بالوقوف فبحثنا عن السبب فعلمنا أن سيدتين
 كانتا في الباطرة تسيعان صاحبة لهما فأخذهما الحديث ولم يشعرا
 إلا والباطرة تتحرك فاتبينتا من غفلتهما وطلبتنا من الريان أن يرجعهما
 إلى الرصيف ففعل

إن اسم الباطرة التي نحن على ظهرها الآن هو اسبوكين (Spokane)

وكان بجانبها بانة أخرى اسمها سبتل (Seattle) تشارك بانرتنا في تلك الرحلة وهي أيضا تابعة لشركة (الكاديان پاسفيك) غير أن الأخيرة تتخذ في البحر طريقا آخر غير طريقنا ولما كنا متعبين من كثرة ماتكبدناه في يومنا أسرعنا إلى غرنا للنوم بعد أن فرقنا مدينة سياتيل التي كانت وقتئذ أنوارها ساطعة خصوصا أنوار فندق واشنطن الذي كنا فيه

أصبحنا في يوم (الخميس ٢٠ يونيو) وما أتت الساعة السادسة صباحا حتى كنا على ظهر البانة ولما كانت رحلتنا هذه إلى جهات الاسكا فلا أرى بأما من ترجمة بعض ما تضمنه إعلان وزعته الشركة على السائحين يشرح حالة هذه الجهات وتاريخها ليوقف القارئ على طريقة من طرائق النشر في هذه البلاد وكثرة مغالاة الأمريكيين وها هي الترجمة : إن الاسكا هي أقرب طريق يوصل إلى الشرق الأقصى ، وبين سياتيل وفلاديفوستوك ٤٥٠٠ ميل ومساحتها ٣٢٩٥٢٩٠٠٠ هكتار وجوز ثلاثة أرباع هذه المساحة يقارب جز بلاد السويد والنرويج (Suède et Norvège) وروسيا وطول شواطئها ٢٦٠٠٠ ميل وقد اشترتها حكومة الولايات المتحدة من روسيا في سنة ١٨٦٧ بمبلغ ٧٢٠٠٠٠٠ دولار وأول من كشفها

ربان روسي يدعى فيتوس بهرنج (Vitus Behring) فأنشأ فيها أول مدينة سنة ١٧٨٤ وسماها سيتكا (Sitka) وحيث إن القانون المتبع في أوروبا أن كل شخص أوروبي يكتشف أرضا من بلاد المتوحشين تكون هذه الأرض تابعة للحكومة التي يتبعها هذا المكتشف فهذا القانون صارت الاسكا ملكا للروسين . وقد كان الأمر يكتفون يعتقدون أن أراضي الاسكا غير قابلة للسكن فيها لشدة بردها وكثرة ثلوجها ولن تكون آهلة إلا ببعض من (الايكيمو) الذين يجمعون هذا الجوز وكانوا يؤكدون أن أرضها لا تنبت شيئا مطلقا ولا يربح منها فائدة ولذا لما أرادت حكومة الولايات المتحدة شراءها من روسيا قام في وجهها المعارضون ومن بينهم نائب مدينة نيويورك فإنه عارض أشد المعارضة في مجلس النواب (البرلمان) قائلا إننا لا نريد شراء مستعمرات روسية غضب عليها المولى سبحانه وتعالى فسلط عليها البرد القارس . وقام آخر عززه في أقواله مشيرا على أعضاء مجلس النواب (البرلمان) بشراء جرينلاند بدلها وثالث قال إذا كنتم تريدون شراء الاسكا أن تخطبوا ودّ الروسيا فهبوها سبعة الملايين دولار واركوها للروسين ملكا حلالا لهم . ثم قام نائب آخر وقال : لا تسرفوا في أموالنا واصبروا قليلا فستركها الروسيا ووقتئذ خذوها وضموها إلى

بلادكم أنجأهون أيها السادة ؟ ألا تعلمون أن هذه الجهات هي منبع البراكين ؟ إننا لا نريد شرًا لابناء وطننا . ولكن لحسن حظ حكومة الولايات المتحدة تغلبت آراء المعضدين لمشروع الشراء على حزب المعارضين وتمت الموافقة على دفع ثمن الاسكا للروسيا وضمها إلى أراضي الولايات المتحدة . فاذا كانت النتيجة ؟ إن هذه الولاية الجديدة أصبحت أغنى ولايات الدنيا فإنه كشف فيها منجم للذهب يلزم لاستخراجه حتى يتفد ٥٠,٠٠٠ عامل يشتغلون فيه مدة ٥٠ سنة ومثل هذا العدد وهذه السنين كذلك لمنجم الفحم ومنجم النحاس

ولا أطيل عليك أيها القارى في وصف كل ما قيل في هذا الإعلان الذى ترجمت لك منه بعضه وكفى أنه نشره تصریح المستر فريدريك (M. Frederik) الذى قال : إن الاسكا أغنى في الذهب من كاليفورينا واوستراليا وجنوب أفريقيا وفى الفحم من پانسيلفانيا (Pensylvaine) وويلس (Wales) وفى الأراضى الصالحة لتربية الحيوانات من مقاطعات الكنتزاس (Kansas) وأوكلاهوما (Oklahoma) وتيكساس (Texas) فقد جعلها إذا أغنى من كل بقاع الدنيا ومن ضمنها أمريكا . وقد قيل فى آخر الإعلان إنه قد استخرج

من مناجم الذهب وحدها في الاسكا من سنة ١٨٨٥ إلى اليوم ما قيمته ٢٠٠ مليون دولار وهذا غير دخل باقي المعادن الأخرى

وبينا كنت أقرأ هذا الإعلان تقدم إلى المستر دومان مفتش الشركة العام وبمناسبة هذا الإعلان أخبرني أن عدد المهاجرين إلى الاسكا يوم أن كشف منجم الذهب كان عظيمًا جدًا حتى إن البوانر كانت كلها مكتظة بهم ولم يكن ما فيها من الأطعمة كافية لجميعهم على حسب ما ينبغي فكانت جميع ردهات البوانر ومماشيا مملوءة بهؤلاء المسافرين الذين أثرت فيهم الإعلانات الكثيرة التي انتشرت في جميع بلاد الدنيا قائلة إن الاسكا كلها مناجم ذهب ومعلوم لهم أن كل من كشف مكان منجم تتساهل الحكومة في بيعه له بشروط خفيفة جدًا فلا الأمل قلوب هؤلاء المهاجرين و بينهم الأمريكيون أنفسهم وكان الاعتقاد السائد أن كل من نيش في أرض الاسكا يعثر على منجم فلذا وقد الناس من كل فج عميق مسرعين إلى هذه الجهات طمعاً في الثروة مع ما يلاقونه من شدة البرد وغلاء أسعار أسباب المعيشة فإن البيضة الواحدة قد اشترت بدولار ولما كان عدد القادمين على الاسكا كثيرا جدًا أقبل البقالون عليها أيضا لبيعوا

بضائعهم وفي الحقيقة هم الذين كان نصيبهم من الكسب أكثر ممن
 عداهم حتى من الذين كشفوا المناجم فإنيهم كانوا يبيعون بضائعهم
 بأثمان عالية جدًا فهم الذين جنوا جل الثمار التي أثمرتها أعمال
 هؤلاء المهاجرين المساكين فكأنهم ما زرعوا إلا ليحصده هؤلاء
 البقالون . وقد علمت عن جرة هذه الجهات أن شواطئها تصلح
 للسكن فيها ولكن لا يمكن لأى مخلوق أن يعيش فيها وراء جبالها
 أو داخلها

هذا ومن العجيب أن أول من كشف أكبر منجم للذهب
 في الاسكا لا يملك أكثر مما دخله . . . ٥٥ دولار وذلك لأنه لم يعرف
 قيمته وباعه بثمان بجنس جدًا . ومن نوادر حسن المصادفة أن ثلاثة
 صيادين زرو يمين اشتدت عليهم الأمطار وكانوا وقتئذ يصطادون
 في جهات الاسكا بجوار نهر يدعى سيربانت (Serpent) فالتجئوا إلى
 حفرة ليقوا أنفسهم من شر الصواعق وقد قرب الدم أن يجمد
 في أجسامهم من شدة البرد فاقترح أحدهم على الآخرين أن يشتغلوا
 في الحفرة في هذه الحفرة حتى يحرروا أعضائهم فيجري الدم في عروقهم
 حتى لا يموتوا شهداء البرد فشرعوا في هذه الحركة المباركة التي
 أوصلتهم إلى تكشيف منجم ذهب من أكبر المناجم وقد كانوا عقلاء

فلم يبعوه بل حفظوه لأنفسهم وبهذه المصادفة الجميلة انتظموا في سلك أكبر الأغنياء

في منتصف الساعة الثامنة صباحا وصلنا إلى مدينة فيكتوريا عاصمة كولومبيا الإنكليزية (British Columbia) وهي واقعة على الشاطئ الجنوبي من جزيرة فانكوفير (Vancouver) وعدد سكانها ٣٠٠٠٠ نسمة ويسكنها كثير من الصينيين وقد شعرنا بمجرد وصولنا إليها أننا نخرجنا عن بلاد الولايات المتحدة لما رأيناه بها من السكون واتباع نظام البلاد الإنكليزية وقد أنشئت هذه المدينة في سنة ١٨٤٢ لتكون محطة لشركة (Hudson Bay Co.) ولكنها لم تطر شهرتها إلا في سنة ١٨٥٨ حين ابتداء تكشيف مناجم الذهب فنزلنا إلى الرصيف ولما كانت المسافة منه إلى وسط المدينة تبلغ كيلومترين أردنا أن نركب في الترام الذي يخترق شوارعها ولكن تقدم إلينا حوذي وقال لنا إن الترام لا يسير إلا كل نصف ساعة فإذا أردتم ذهبتم بكم في عربتي إلى مايلزم زيارته من المحال ولا أطلب منكم أجرا أكثر من أربع دولارات فقبلنا منه ذلك وذكرت له أنني قرأت في دليل (Baedeker) أن هناك ميناء تدعى اسكيالت (Esquimalt) بها قلاع وكنائس وهي محطة عسكرية للبورج الحربية الإنكليزية التابعة لأسطول المحيط

الباسفيكي وزيد أن تذهب بنا إليها لترى موقعها والبوارج الراسية في مياهها فطلب مني دولارين زيادة عما اتفقنا عليه بحجة أنها تبعد ٥ أميال عن المدينة . ركبتا عربته وسار بنا قليلا فلقينا سيارات ذات عداد (تاكسي) معدة للإيجار فأسفنا لعدم استئجار واحدة منها حتى نتمكن من رؤية كل ما تشتمل عليه هذه المدينة في زمن قليل . مشى بنا السائق بجانب شاطئ البحر إلى أن وصلنا إلى متنزه طبيعي لا يخلو من الجمال وقد رأينا في وسطه بحيرة صناعية بها كثير من أنواع الطيور ثم استمر في شارع عظيم إلى أن قربنا من منزل منبى على تل فقال لنا السائق إنه مسكن حاكم كولومبيا العام وبعد ذلك وصلنا إلى مبنى شاهقة ذكرنا السائق أنها مركز الحكومة فأحدها مجلس النواب وثانيها دار الآثار وثالثها المكتبة العامة ورابعها مركز المحافظة وأمامها تمثال السير جيمس دوغلاس (Sir James Douglas) أول حاكم انجليزى لهذه المستعمرة وقد رأينا عمالا كثيرين يشتغلون في هذه الجهة لتنظيم شوارعها وإتقان أرفصفتها وأظن أنها بعد تمام العمل ستكون من أحسن وأجمل الجهات

ذهبا بعد ذلك إلى حي الصينيين وألقينا نظرة عاتمة على مساكنهم وحوالياتهم وندبهم فلم نر شيئا يستحق الذكر ثم سار بنا السائق في

شارع عظيم به كثير من المعامل فكان الدخان يتصاعد منها وينتشر علينا حتى إننا اضطررنا أن نضع على أنوفنا مناديلنا حتى لا نستنشق هذا الدخان وقد رأينا مخازن خشب التهمتها النار فصبيرتها رمادا وبعده ذلك أخذ طريقنا يصعب وكان العمال يشتغلون في رصفه وقد قرأنا على هيئة سكان المدينة وما يبدووا من حالهم أنهم ليسوا على جانب عظيم من الثروة كسكان الولايات المتحدة أما العمال فأغلبهم صينيون . ثم وصلنا إلى ميناء ايسكيالت فلم نجد في مياهها إلا بلوچه واحدة قديمة أما قلاعها فلم تتمكن من رؤيتها لأنها مستورة فأمرنا سائق عربتنا أن يعود بنا إلى المدينة وقد علمنا أننا اغتررنا بما قرأناه في الدليل .

وقدنا أمام دكان اشترينا منه بعض بطاقات البريد (كارت پوستال) ثم ذهبنا لزيارة المتحف (Musée) وقد دخلناه ونحن على يقين من أنه ليس فيه شيء يذكر لكن ظهر لنا أنه على صغره مملوء من مصنوعات الهنود وبعض أكواعهم القديمة وملابسهم الوطنية وعددهم الحربية وقد رأينا بين مافيه من الآثار (بُطْأً) وقووسا من الخشب أو من الحجر ولو كانت معنا علم أترى لظن أنها من ابتداء نشأة العالم ولكن الحقيقة أن أولئك الهنود لجهلهم ولوحيثيتهم كانوا يستعملون هذه الآلات إلى أن كشف بلادهم الأوروبيون فتاريخ استعمال هذه

الآلات عند المتود قريب العهد بالنسبة لتاريخ استعمال مثل هذه الآلات في أوروبا لما كان الجهل غمياً على سكانها . دخلنا بعد ذلك في قسم التاريخ الطبيعي فرأيناه حاوياً لكثير مما يهيم علماء هذا العلم النفيس ثم مررنا على غرف تحوى كثيراً من حيوانات وطيور هذه الجهة (محنة) وموضوعة في أماكن تلائم طبائرها وقد ألفت نظرنا طير صغير جداً (Oiseau mouche) أعرف أنه يوجد مثله في بلاد البرازيل الحارة ولا أعلم كيف ينسب إلى طيور كولومبيا التي جوها بارد مع أنه لا يمكنه أن يعيش إلا في البلاد الشديدة الحر

سألت أحد مستخدمي هذا المكان هل في مكتب المدينة كتب بها أشكال حيوانات كولومبيا وطيورها فأجابني يمكنك أن تقف على مطلوبك في مكتب الاستعلامات التابع للحكومة ثم دنتي على طريقه فذهبت إليه فوجدت فيه أربع غلمان يشتغلون بترتيب الكتب فسألت أحدهم عن مطلوبى فقادنى إلى شيخ بلغ من العمر عتياً فقال لى ذلك الشيخ إن الكتاب الذى تطلب قد فقدت نسخته والحكومة تشتغل الآن بإعادة طبعه وأخيراً أعطانى بعض كراسات بها صور كثير من طيور كولومبيا وحيواناتها فاكثفت بها وبعد ذلك عدنا إلى بنحرتنا .

أقلعت بنا البانحة فى الساعة الثانية مساء متجهة إلى الشمال وقد كان البحر مكفهرا والضباب منتشرًا حتى ملأ الفضاء ولكن مع هذا الظلام كنا نشاهد ألوفا من الجزائر الصغيرة بعضها بجانب بعض وكلها مكسوة بالأشجار العظيمة ومقفرة من السكان وبعد أن سرنا هنيهة شاهدنا منارا على صخرة قائمة فى البحر فقله در الموكلين بحراسته وما أصبرهم على الإقامة فى مكان موحش فإنهم منقطعون عن العالم .

إن رؤية هذه الجزائر الصغيرة شوقنى لأن يكون لى سفينة ترتع فى البحر متنقلة بين الجزائر لاركب فيها ويصحى من رفاق المغرمون بحال الطبيعة والصيد فى البحار لقضاء وقت معهم فى حياة بحرية تملأ القلوب انشراحا وأظن أنه لو تم لنا لأنسام هذه المعيشة البحرية ولا نعدم فى خلالها صيدا من حيوان وطير .

إن البحر كان هادئا وكأن الشمس اطلعت على مافى قوسنا من أمانة التمتع بحال هذه الجزر المتقاربة وأن هذه الأمانة لاتم لنا إلا إذا بسطت أشعتها الذهبية على تلك الجزر فرفعت لنا حجب السحاب والضباب وأسفرت حتى بدت لنا مناظر تلك الجزائر البديعة فحمدنا الله إذ لم يحرمنا من تلك الأمانة وبيننا كنا نشاهد بحال الطبيعة سمعنا أن سيدة ستلق على المسافرين محاضرة فى شؤون (الاسكا) فذهبنا

لسماعها وإذا هي سيدة في منتصف العمر وقد أخذت تسرد تاريخ حياتها وتذكر أنها مضى عليها عشرون سنة لم تنقطع في خلالها سنة واحدة عن زيارة تلك الجهات لجمال مناظرها واعتدال هوائها وإن مثل هذه السياحة تجدد في الإنسان النشاط وتكسبه صحة ثم صارت تتكلم عن معيشة الهنود الأمريكيين وبعض عاداتهم وأنهم إلى اليوم لم يحسن ظنهم في الجنس الأبيض ولم يشقوا تمام الثقة بأنه يريد بهم خيرا ويعلمهم ويرشدهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور وقد دلنا كثرة إطنابها على أنها مأجورة من قبل الشركة لترغب السائحين في العودة لزيارة هذه الجهات ولتحثهم أن ينشروا في العالم هذه الفكرة التي تعود بلا شك على الشركة بالفائدة العظيمة ثم أخذت تشرح برنامج اليوم الثاني من أيام السياحة وما سنراه من العجائب .

في صباح يوم الجمعة ٢١ يونيه قنا مبكرين وخرجنا من غرفنا فوجدنا الجزر ديشا غابسا فلا يكاد الإنسان يرى شيئا من كثرة الضباب وقد كآ إلى هذه الساعة نسير بين هذه الجزر وما أتت الساعة الحادية عشرة حتى خرجنا منها وأخذت الباخرة تسرع متغلغلة في عرض البحر فتغيرت الحالة وشرعت السفينة تلعب كالريشة في مهب الرياح فالتجأ المسافرون إلى غرفهم طلبا للراحة مما أصابهم

من آلام البحر ولم يستطع إلا القليل منهم تناول الطعام ولكن هذه الحالة لم تدم كثيرا في نحو الساعة الثالثة بعد الظهر دخلنا مرة ثانية بين جزائر كثيرة فسكن البحر وخرج كل من منجبه وقد لاحظنا أن أغلب المسافرين بلغوا من العمر عتيا وقد أخبرني المفتش العام للشركة أنه مضى عليه أكثر من عشر سنوات وهو يسافر في أول باخرة تذهب إلى جهات الاسكا وفي كل مرة كان أكثر من ثلثي المسافرين لاسيا السيدات يزيد عمرهم عن الخمسين سنة فبحثنا عن السرفى ذلك فاهتدينا إليه وهو أن هذه السياحة علمية أكثر منها خيالية فلاحظنا فيها اللفتيات والشبان لأنهم لا يجردون فيها طلبتهم ولا مايسرهم من أنواع الملاهي كما في البلاد الكبيرة الشهيرة بالملاذات وقد اجتمعت كل العجائز حولنا وصرن كلهن يتكلمن ويفهقهن بأعلى أصواتهن فهربنا من جوارهن حتى لا يصيبنا من جراء لغطهن وجلبتهن صداد في رؤوسنا ولقد عجبت من أمرهن ولم أدر كيف يفهم بعضهن من بعض من خلال تلك الأصوات المختلطة . وهن في الحقيقة أكثر المسافرين راحة إذ يجلسن حيث يشأن وفسح لهن المجال في ذلك من هم دونهن سنا .

في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السبت ٢٢ يونيو سمعنا

الصفير ثلاث مرات وفي ذلك إشارة إلى أننا دخلنا في مياه (الاسكا) التابعة للولايات المتحدة وتبع ذلك الصفير أن صاححت جموع الأمريكيين صياح السرور (Hourras) وهم يطلبون السعادة والرقى لوطنهم العزيز فأعجبنى هذا الشعور الصادر من القلوب المخلصة لبلادها فإن هذا الحب الصحيح تجلى على وجوههم فنقطت به .

. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر قربنا من صحرة بارزة في البحر وصرنا نسمع من الحاضرين مايدل على عظيم إعجابهم بها ولكنها لم تؤثر في نفوسنا تأثيرا يذكر كما أثرت في نفوسهم . وفي الساعة الرابعة دخلت بنا السفينة في مضيق يسمى (Rudyerd Fiord) وهو جميل جدًا وفي بعض الأوقات تكاثر بين شاطئين قريين جدًا منا فترى الأرض مكسوة بالأشجار ولكن رداءة الجؤ حرمتنا من التمتع بجمال هذه المناظر فتقدم إلى مفقش الشركة العام وقال : إنه سيأمر ربان الباخرة بالذهاب إلى مضيق آخر أجمل من هذا لم تذهب إليه سفينة من قبل لئتمتعوا برؤية جماله لأنكم حرمت من التمتع بجمال هذا المضيق لرداءة الجؤ فشكرت له على تلففه وحسن عنايته بنا ثم سارت الباخرة بنا لتكشيف هذا المضيق ولحسن حظنا أخذت الغزالة تجود علينا بأنوارها الساطعة ودخلنا المضيق والباخرة تسير بنا سيرًا بطيئًا ونحن

نعجب من المناظر التي حولنا وبيننا نحن نتمتع برؤية هذا الجمال وقتت بنا الباهرة فسألت عن السبب فقال لي أحد المسافرين إن المفتش العام ينزل الآن ومعه فتاة محتررة في مجلّة تصويرية لرسم صورة الباهرة ومن عليها من السائحين وبعض مناظر هذه الجهة واستطرد في كلامه قائلاً إنه أحسن إلينا كثيراً فزيارة هذا المضيق منه له علينا تستوجب شكره ولكنه لم يضع الفرصة السانحة له ولم يخرج من عمله بدون فائدة تعود عليه فإنه سينشر في المجلات العلوية وغيرها خبر دخول باخرته في هذا المضيق الجميل وننقل هذه المجلات تلك الصور التي رسمها وتطلب في مدحها فتزداد رغبة الأمريكيين وغيرهم في مشاهدة هذه الجهات وهذه ياسيدى حالة الأمريكيين في جميع أعمالهم لا يعطون بدون مقابل .

عادت الباهرة إلى السير بعد أن انتهى المفتش العام من التصوير ونحن دخلنا في ردهة الباهرة وإذا بسيدة تصيح بأعلى صوتها بين الحاضرين إني أقترح عليكم جميعاً أن تصيحوا معي في الساعة التاسعة مساءً ثلاث مرات فليعيش ربان الباهرة وليعيش المفتش العام للشركة مكافأة لها على ما صنعتها معنا اليوم من الجميل الحسن ولكننا لم ننظر هذه الساعة بل ذهبنا إلى غرفنا للنوم والراحة .

قمت نحو الساعة الثالثة من صباح يوم الأحد ٢٣ يونيه فلم أشعر بسير البخرة فعملت أننا وصلنا إلى بلدة كيتشيكان (Ketchikan) وليكني لم أخرج من غرفتي وفي منتصف الساعة الثامنة أخذت شيئاً من الطعام ثم نزلنا إلى الرصيف لزيارة هذه البلدة

إن هذه البلدة يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ نسمة وثلثهم من الصينيين واليابانيين وأغلبهم صيادون وبعضهم يجرفي فراء الدب وغيره وهي قدرة جداً ورائحة السمك منتشرة في هوائها أما شوارعها فقد غطيت بألواح من الخشب لرطوبة أرضها ومنازلها صغيرة وحقيرة وقد دخلنا بعض حوانيتها فلم نفيها شيئاً يذكر وقد رأينا قرب أحياء الهنود أعمدة من الخشب قائمة وقد نقش عليها رسوم غريبة وعلى رأس بعضها صورة نوع من الطير وبعضها على رأسه صورة نوع من السمك أو الضفدع وكلها ملونة بألوان غير متقنة وبالجملة صنعتها تدل على انحطاط مدارك أصحابها وبعدهم عن الحضارة ذهبنا بعد ذلك لرؤية جندل فشيننا بجانب مجرى ماء كان يمتشق أراضى زراعية خصبة إلى أن وصلنا إلى سلم من خشب فصعدنا فيه ولكن لا بدّ دون الوصول إلى أعلى مكان يرى الإنسان منه هذا الجندل أن نعبّر جسراً (كوبري) من خشب وهو مكون من لوحين متجاورين بدون حاجز يق المارين

شر السقوط فلم يخاطر زميلنا مصطفى بك بحياته فيمشى عليه . وقد قابلنا أحد سكان هذه البلدة وقال لنا لاتعبوا أنفسكم ولا تتجاوزوا مكانكم فليس هناك شئ يستحق هذه المخاطرة وقد أخبرنا أن هذا الجسر يمتد إلى مسافة ربع ساعة وينتهي بغاية لا طريق فيها صالح يوصلكم إلى نهاية مرغوبكم وقد كنت أود أن أذهب إلى البحيرة التي تتكون من ماء هذا الجنديل لأن السيدة التي تخطف كل يوم في البائرة وتصف بجانب ماسنراه في اليوم التالي كانت أخبرتنا بأن مقداراً عظيماً من سمك (البقلاء) في هذه البحيرة حتى إنه يتيسر لكل من أراد أن يصطاد منه بيديه بدون شرك وقد كنت واثقاً بأن كلامها لأصل له ولكني كنت أريد أن أرى بنفسى هذه البحيرة حتى أحكى عما شاهدته عياناً لمن يغرم هذا الكلام الباطل . هذا وقد كانت أطلقت للسائها عتائه وصارت تشرح للحاضرين بعض تاريخ حياة هذا السمك وسأذكر هنا للقراء ملخص ما قالت على سبيل الفكاهة . هذه الباحثة قالت إن هذا النوع من السمك بعد أن يكبر في هذه البحيرة يتبع مجرى الماء وينحدر إلى الأسفل ولكنه قبل أن يموت بأربع سنوات يعود إلى المكان الذي خلق فيه فيتكبد مشاق الصعود بين تسلق صخور ومرور بين جذور أشجار تأكل من جسمه وقد رؤى

بعضها ممزق الجسم وبعضها فاقد البصر ولكنه لا يرجع عن العودة إلى مكان نشأته حبا لوطنه الأصلي فهل هذا الكلام يتصوره العقل ؟ كلام كلا ومع ذلك فقد كانت محاضرتها تسر السيدات حتى كان تصفيقهن لها حادا جدا يصم الآذان . إن السيدات مهما بلغن من التعلم فإنهن سر يعات التأثير تتلاعب بعقولهن الأوهام فيصدقن كثيرا من الأباطيل التي قلبا يتأثر بها الرجل المتعلم فيصدقها ولذا لم أر واحدة من اللاتي سمعن هذه المحاضرة إلا وهي مصدقة لأقوال هذه الباحثة في أخلاق السمك . كيف يمكن تصديق هذه الخرافة والإنسان يعاني ما يعاني للوصول إلى هذه البحيرة فهل يعقل أن السمك يصعد إلى قمة صخرة يزيد ارتفاعها عن عشرة أمتار ويقاوم تيار المياه المتدفقة بسرعة هائلة ؟

عدنا بعد ذلك إلى داخل البلدة ووقفنا أمام مطعم صيني وآخر ياباني وقرأنا اللوحتين المعلقتين أمام باييهما وقد كتب عليهما باللغتين الإنجليزية والصينية أو اليابانية وقد رأينا بين الأطعمة لحم الكلب وعيون السمك وأظن أن هذين المطعمين مشهوران بإتقان هذين الصنفين . ذهبتا بعد ذلك إلى معمل حفظ السمك الشهير فقطعتنا الطريق الموصل إليه في ٥ ٤ دقيقة على الأقدام وقد شمننا رائحة

السّمك على بُعد عظيم منه وقد رأينا أمامه عددا كبيرا من الصناديق التي يوضع فيها السمك ويصدر إلى الجهات البعيدة والدخول في هذا المعمل مباح لعامة الناس فابتدأنا برؤية المكان الذي يرد إليه السمك أولا ثم يفرز ويوضع كل نوع على حدة وبعد ذلك انتقلنا إلى الغرفة المثلجة التي يحفظ فيها السمك ويؤخذ منها ويقدم إلى الآلة التي تقطع رأسه وذنبه وتفتح بطنه وتغسله وتنظفه ثم ترتبه وتضعه في الصناديق وتغلقها عليه قنسد سدا محكما بالمسامير كل هذا يحصل بقوة البخار وبسرعة عظيمة وقد سمعنا ألب النوع الجيد من السمك المحفوظ يصدر إلى نيويورك وشيكاغو والفاسد منه يرسل إلى الصين ولم يمكأ أن نفق كثيرا في هذه الغرفة المثلجة لشدة بردها فخرجنا مسرعين وعدنا إلى الباحة

أقلعت بنا الباحة من كيتشيكان (Ketchikan) في نحو الساعة الحادية عشرة ومن ذلك الوقت إلى أن صارت الساعة ٤ و ٥ دقيقة لم نر منظرا يستحق الإعجاب ولكن بعد ذلك أخذنا نسير في مضيق لا يزيد اتساعه عن اتساع نيل مصر عند قصر النيل وقد كانت الباحة تسير بين علامات طاقة على وجه الماء حتى لا تعطل سيرها وقد مررنا على معمل سمك على شاطئ هذا (القتال) الطبيعي يسمى

معمل سان بطرسبرج فأردت أن أصوره بجماله ولحسن موقعه فلم
أتمكن من ذلك وعزمت على رسمه عند العودة إن شاء الله . إن
ماء البحر في هذا المضيق كان ساكنا صافيا حتى كنا نرى كل شيء
في مقره كأنه مرسوم على سطح الماء وقد قطعناه في ساعتين ونصف
وبعد ذلك أخذنا نقرب من أمكنة الثلوج التي كانت تنفصل منها
قطع وتعم على وجه الماء وكنا نشاهدها وتمسها بخرتنا وفي الساعة
التاسعة مساء اقرقنا للنوم ولكن من أين ياتينا ذلك والشمس
لا تقرب قبل نصف الليل

رست البخرة قبل الساعة السادسة صباحا من يوم الاثنين ٢٤
يونيه في مكان الثلوج الذي يسمى تاكو جلاسيه (Taku Glacier)
فأسرعنا بارتداء ملابسنا ولما خرجنا من غرفنا وجدنا البخرة محاطة
بقطع كبيرة من الثلوج بعضها أبيض ناصع وبعضها الآخر أبيض مائل
إلى الزرقة فجيل إلينا أننا في القطب الشمال لأننا حيث نوجه نظرنا
لا نرى إلا الثلجا وقد كنا نسمع بين وقت وآخر صوتا يشبه صفف
العدو وكان ذلك ناشئا من انفصال الثلوج وسقوطها في البحر ولا نسل
عن مناظر أمكنة الثلوج فإنها رائعة جميلة وتلك الأمكنة منسعة الأرجاء
لا يبلغ البصر مداها ومن العجيب أنها أيضا مختلفة الألوان والأشكال

جزء منها مستولون بعضه أبيض ناصع والبعض الآخر أزرق وجزء
آخر به تلال من الثلج رؤوسها بيضاء وقواعدها زرقاء وآخر أزرق
الرأس أبيض القاعدة

فتصور أيها القارئ سكون البحر وصفاء مائه الذي يتخلله قطع
لا تعد من الثلوج بألوانها المختلفة حول باخرتك وعلى مسافة منك أمكنة
الثلوج الهائلة على أوصافها السابقة فهل يمكن أن ترى منظرًا أبدع
من ذلك

في نحو الساعة ٩ والدقيقة ١٥ قامت بنا البخرة تقصد تريديويل
(Treadwell) فوصلنا إليها في الساعة ١١ والدقيقة ١٥ ولما أردنا
التزول من البخرة تقدم إلى المستردومن مفتش الشركة وقال لي
لا تصحبوا الدليل كباقي السائحين فإن أردتم أصحابكم لأريك ما يهيمكم
رؤيته مما في هذه البلدة فقبلنا منه ذلك مع الشكر وتزلنا معه فذهب
بنا أولاً إلى مخزن تجارة به كل أنواع المأكولات المحفوظة في الصناديق
وأنواع الحلوى وكثير من ملابس الرجال والسيدات وبالجملة به جميع
الحاجات الضرورية للإنسان وهذا المخزن يبيع للعامل الذين يشتغلون
في مناجم الذهب التي بتريديويل وبعد ذلك استأذن منا في مقابلة
مدير أهم منجم في هذه البلدة ليأذن لنا بالدخول فيه لترى كيف

يستخرج الذهب من بطون الأرض وبعد قليل من الزمن عاد إلينا
ومعه أحد مستخدمى هذا المنجم وذهبنا كلنا أولاً لزيارة مساكن
العمال فإذا هى بالغة غاية النظافة وحسن الترتيب ثم دخلنا فى المطعم
وهو عبارة عن غرفة واسعة بها عدد عظيم من الموائد عليها الأطباق
وكل ما يلزم لتناول الطعام فاعجبنا عظيم الاعتناء بها وقد وضع فى أركانها
بعض شجيرات خضراء لتردان بها وقد وجدنا فى أحد أركان هذه
الغرفة ثلاث قدور (صمورات) إحداها للقهوة والأخرى لئاء المسخن
والثالثة للشاي . دخلنا بعد ذلك إلى المطبخ فوجدناه لا يقل نظافة
عن غرفة الطعام . وبالجملة قد روعى فى كل ما زرناه جميع أسباب
الراحة ولم أر نقصاً فى جميع نظام هذا البناء العظيم الذى يسع الألواف
من العمال وعند خروجنا منه وجدنا أمامه كل ما يستعمل عادة فى إطفاء
الحريق على أحدث طراز وقد حكى لنا عامل المنجم الذى معنا أنه
فى كل شهر تجرى مسابقة بين طوائف العمال الموكلين بإدارة المضخات
وتركيب نراطيم المياه وغيرها وعدد كل طائفة ثلاثة عمال والذين
يحوزون قصب السبق يتالون مكافأة قدرها . ٥ دولاراً وقد
خصصت الشركة هذه القيمة الكبيرة لتنشط العمال ولتأمن على
عمارتها العظيمة من شر الحريق أما هؤلاء العمال فإنهم خليط من

اليابانيين والنموسيين والروسيين ورؤسائهم أمريكيون . ذهبنا بعد ذلك إلى بناء أصغر من الأول ولا يبعد عنه إلا بعض أمتار وإذا هو ناد يشتمل على غرفة للطالعة بها مكتبة حاوية جملة مجلدات وجراند أمريكا ومجلاتها ثم غرفة أخرى بها ملاعب مختلفة كالبياردو وغيره وقد علمنا أن من أراد من العمال أن يكون عضوا في هذا النادى فعليه أن يدفع كل شهر دولارا ونصفا . ذهبنا بعد ذلك إلى الحمامات فوجدناها نظيفة جدًا وقد رأينا فيها حوضا كبيرا وضع عليه بعض ألواح ليلقى العامل نفسه من فوقها إلى وسط هذا الحوض ويسبح في مائه ووجدنا أيضا بعض الآلات المستعملة للرياضة البدنية وقد اعتنى بتنظيم هذه الحمامات فإنها لا ينقصها الحمامات البخارية ولا أنواع (الدش) وقد يأتي إليها كثير من سكان هذه البلدة وبلدة جونو (Juneau) القريبة من هنا فيدخلونها بأجرة يدفعونها . خرجنا من هذا النادى فوجدنا أمامه رحبة عظيمة معدة لكثير من الألعاب الرياضية (كالتينس) وغيره ثم ذهبنا بعد ذلك لترى كيف يستخرج الذهب من بطون الأرض فوقع نظرنا على بناء كبير كقطعة من جبل يدل شكله الخارجى على أنه مقسم إلى جملة أقسام فإن سطوحه بعضها مستطيل ومرتفع وبعضها الآخر مربع ومنخفض

أما عدد المداخن فكثير جدًا والدخان المتصاعد منها يدل على ان الوقود الذى يحرق فى هذه المعامل كثير جدًا وقد رأينا أبوابها متسعة وتخرج منها خطوط حديدية تمشى عليها عربات تقبل الأتربة التى يستخرج منها الذهب ونجمر هذه العربات قاطرة صغيرة ولكنها كافية لتسيرها بسرعة عظيمة فألقينا أولًا نظرة عامة على هذا النوع من التراب فإذا هو عبارة عن خليط من الرمال وبعض قطع من الحجارة التى يشبه لونها لون ما يصنع منه القليل المصرية (القناوى) ولا يمكن للإنسان أن يرى فى خلالها أثرًا للذهب فاستغربنا من ذلك لأن بعض الناس يعتقد أن الذهب يخرج من بطون الأرض سباتك أو تبرا ناعما إلا أنه يكون مختلطًا ببعض معادن أخرى تفصل عنه بمواد كهاوية أو بصهره فى تناير مرتفعة الحرارة إلى درجة معلومة فرؤيتنا هذا التراب أبعدت عنا هذه الفكرة - دخلنا بعد ذلك فى هذا المنجم وإذا نحن فى ردهة عظيمة الاتساع تدخل فيها هذه العربات الصغيرة وتفرغ الأتربة والحجارة الصغيرة فى هواون مصفوفة بعضها بجانب بعض على خط مستقيم وفوقها عمود يسقط فيها ويحرك بسرعة مدهشة فيجعل هذه الأتربة والحجارة كالذيق وقد اعترتنا الدهشة من كثرة الضوضاء فإن الإنسان إذا صاح بأعلى صوته لا يمكن أن يسمعه أى شخص ولو

كان قريبا منه فشرعت بحالة هؤلاء العمال التعمه ولا بد أنهم يخرجون بعد انتهاء أشغالهم وهم لا يسمعون ولا يعون قفصت حالة زراعنا في أراضي مصر الحصبة عن حالة هؤلاء المساكين وحمدت الله كثيرا إذ من علينا بما يغنيا عن هذه المعيشة الشاقة . رأينا تحت كل هاون منضدة (طلبية) مستطيلة تهتز من الخلف إلى الأمام بسرعة بطيئة فيسقط عليها التراب الناعم وتدفعه مياه مسلطة عليها فيسقط على منضدة أخرى مستطيلة مصقولة صقلا تاما ومغطاة بلوح من الفضة ناعم جدًا فلما يدفع ماعلى المنضدة الأولى من التراب فيسقط على الثانية ويدفعه أيضا إلى مجرى ماء شديد يدفعه إلى الخارج وبهذه الطريقة يرسب على المنضدة الثانية طبقة رقيقة جدًا من معدن الذهب والفضة وغيرهما وقد أحصينا عدد المناضد المسكوة بالألواح الفضية فإذا هي ثلاثون وعند ما ترى العمال أن هذه الطبقة كست اللوح بمنعون سقوط الماء عنه ويجففونه ثم يكشطون هذه الطبقة بسكين حاد ويجمعونها في بودقة وقد بحثنا فيها فلم نجد للذهب ولا للفضة أثرا وبعد ذلك يضيفون إلى هذا التراب المستخرج أخيرا جزءا من الرصاص وأجزاء أخرى كيميائية ويضعونها في تنور درجة حرارته معلومة عندهم مدة ٤ دقيقة فيمتزج الرصاص مع الذهب والفضة ويسقط

في قاع البودقة فتتكون طبقة تشبه الزجاج فوق هذا المزيج منفصلة عنه فتلقى هذه الطبقة و يوضع مزيج الذهب والفضة والرصاص الذي تبلغ زنة مايكون منه في بودقة واحدة من ٢٠ إلى ٣٠ جراما في بودقة أخرى من (السمننو) ويضاف إليه مواد كيميائية أخرى ثم يوضع ذلك في تنور شديد الحرارة فيتبخر ثلث الرصاص والباقي منه ينفصل عن الذهب والفضة ثم يفصلون الذهب من الفضة أيضا وبعد ذلك يسلم الذهب المستخرج إلى عامل يزنه بميزان دقيق جدًا مغطى بالزجاج ثم ينقل بعد وزنه إلى خزانة حديدية لحفظه وقد رأينا هذا الذهب المستخرج فإذا هو قشور رقيقة جدًا كالورق الذي يُذهب به بعض أثاث المنازل أماالعمال الموكلون بوزن الذهب فإنهم ممن تتق الشركة بأمانتهم وقد تبلغ وظيفة أحدهم في الشهر من ١٥٠ إلى ٢٠٠ دولار لأمانته ودقة عمله وهؤلاء العمال يكتبون في دفاتر خاصة بهم مقدار الذهب المستخرج من كل بودقة وقد انتهزت هذه الفرصة لأقف على قيمة ما يستخرج كل سنة من الذهب من هذا المنجم فقيل لي إن كل طن من الأثرية والحجارة يستخرج منه ذهب قيمته ثلاثة دولارات وقد توجد مناجم أخرى يستخرج من الطن الواحد من أثريتها أكثر من مائة دولار ولكن هنا السرعة العظيمة في العمل

هى التى تجعل الشركة ترحب فإن دخلها من منجمها فى كل سنة يبلغ مليون جنيه وقد ابتدئ فى استخراج الذهب من هذا المنجم من مدة ٢٥ سنة و ينتظر أن يستمر العمل فيه أكثر من هذه المدة . ذهبنا بعد ذلك لرؤية الآلة المحركة لهذه الآلات (المالكينات) فإذا هى قوية جدًا ثم ذهبنا إلى المصعد الذى يهبط إلى بطن الأرض فيحمل العربة مملوءة بالأتربة إلى سطحها وقد علمنا أن هذه الأتربة تستخرج الآن من عمق ١٠٠٠ قدم وهناك مصاعد أخرى مثل هذا تشغل فى النقل وقد علمنا أن كل حفرة تحت الأرض تزيد مساحتها عن ١٢٠ مترًا مربعًا وكلها مضاعة بالأنوار الكهربائية التى تولدها آلة كبيرة جدًا تكفى لإضاءة هذا المنجم المتسع وجميع منازل البلدة أما عدد العمال فيبلغ ٣٠٠٠ رجل وصحتهم جميعا جيدة .

خرجنا من هذا المنجم بعد أن شكرنا مندوب شركة المناجم الذى رافقتنا فى هذه الزيارة المفيدة ولكنا مدينون بكثير من الشكر للستر دومان الذى سعى حتى حصل على إذن لنا بالدخول فى هذا المنجم لأنه لولا مساعدته لما أمكننا أن نرى هذا المنجم الذى لا يؤذن بالدخول فيه لغير عمال الشركة .

عدنا بعد ذلك إلى بانحرتنا وفى الساعة الثانية بعد الظهر أقلمت بنا

إلى مدينة جونو (Juneau) عاصمة الاسكا الأمريكية فوصلنا إليها بعد ٥٤ دقيقة . نزلنا في هذه العاصمة فلم نجد فيها شيئاً يستحق الذكر وقد أنشئت في سنة ١٨٨٠ ميلادية وشهرتها في تجارة الفراء فاسترضنا قليلاً في شوارعها المغطاة بالخشب ووقفنا بجانب حانوت كان أمام بابيه دب صغير يلعب السابله ثم ذهبنا إلى مكتب البريد البرقي (التلغراف) وأرسلنا إشارة برقية إلى كوك بنيويورك نسأله فيها أن يجزئنا إن أمكن غرماً في البخرة التي تقوم من نيويورك في ٢٣ يولييه إلى أوربا فإن وجد ما يوافقنا نكون بذلك تقدمنا أسبوعاً عن ميعاد السفر المقرر في برنامجنا ووددنا لو تحققت هذه الأمنية فقد زاد اشتياقنا إلى بلادنا العزيزة وفي أوربا لا نحرّم من رؤية كثير من أبناء وطننا العزيز .

عدنا إلى الباهرة وبعد تناول العشاء نخرجنا منها للاستراحة قليلاً وقد علمنا أن بمدينة جونو بعض مناجم النحاس ولكنها ليست من الأهمية بمكان .

في منتصف الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء ٢٥ يونيه رست الباهرة على بلدة سكاغوى (Skagway) وقد قيل لنا إن بها مستراضاً صغيراً يتوصل إليه بطريق حديدى ولكن المستر دومان نصح إلينا ألا نذهب إليه لاسيما إذا كانت الجوى غير معتدل كيومنا هذا الذى

تهجر فيه الأمطار انهمارا فإننا لانرى شيئا يعادل ما نخبشمه من
المشآت قبلنا نصيحته وقضينا وقتنا مابين جلوس فى ردهة الباحة
وكتابه مذكرات عن رحلتى . ولما حل ميعاد تناول غداتنا ذهبنا إلى
السفرة فلم يكن معنا أكثر من عشرة من السائحين والسائحات فحمدنا
الله إذ كنا فى هدوء لا نسمع جلبة العجائز ولا كثرة كلامهن المقلق
وبعد أن اتينا منه ذهب كل منا إلى غرفته للاستراحة قليلا وبتنا
كنت على سرى دخلت على سيدة عجوز بدون أن تستأذنى
وأخذت من أمامى قلة الماء وأنا أنظر إلى ما تفعل وأعجب من جرأتها
وعدم مراعاتها الأداب وقد فاتتني أن أذكر أن هذه السيدة حضرت
الباحة عندى وفتحت باب غرفتى ولما رأتني اعتذرت قائلة إنها
كانت تظن أن هذا الباب يوصل إلى المطعم فلم أجد لاعتذارها
وجها يجعله مقبولا .

إن الذين ذهبوا للاستراحة عادوا إلى الباحة بدون أن يصلوا إلى
غايتهم منها وذلك لرداءة الجو وقد ذهب ما أنفقوه فى تلك السبيل
هباء مشورا ولم أر على وجوههم أثرا للسرور من رياضتهم هذه فقلت
فى ضميرى حسنا فعلنا إذ لم نفقد شيئا من دراهمنا ولم يصبنا من البلل
ما أصاب هؤلاء الذين ساء حظهم فى هذه الاستراحة

بعد ما اعتدل الجوّ قليلا ركبتا في عربة عامة معدّة لنقل السائحين إلى مركز تجارة هذه البلدة بدون أجر فالتقينا نظرة عامة على حوائطها فلم نر فيها شيئا يستحق الذكر إلا جلد دب أبيض معرض للبيع فسألت عن ثمنه فقيل لي ١٠٠٠ فرنك وهو يساوي في بلاد التروج ٢٥٠٠ فرنك على أقل تقدير والسبب في رخص الجلود هنا أن أغنياء السائحين قلما يحضرون إلى هذه الجهات فلا أمل للتجار في طلب ثمن عال لبضاعتهم .

عدنا بعد ذلك إلى البانحة راجلين وفي نحو الساعة الثالثة بعد الظهر أفلعت بنا السفينة إلى بلدة هاينس (Haines) التي تبعد عن اسكاجوى بنجمة عشر ميلا ولما وصلنا إليها وجدناها صغيرة جدا وعدد منازلها لا يزيد عن الثلاثين ولكن بها مركز عسكري به ثكنة للجنود وبجوارها منازل الضباط وقد كان على رصيف الميناء كثير من الجنود ومعهم دب صغير مطلق السراح يلعب معهم وقد سمعنا عنه أنه يترك في الغابة ولما يشتد عليه أثم الجوع يبكي فيرسل له أحد العساكر لاحضاره فيناديه فيتبعه إلى الثكنة بلا خوف ولا وجل في منتصف الساعة الثامنة قامت بنا البانحة إلى دافيدسون جلاسيه (Davidson Glacier) وقد كانت السماء ترسل وابلا مدرارا

ولكن ما انتصفت الساعة التاسعة حتى انقشعت هذه الغيوم وظهرت الغزاة وقد كآ قربنا من دافيدسون جلاسيه وهى عبارة عن أمكنة ثلوج هائلة لا يفصلها عن البحر الذى تسير فيه باخرتنا إلا خط من الأشجار فلم نهتد إلى السبب الذى حفظ هذه الأشجار فلم تمت من تأثير البرد الشديد فألقينا نظرة عامة على المناظر التى تحيط بنا ثم اقررنا للنوم وقد تحركت بنا السفينة ليلا .

وفى صباح (يوم الأربعاء ٢٦ يونيه) وصلنا إلى أمكنة الثلوج التى تدعى مور جلاسيه (Muir Glacier) فأسرعنا بارتداء ملابسنا وخرجنا من غرفنا وألقينا نظرة على ماحولنا فاذا نحن محاطون بقطع صغيرة من الثلج ولكن يعلوها الغبار فلم يرقنا منظرها وقد نزل بعض السائحين إلى هذه الأمكنة حتى يقولوا عند عودتهم إليهم ساروا على الثلج أما أنا فلم أرد أن أنزل معهم لأنى رأيت مثل هذه المناظر كثيرا فى بلاد النرويج وفى جبال سويسرا وقد كان البرد شديدا جدا وهذا السبب الأخير هو الباعث القوي لعدم تحركى من مكافى . اقتربت قطعة هائلة من الثلج من باخرتنا فأردت أن أنزل لأقف عليها حتى ترسم صورى وأنا على هذا الحال فطلبت ذلك من ربان الباخرة فأجابنى إنه لا يمكنه أن يحمل على عاتقه تبعه هذه المخاطرة فعدلت عن فكرتى

وفي الساعة الثانية عشرة قامت بنا البخرة إلى كليسانو (Klisano) وقد كانت البخرة تصادم قطع الثلج المنتشرة في البحر وكنا نسمع صوت هذه المصادمات وفي الساعة الثامنة مساء وصلنا إليها ولا أعرف سببا لوقوف البخرة على هذه القرية الصغيرة التي لا يبلغ عدد منازلها العشرين فنزلنا وجئنا فيها فلم نجد شيئا يذكر الا معمل السمك (Hareng) الذي كانت تنبعث منه رائحة كريهة أشد تأثيرا في الأنف من رائحة (الفسخ) وقد رأينا بعض الملاحين يأخذون في أوعية سمكا قفلا ماذا نصنع اذا قدم لنا منه شيء في طعامنا فقرينا منهم ورأينا ما يحملونه واذا هو سمك صغير جدا ذو رائحة شديدة كريهة وبعد ٥ ٤ دقيقة أفلعت بنا البخرة وبعد أن سارت قليلا وقفت في عرض البحر ثم رأينا جبلا في طرفها شصوص (ستانير) أعدت لصيد السمك وكان عددها نحو الخمسين جبلا ففهمنا السبب في تعريجتنا على كليسانو الصغيرة وأخذنا منها السمك الصغير والظاهر أن هذا المكان الذي قف فيه الآن شهير بكثرة السمك وقد فرقت هذه الجبال على كل من يريد أن يلهو بصيد السمك وقد تولى ملاحظة كل بحمة جبال ملاح وأخذ كل ملاح منهم يضع في شصوص جباله (ستانيرها) قطعا من السمك الصغير وأدلى السانجون والسانحات جبالهم في البحر فصارت

الباخرة أشبه بباخرة صيادين من أن تكون باخرة سائحين أما نحن فصرنا
نمشي لثرى ماذا يتم في هذا الأمر وبعد انتظار ساعة اصطادت سيدة
سمكة متوسطة فقلا إذا كان هذا الزمن الطويل لا يصطاد فيه إلا
سمكة واحدة فلا ينتظر فائدة كبيرة ولكن بعد قليل سمعنا صياح القرح
فقد أعقب هذه السيدة العجوز زوجها الهرم فصاد سمكة أخرى
فتحولت الأنظار اليهما وكثرت عليها التهاني وبينما هما يشرحان كيف
أمكنهما صيد هاتين السمكتين إذا بسيدة تنادى بأعلى صوتها لقد من
الله على بسمكة كبيرة فأسرعوا بأهل النجدة الى مساعدتي على جذبها
فتكاثرت عليها الرجال والسيدات وكل ينسب الى نفسه الفضل في
اقتناصها فكثرت المجادلة بين الجميع واختلفوا فيمن هي من نصيبه أما
السمكة فكانت كبيرة جدا من نوع (الماليبو) حتى أوشك الحبل أن
ينقطع بها لثقلها وقد رأينا رأسها بارزا وهو كبير الحجم وكانت حركتها تدل
على شدة قوتها وقد كان الزحام حولها بالغاً أشده والكل يبدي رأيه
في طريقة سحبها فأراد الربان الثاني للباخرة أن يظهر مقدربه فأخذ عصا
طويلة في طرفها قطعة من الحديد ذات شبة ونزل الى قاع السفينة
وأراد أن يغرسها في رأس السمكة ويساعد على إخراجها ولكن ذهب
تعبه بل خلص السمكة من الحبل فالتحذت سبيلها في البحر هرباً

وغاصت في قاعه فعلا صياح الأسف بين الجميع والكل يحظنه في عمله
الذى أضاع عليهم ثمرة تعبهم أما نحن فسررنا من فرارها لأننا رأينا
من حال المجادلة الأولى أن الأمر ربما يفضى إلى المشاحة وهذا
مانحشاه كثيرا لأن الحادثة وقعت أمام باب غرفتي فاذا كثر الصياح
لأجد سبيلا إلى الراحة والنوم . دخلنا بعد ذلك في غرفة التدخين
فاذا رأينا رأينا الغلام الموكل ببيع الخمر يلعب هذه السمكة التي
كانت سببا في كسر عدد عظيم من الزجاجات الثمينة المملوءة بالراح
فانه عندما سمع الصياح قفز من مكانه ليرى ماذا جرى فأوقع زجاجات
الخمر على الأرض فكسرت وذهب كل ما فيها فصار يكرر الشتم
ويلعن طالعه السيئ وقد كان يتصاعد من الخمر رائحة قوية تغلبت
على رائحة السمك الصغير الذي يصطاد به وبعد ذلك فارقت رفيقتي
وذهبت للنوم وفي نحو الساعة العاشرة سمعت صياحا آخر يدل على
السرور ولكني لم أنتقل من سريري وأغمضت عيني تاركا للصيادين
حبورهم داعيا لهم أن يزيد الله في رزقهم لأن ذلك الرزق يصيبنا شيء
منه فان السمك سيطبخ ويقدم للجميع .

ولما أصبح (يوم الخميس ٢٧ يونيه) علمت من رفيقتي أنه بلغ عدد
السمك الذي اصطاده السائحون أكثر من خمسين سمكة وأغلبها كبير

وقد كما وصلنا إلى مدينة سيتكا (Sitka) التي كانت عاصمة ألاسكا عند ما كانت تابعة للروسيين فنزلنا إليها ووجدنا عددا كبيرا من الهنود بين رجال ونساء يعرضون مصنوعاتهم للبيع فألقينا نظرة على هذه البضاعة فإذا هي كالمعروضات التي كنا نراها في كل مكان (خف مصنوع من جلد الغزال وملاعق خشبية وأساور وحلي هندية وجلود حيوانات هذه الجهة وغيرها)

ثم استمررنا في طريق أوصلنا إلى غابة جعلت كمتنزه وكانت أشجارها متقاربا بعضها من بعض وقد صادفنا كثيرا من الأعمدة الهندية المقوشة التي سبق الكلام على مثلها وهي مختلفة باختلاف الأسرار فإنها معتبرة كرمز عند الهنود إلى نسب كل أسرة وبعد أن جلنا في هذه الغابة عبرنا جسرا ومنه عدنا إلى المدينة وزرنا معرضها العام فلم نجد فيه شيئا غريبا لم نر مثله من قبل ثم مررنا أمام مدرسة لتعليم بنات الهنود الغسل والكي والطبخ والخياطة وكل ما يلزم لإدارة المنزل وقد كانت البنات مرتديات بملايس أوربية ثم دخلنا بعد ذلك كنيسة روسية قيل لنا إنها قديمة العهد ومن أجل الكنائس ودفعنا أجرة الدخول نصف دولار عن كل شخص ولكننا لم نر فيها ما ينطبق على ما وصفت به لنا إلا لوحين معلقين يمثلان صورة السيد المسيح

والعدراء وهما حقيقة من أبداع ماصنعته يد الانسان ثم رأينا لوحة أخرى بها صورة أول كاهن روسي وصل الى سيتكا ولكن صنعتها أقل اتقاناً من صنعة اللوحين السابقين وبعد ذلك عدنا إلى البخرة لأننا كنا ننتظر رد الرسالة البرقية التي أرسلناها الى نيويورك نستفهم عن امكان تغيير تذاكر السفر وتقديم ميعاده أسبوعاً ويجرد وصولنا إلى البخرة تسلمنا رسالة برقية أنبأتنا بأنه يمكن التسفر في البخرة التي تسافر من نيويورك يوم ٢٣ يولييه فسررنا جداً . وبعد الغداء ذهبنا إلى مكتب البريد البرقي وأرسلنا رسالة برقية نذكر فيها قبولنا السفر في البخرة المذكورة ثم جئنا في المدينة واشترينا من الهنود ما اخترناه من بضائعهم ثم نظرنا مساكنهم الحقبيرة وحالتهم التعمسة وقد رأينا كثيراً منهم مصاباً بأمراض مهلكة وبعضهم فقدوا نظرهم من عدم الاعتناء بنظافة عيونهم وقد أثر فينا منظر هندي بلغ من العمر أرذله وهو ضرير وكان ينشر قطعة من خشب فإ أقصى قلب الانسان إليهم لا يتركونه يقضى باقي عمره في هدوء مع أنه في أعسى حالة فالكبير جعل جسمه يرتعش والقرقر زاد شقاءه فتقدمت اليه وأعطيته يدي ما يخفف عنه آلام الحياة التي كلفها شقاءه فرأيت من حالته أنه ما كان ينتظر من أحد أن يبهه ما يسد به رمقه هذا وقد علمنا أن هؤلاء الهنود كانوا يعتقدون

الدين المسيحي على المذهب الأرثوذكسي لما كانت بلادهم يحتلها
 الروسيون والآن غيروا مذهبهم واتبعوا المذهب البروتستانتي مذهب
 الأمريكيين ولا غرابة في ذلك فالتاس على دين ملوكهم أردنا بعد
 ذلك أن نذهب الى المقابر الروسية والهندية فتقدما الى فتاة وطنية
 نسألها عن هذه المقابر فلم ترد أن ترشدنا الى مكانها قائلة إنها لاتعرفها
 وقد رأينا من هيئتها واشتمزازها أنها تكره الجنس الأبيض ولعل لها
 في ذلك بعض المعضلة . وأخيرا دلنا عليها روسي كهل قمشينا في
 الطريق الموصل اليها وصرنا نصعد في تل عال إلى أن وقفنا في وسط
 المقابر فلم نر فيها شيئا غريبا الا أننا وجدنا مكانا محاطا بالأخشاب
 وعلى جوانبه ذلك فصعدنا عليها فرأينا مناظر سيتكا الجميلة وقد أعجبتنا
 موقع هذه المقابر لأنها في أجمل مكان في سيتكا . ولما شعرنا بتأثير
 البرد صممنا أن نعود وبيننا نحن في وسط الطريق قابلنا المستر دومان
 أمام حانوت وقال لي ان هذا الحانوت يديره أحد الشبان المتعلمين
 وعنده ما يهيم الوقوف عليه فدخلناه ورأيت ملامح الذكاء تلوح
 على مديره الشاب فسألته عن عدد الهنود في جزيرة بارانوف
 (Baranof Island) التي فيها مدينة سيتكا فقال لي انهم لا يبلغون
 الخمسةة وينقسمون الى ثلاثة أقسام تحت رئاسة ثلاثة مشايخ ثم قدم

إلى حقا به تراب ناعم جدا وقال لى انه من آثار الاثرية التى ثارت عند حدوث الزلزلة واقهجار البركان منذ عهد قريب فى جهة كودياك (Kodiak) التى تبعد عن هنا بنحو ٦٠٠ ميل فقد حملها الهواء اليها حتى كان الجو مظلما وقد غطى التراب النائر كل العمال والمنازل وغيرها وقد لاحظت أن الأشجار التى أصابها هذا التراب عدت الحياة بجمعت منه هذا المقدار لأقف على تركيبه ويظن أنه نخرج من بطن الأرض عند الثباب البركان وقد أعطاني منه مقدارا صغيرا لأبحث فيه بمصر ولأعلم سرّ ما به من الأجزاء المهلكة للنبات. ثم عاد الى ذكر أحوال الهنود فقال إنهم فى الزمن السابق كانوا يعيشون تحت أحكام أمرائهم التى كانت نافذة عليهم وكانت فى طبيعتهم مساعدة فقراءهم والبالسين مساعدة عظيمة حتى كان القوى منهم يشتغل ليقوت الضعيف أو المريض أو الهرم ولكن الآن ذهب منهم هذه الخلال الحميدة باختلاطهم بنا فقد أصبح كل هندی لا يجهه الا شأن نفسه وقد ذهب عن عاتقه عبء الاقبياد لقدماء رؤسائه ولكنهم مازالت فيهم بعض فضائل فانهم لا يزالون يحبون بعضهم بعضا ولا يسرقون شيئا يملكه هندی مثلهم وجميع معاملاتهم فيما بينهم صادقة بخلاف معاملاتهم للجنس الأبيض فكانهم يرون أن كل ما يمتلكه الأبيض

حلال لهم ثم استطرد في كلامه إلى معارف الهنود فقال ان هؤلاء
الوحشيين قد عرفوا أن السمك يبيض قبل أن يختلطوا بالأوربيين
ولذا كانوا يلقون في البحر على الشاطئ فروع الأشجار بأوراقها
ويربطونها في أجمار فاذا حل ميعاد يبيض السمك أتى الى تلك الفروع
وياض على أوراقها فيلتقطونها ويحفظونها ويحفظونها للأوقات التي
تقل فيها موارد غذائهم ولما كانوا لا يعرفون استخدام المعادن في صناعة
أوانيهم كانوا يصنعون من فروع الشجر سلالا ويطلون بها بالطين
ويحفظونها ثم يضعون فيها الماء و يلقون فيه هذه الأوراق التي يبيض
السمك ثم يصهرون الحجارة المختاطة ببعض معادن و يلقونها في هذا الماء
فيسخن وينفصل البيض عن أوراق الشجر وبعد ذلك يخرجون هذه
الأوراق والحجارة ثم يصفون الماء فيبقى لهم البيض يأكلونه ويتغذون
به (كالحفاري) وهذه الطريقة كانت مستعملة قديما عندهم في انضاج
غذائهم الذي يحتاج إلى الماء وهي غريبة في بابها . وقد سأله عن سبب
انتشار أمراض العيون بينهم فأجابني أن أغلبهم به مرض الزهري
ولا أعلم من أين أتتهم العدوى كذلك لا يعتنون بنظافة أجسامهم
ومساكنهم وقد يحرقون الأشجار في فصل الشتاء اتقاء شر البرد القارس
ويجلسون بقرب النار فيتصاعد عليهم الدخان المؤذي فيعمى أبصارهم .

فأين محبو الانسانية لينقذوهم من هذا المرض القاتل وأين العلم الذى يلقونه عليهم ليرشدوهم الى النافع ويبيدوهم عن الضار . ان كلمة انسانية لا وجود لها في هذا العالم الا في خيال الفلاسفة الذين يعتقدون أن الانسان يجب عليه أن يحب أخاه ويعطف عليه وقت الشدة ولكن مع الأسف نرى ضد ذلك فكأن ارتقاء بنى آدم في علومهم ومدنييتهم داعية إلى قسوة أقريلهم على المستضعفين منهم واحتقار حقوقهم فلا حول ولا قوة الا بالله .

تركنا بعد ذلك الحانوت بعد أن ودعنا صاحبه المستر ميريل (Merill) ونحن معجبون لدقة مباحثه واتساع معارفه وعدنا الى الباهرة .

في الساعة السابعة مساءً أطلعت بنا السفينة بين هبوب الرياح الشديدة والعواصف تلعب بها ولكن هذه الحركة المتعبة لم تدم طويلا وبعد عشرين دقيقة من ذهابنا الى غرفنا للنوم وقفت بنا الباهرة بغاة وسمعت من السيدة التي تسكن بجاني أنه حدث تلف في الآلة المحركة للباهرة فاحتذيت نعلى ولبست معطفي وخرجت لأسأل عن السبب فصادت ملاحا فأجابني لاشئ ياسيدى وتركنى وذهب إلى حاله ثم قابلت رئيس الملاحين وسألته فأجابني أن بالباهرة كثيرا من الزوارق الصغيرة وهي كافية لتجاة جميع المسافرين فأسرعت

إلى غرفة زميليّ وأشرت اليهما أن يرتديا ملابسهما فكان خيري أسرع من ملح البصر بجاني أما مصطفى ابن بلاد الشمس الحارة فلم يخرج من سريره مخافة البرد فاكتفيت بالأول وذهبتا لتعرف الحقيقة فقبل لنا اننا ننتظر أن يهبط ماء البحر حتى يتسنى لنا المرور من مضيق به تيار شديد يخاف منه على الباخرة فعدنا إلى غرفنا بعد أن اطمانت نفوسنا لعلمنا أنه لم يحدث خلل في آلات السفينة ولكني لم أتمكن من النوم قبل منتصف الليل .

وفي الساعة السابعة من صباح (يوم الجمعة ٢٨ يونيه) وقفت بنا الباخرة ثانية فقالوا لنا إنهم في هذه المرة يتظرون قوة التيار ليساعد على المسير وأخذ الملاحون في إعداد جبال صيد السمك حتى لا يميل السائحون من الانتظار وقد اغتنمت فرصة عدم وجود أحد من المولعين بالصيد وأبعدت الجبال من أمام غرفتي حتى لا أشم الرائحة الكريهة ولكن بعد زمن قليل رأيت الملاحين يطوون هذه الجبال وما فرغوا من طيها حتى كنا نسير في طريقنا فوصلنا في منتصف النهار أمام بلدة بطرسبرج (Petersbourg) الجميلة التي حال دون أن نصورها عند مرورنا عليها في المرة الأولى رداة الجلو ولكن في هذه المرة رسمنا ما أعجبنا رسمه فيها لأن الشمس كانت زاوية والجلو

صافيا . وصلنا في الساعة الرابعة مساء الى بلدة فرانجيل (Wrangell) وهي في رأس جزيرة وأغلب سكانها صيادون وتجارتها في الفراء فنزلنا اليها ولم نتظر مثل باقي السائحين الدليل الذي سيقودهم الى المزارات ويشرح لهم ما يغمض عليهم فهمه و بيننا نحن نجول فيها صادقا جموع السائحين وقد التفوا حول دليلهم وهو يتكلم بينهم وهم يسمعون أحاديثه فعلمت من هيئة ملابسه أنه قسيس فسألت أحد الامر يكين هل يعرف هذا الدليل فأجابني أنه واعظ الكنيسة فقلت سيقودهم اليها ويبتز منهم أموالهم وهم عن ذلك غافلون فضحك هذا الرجل وقال لي أسمع صوت الناقوس فأجبتة نعم انه يقول (بحمة سنس بحمة سنس) أى ان كل زائر سيدفع هذه القيمة الزهيدة لجيب القسيس الذي يأخذها لنفسه ولا يصرف إلا القليل منها على الفقراء والمساكين . استمرنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى حاتوت يباع فيه جلود الدب فاستحسنت منها واحدا وسألت عن ثمنه ولكني وجدته غاليا فتركت مصطفي عنده لياوم صاحبه وذهبت إلى الباحة وعند عودته أخبرني أنه لم يقبل ثمننا له أقل مما طلب أولا فصرفت النظر عن شرائه خصوصا وأنه يكلفني أتعابا ونفقات حتى أوصله الى مصر . بعد العشاء نخرجنا لتسريح قليلنا وفي الساعة العاشرة مساء قامت بنا

البحرة ووجهتها بلدة اولدكاسان (Old Kasan) وستصلها في الساعة الخامسة صباحا من (يوم السبت ٢٩ يونيه) ولكنا صمنا ألا نقلق راحتنا وتقوم مبكرين لرؤية بلدة صغيرة ليس لها شأن يذكر وفي الساعة العاشرة والربع صباحا من اليوم المذكور وصلنا الى ميتلاكاتلا (Mittakata) وهي أيضا بلدة صغيرة في جزيرة لا يبلغ عدد منازلها أكثر من عشرين منزلا وبها كنيسة واحدة ومخزن تجارى للجمع السكان وقد رأينا حالة الهنود الذين يسكنونها فهي أيضا محزنة وأظن أن الجنس الأبيض المتمددين حكم على هذا النوع من بنى الإنسان بالقضاء فترك الأمراض الفتالة تقتك بهم ولا راحم يرحمهم لأنهم في نظره لافائدة في وجودهم على ظهر الدنيا . في الساعة الحادية عشرة صباحا أقلعت بنا البخرة إلى نهاية رحلتنا بالاسكا فاننا صعدنا إلى أعلى نقطة في شمالها وطفنا حول جزائرها الكثيرة ثم عدنا من طريق آخر إلى آخر نقطة في جنوبها ولما كانت ليلتنا الآتية هي آخر ليالى تلك الرحلة أخذ في الاستعداد من الآن لاقامة مرقص وبعد العشاء دار الحاكي (الفونوغراف) وصارت السيدات والرجال ترقص على نغماته إلى أن أتى دور (المشيش) فابتدى من الجمع سيدتان مجوزتان كبيرتا الجسم وطفقتا ترقصان رقصة منججلا فقال أحد زميلي محمد الله

لأنهما بلغتا من العمر أردله فأجبتة نعم يجب أن محمد الله لأنهما لو
 كانتا فتاتين للعبتا بأفتدة الشبان ولكن لاخوف على الرجال منهما ففهما
 فعلتا فلن تلاقيا استحسانا ولا نظرة ولو بطرف خفي . بعد ذلك تركا
 الجميع في سرورهم وذهبتا الى غرفنا للنوم

ولما أصبح (يوم الأحد ٣٠ يونيه) رأينا الضباب يحيط بنا من كل
 جهة والبخرة تمشى متباطئة ولكن ما أتت الساعة الثامنة صباحا حتى
 انقشع هذا الضباب وسارت البخرة تمخر في عباب البحر بسرعتها
 المعتادة وفي الساعة الحادية عشرة أقيمت الصلاة وفي منتصف الساعة
 التاسعة ألفت السيدة المعروفة محاضرتها عن مستقبل الاسكا وفي
 الساعة الخامسة أعيدت الصلاة ثم أعقب ذلك بعد العشاء الرقص

وفي صباح (يوم الاثنين غرة يوليه) قفنا مبكرين ومستعدين للتزول
 إلى فانكوفر (Vancouver) هنا أيضا يلزم إعادة مثل الاستعلامات التي
 حررتها عند وصولنا الى نيويورك مثل ذكر الاسم واللقب والصناعة
 وهل القادم متزوج وهل يقصد الإقامة في كندا واذا كان سائحاً فما
 مقدار الوقت الذي سيقضيه فيها ثم يذكر عمره والحكومة التي هو
 تابع لها وهكذا . وصلنا نحو الساعة التاسعة الى مصب نهر فريزر
 (Fraser) الذي يجري في فانكوفر وبعد نصف ساعة صارت بانترتنا

تميز منارى هذا الثغوقد أخذنا نرى الراية الانكليزية تحنق على الزوارق والبواخر التي كانت مملوءة بالركاب وقد لاحظنا في أيدي المسافرين فيها رايات انكليزية بها علامة حكومة كندا فسألت عن سبب ذلك فقيل لي ان لسكان كندا عيدا في أول يوليه . رست البخرة على رصيف الميناء في منتصف الساعة الحادية عشرة فبحنا عن مندوب فندق فرنكوفير فلم نجده فصحنى خيرى وركبنا عربة أوصلتنا إلى الفندق المذكور بعد خمس دقائق ولما دخلناه سألت أحد مديره ألم تصل اليهم أخبار في شأننا من محل كوك فأجابني قائلا لا فسأته عن غرف لنا فقال ان اليوم يوم عيد وجميع الغرف مشغولة الآن وعليكم أن تنتظروا الى وقت الظهر فتركته وذهبت الى يواب الفندق لأرسله الى الميناء لاحضار مصطفى وحقابتنا فلم يرد أن يخرج من مكانه ولما أكثرنا الطلب أجابني ان رفقكم اذا طال عليه أمد الانتظار يحضر ويسلم الحقائب الى شركة النقل لتوصلها الى هنا وأخيرا تركنا الفندق لنذهب الى مصطفى وفي الطريق صرت أبحث عن مكتب شركة الكنديان پاسفيك فلم أعر عليه فترك خيرى يذهب الى رصيف الميناء ليلاقي زميلنا الآخر وقصدت شرطيا وسأته عن هذا المكتب فدلني عليه فتقدمت الى مكان استلام الرسائل وسألت

العامل هل وصلت رسائل باسم رستم بك وأصحابه فأجابني بقثور
 قائلا لا فأعدت سؤاله ألم يصل توصية بهذا الاسم من محل كوك
 فقال لا دخل لي في ذلك . فرجوته أن يدلني على المكان الذي
 يمكنني أن أستفهم منه عن طلباتي فلم يتنازل إلى اجابني فذهبت إلى
 عامل آخر فكان نصيبي معه مثل نصيبي مع الأول . حدث لي كل
 ذلك ولم يستول القنوط على فخرجت لأبحث عن خيري فقابلته
 وذهبتا معا إلى المحطة التي كانت قريبة من الميناء ولما دخلنا وجدنا
 مكتبا معدا للاستفهام فتقدمت إلى الموظف فيه وسألته هل يمكنني
 مقابلة أحد رؤساء الشركة فأخذ يضحك ويقول لم ذلك فأخبرته
 إننا غرباء ومنتظر من محل كوك رسائلنا وأن يوصي شركتكم بنا فصار
 يضحك أيضا وأخيرا نطق متكلفا بقوله : إذهب إلى رصيف المحطة
 تجد عامل كوك في مكتبه فأسرعا إلى هذا الرصيف وأخذنا نبحث
 عن هذا المكتب فلم نجد له أثرا ثم سألنا حطنا ودخلنا في مكتب
 بإرسال البضائع وسألنا أحد موظفيه عن عامل كوك فقال لي أنا
 ياسيدى الموكل بأشغاله وإن لم أكن موظفا عنده فحمدت الله إذ لم
 يذهب تعبنا هباء متورا فوجهت إليه أسئلتني فأجابني بلطف اصعد
 ياسيدى إلى المستر بوردي (Bordy) وهو رئيس فرع الكاديان ياسيفيك

ويسكن في الطابق الثانى من عمارة المحطة فركبنا المصعد الذى أوصلنا إلى أمام مكتب فدخلت فيه وقابلت موظفا وأخبرته أنى الميورستم فبش فى وجهى وقال تفضل واجلس ياسيدى إننا نتظرك فسررت عليه مالمقيناه فى الفندق فمألبت أن تكلم باللقون مع مديره الذى يتبع شركتهم وأمره بأن يعد حالا غرفنا وأوصاه بنا خيرا ثم سألتى هل تذكركم مستوفاة فأجبتة إننا أدخلنا بعض تعديل فى برنامجنا فقال سارسل اليكم أحد عمالنا فى الساعة ٢ و ٣٠ دقيقة ليتسلم التذاكر القديمة ويطلع على التعديل الجديد لتغيير التذاكر على حسبه فشكرته وانصرفنا من عنده مسرورين لأننا وصلنا الى غايتنا وعدنا الى الفندق فوجدنا غرفنا قد هيئت لنا فلم ينقصنا بعد ذلك إلا حقائبنا فقيل لنا انها ستصل الينا بعد الظهر

فى الساعة ٢ و ١٥ دقيقة حضر مندوب شركة الخطوط الحديدية فأوقفناه على مطالبنا وانصرف على أن يعود الينا فى الساعة ٧ ومعه تذاكرنا الجديدة أما نحن فاستأجرنا عربية وركبناها وأمرنا سائقها أن يذهب بنا الى داخل المدينة ليرينا أهم شئ فيها فذهب بنا أولا الى الحديقة العامة فرأيناها غاصة بالمتنزهين الذين كان السرور باديا على محياهم وقد كانت ملابسهم نظيفة وكانوا يهتفون بعضهم بعضا

بجول هذا اليوم الذى يحتفلون به أعظم احتمال فى جميع بلاد كندا
ويعتبرونه من أكبر أعيادهم فتفقدنا هذه الحديقة التى تسمى
ستانلى بارك (Stanley Park) فإذا هى عظمة الاتساع وقد كانت
الموسيقى تصدح بألحانها الشجية فى مكان فيها أعد لذلك فأمضينا
فيها ساعة من الزمن بين أشجارها الناضرة وزهورها الياقة وبجاراتها
التي صفا ماؤها ثم نرجنا منها فقصدنا حتى الأغنياء وكنا نصادف فى
الطرق بعض الشرط (بوليس) ما بين راجل وفارس بملابسهم
الأنيقة ويشبهون شحنة (بوليس) مدينة لوندرة العظيمة فى الشكل
والهيئة والنظام ولما وصلنا الى منازل الأغنياء وجدناها خالية من
الزخارف كنمازل الانجليز العادية . ذهب بنا السائق الى شاطئ نهر
يخترق المدينة فرأينا على ضفتيه جملة حمامات وملاهى مكتظة بالمتزهرين
والمستحمين ولكنهم لا يخرجون عن حد الآداب العامة هذا وقد
لاحظنا خليطا من هنود آسيا وهنود أمريكا وعددا كبيرا من الصينيين
وغيرهم من ذوى اللون الأسود يشتغلون فى معامل المدينة وحوالياتها
وقد قيل لنا ان هؤلاء وظيغتهم الاشتغال بالأشغال الخطرة لانه ان
حصل حادث أفقد أحدهم عضوا لا يطلب دية عظيمة كما يطلب
الأبيض كذلك ورثة من فقد حياته منهم أثناء قيامه بتأدية عمله فانهم

يكتفون بالقليل من المال وقلما يجدون بين المداره (المحامين) من يأخذ على عاتقه المدافعة عن حقوقهم أمام رجال القضاء طلبا لتعويض كبير يخفف عن الورثة مالحقهم من الضرر بفقد عميدهم ولو بحثنا بحثا دقيقا في الأسباب الموجبة للتمييز بين منزلة الجنس الأبيض ومنتزلة باقي الأجناس حتى أمام القانون الذي كان الغرض منه في أصل وضعه تطبيقه على جميع سكان مملكة واحدة بدون تمييز بين الأبيض والأسود والأحمر والأصفر لو بحثنا في تلك الأسباب لوجدنا أهمها الاعتقاد السائد بأن الجنس الأبيض أرقى وأضع للهبة الاجتماعية من باقي الأجناس وعللون ذلك بعلو مدارك الجنس الأول والمحطاط عقول باقي الأجناس حتى ان علماء التشریح يثبتون هذا الفرق في تكوين الأدمغة ويدعون أن دماغ الأبيض أكثر نمتوا من دماغ الاسود مثلا وقد يرسمون شكل جمجمة الأول ليقارنوا بينها وبين جمجمة الثاني وقوة بيانهم لا يعدمون أن يخلقوا براهين قوية تثبت دعاويهم ولقد كان الجنس الاصفر في الزمن السابق معدودا من الأجناس الأقل درجة في المدارك من الجنس الأبيض ولكن هذا الاعتقاد أخذ يتغير من بعد مزاحمة اليابانيين للاوروبيين وجدهم واجتهادهم ووصولهم الى هذا المجد الشاخي فقد برهنوا أخيرا

أن بينهم من لا يقل كفاءة عن أخيه الاوروبي القائد الباسل أو السياسي المحنك أو الكاتب البليغ أو الصانع الدقيق أو المكشف الماهر أو المخترع العظيم . نعم لقد عرفت هذه الأمة ما ينقصها فاجتهدت في نشر التعليم والمبادئ الحقة بين أبنائها ولم تترك وسيلة من وسائل الرقى الى مستوى أرق الامم الا اتخذتها ولما وثقت بقدرتها وآنتت من نفسها الكفاءة للتسابق في ميادين الرقى وأرادت اعلان ذلك على رؤس المنكرين لفضائلها رأأت أن لا سبيل الى ذلك الا اذا أظهرت أنها لا تقل عنهم مقدرة وقوة فألقت بنفسها في تيار السياسة وطرق الاستعمار ولما أحست بأن حقوقها لا تحترم في مسائل حيوية استعدت للطوارئ ولما وقع الحرب بينها وبين روسيا العظيمة خرجت وعلى رأسها اكليل الصغار والظفر وصرنا لا نسمع من وقتها الا المدح والاطراء في همة اليابان فالقوة اذا هي المعيار الذى يعول عليه في تقدير القيم والميزان الذى تقاس به مراتب الأمم . لقد ذكرت مثل اليابانيين لأضحد حجة من يرى أن الجنس الأبيض دون غيره هو المستعد للرقى الجدير بالسيادة على سائر الأجناس ولأنبت أن الاستعداد للرقى لم يختص الله به قوما دون آخرين بل هو مشترك بين خلق الله أجمعين غير أن المدارك لا تنمو الا بالتعليم فعلى كل أمة مهما كان

جنسها اذا ارادت أن تأخذ مكانا رفيعا بين باقى الأمم المتعدىنة أن توجه جل عنايتها الى التعليم الصحيح ونشر التريبة الحقة التى تغرس فى نفوس أبنائها الأخلاق الفاضلة التى تعدهم لأن ينهضوا بها سائرىن فى سبيل النجاح . لا ينكر أحد أن المغلوب مقهور وقلبا يحترم له حق أو يرى له حرمه فان الحق مع القوة وما أصدق قول المتنبى :

مضى يجمع القلب الذكى وصارما ﴿﴾ وأنفا حميا تحببك المظالم

هذه حقائق يعرفها كل انسان ذكرتها عرضا بمناسبة معاملة العمال الذين ليسوا من الجنس الابيض وقد سمعتها من الامريكىين أنفسهم ولم أر تعليلا لهذه المعاملة الا ما ذكرته آفا . هذا ولقد أخذت أبحث بين هؤلاء العمال لعلى أجد من بينهم من فقد أحد أعضائه فلم أهتد الى ذلك فعلمت أنهم يعرفون هذه المعاملة ولذا يمترسون أشد الاحتراس ولا يخاطرون بأنفسهم فى عمل يعود عليهم بالضرر فحسنا فعلوا

أعجبنا بين هؤلاء العمال الهنود الاسيويون بعائهم المختلفة الالوان وقوامهم المعتدل ووجودهم السعراء اللطيفة ولحاهم السوداء وشعورهم اللامعة وعيونهم البراقة فصرت أمتع نظرى لانهم أقرب شكلا لأبناء الأمة العربية الكريمة ولقد سررت جدا من وجودهم

في هذه البلاد البعيدة طلبا للارتفاق وهذا من دلائل الاجتهاد
 نجيحهم الله في أعمالهم

عدنا بعد ذلك الى الفندق ولم تأت أمتعتنا من مخزن المكس
 (الدخولية) فكلفت مصطفى بك أن يأخذ مفاتيح حقائبنا ويذهب
 اليه عند افتتاحه في الساعة ٦ مساءً وبعد عودته أخبرنا أنه لاقى
 صعوبة كبيرة في انراجها وقد كان هناك عامل هرم لم يترك حقيبته
 الا فتحها وجعل عاليها سافلها وأخيرا تخلص منه زميلنا بعد أن سمع
 من مرة الكلام ما جعله يسخط على آداب المنحطة

أصبحنا في يوم (الأربعاء ٢ يوليه) وكنا على استعداد للسفر وما أتت
 الساعة التاسعة حتى كنا في قطارنا وقد صحبنا الى المحطة مدير الفندق
 ومنسوبة الشركة الذي أوصى بنا أعمال القطار ولما تحركنا صرنا نمرّ
 على بلاد واسعة أهلة بالسكان ولكن اتساع أراضي كندا وقلة سكانها
 بالنسبة لمساحتها العظيمة جعل جزءا كبيرا منها غير مزرع ولقد فكرت
 الحكومة في ذلك فسهات سبيل الهجرة اليها والحصول على أراضي
 خصبة بشروط معتدلة فتزح اليها كثير من المهاجرين حتى من سكان
 الولايات المتحدة

مازلنا سائرين بين جبال شاهقة ووديان خصبة الى وقت الزوال

ولكننا بعده صرنا نتمرّ في صحراء مقفرة لا نبات فيها ولا زرع وبعد غروب الشمس دخلنا ثانيا بين جبال عالية صخرية وفي الساعة السادسة من صباح يوم (الخميس ٣ يولي) ارتدينا ملابسنا وأخذنا نشاهد على رؤوس هذه الجبال مقادير عظيمة من الثلج المتراكم بعضه على بعض وما أتت الساعة ١٢ و ٣٠ دقيقة حتى كنا بمحطة لاجان (Lagan) وهي التي منها سنذهب الى بحيرة لويس (Lac Lnise) التي نقصدها وقد كما متأخرين عن ميعاد الوصول بساعتين ونصف . وبينما كنا على رصيف المحطة تقدّم البنا شاب وسأل هل هو في حضرة المستر رستم وأصحابه فأجبتّه نعم فأخبرنا أنه وكيل ادارة الفندق الذي سنذهب اليه وأنه مأمور أن يقوم بما يلزم لنا فسلمناه وثائق حقائبنا الكبيرة فأعطاهم لبواب الفندق وأمره بإيصالها الى الفندق ثم أخذنا باقى أمتعتنا الخفيفة وركبنا معه عربة (شربان) يقودها حوذي ثرثار صار يتكلم عن ماضيه وكيف كان يذهب بالسائحين الى جهة يلوستون بارك الشهيرة (Yellowstone Park) بماظرها الرائعة ثم انتقل الى الكلام عن زوبعة شديدة حصلت أخيرا في هذه الجهات تحريت بلدة ريجينا (Regina) وقتلت خمسة عشر شخصا وأتلفت مزروعات كل هذه الجهة وقد حكى لنا أنه من منذ أربعين سنة لم تأت زوبعة

شديدة مثل هذه الأخيرة التي قضت على آمال المهاجرين الذين أتوا إلى هذه الجهات لاستغلال أراضيها الخصبة . ان الطريق ما بين المحطة وال فندق يبلغ تقريبا ثلاثة أميال قطعناها في أكثر من ساعة لكثرة الأوحال وعدم انتظامه ولم نر شيئا جميلا يستحق الوصف . وصلنا إلى الفندق فأعجبنا كثيرا بموقعه فأخذنا مفاتيح غرفنا وصعدنا إليها وتفقدناها فراقنا ثم نزلنا بعد ذلك لتناول غدائنا وكانت تقوم بخدمةنا خادمة شمطاء أسرع في أعداد طلباتنا . وبعد ذلك صعدنا ثانيا إلى غرفنا لتزيل ما لحقنا من التراب ولتستريح قليلا من عناء السفر ولما بحثت عن حقيقتي الصغيرة التي كان بها أنفاس الأشياء عندي وأعزها خصوصا كتاب الله الكريم الذي أهدته إلى والدتي يوم ولدت فهو حليقي أينما سرت أتبرك به ولا أتركه بعيدا عني لحظة واحدة ومصحف آخر أتلو منه بعض الآيات الشريفة بعد صلاة الفجر من كل يوم فلم أجدها فطار لي وعظم كدرى فأسرعت إلى طلب أبواب الفندق وسألته عن هذه الحقيبة ولكنني كنت أشعر باطمئنان في نفسي وان الله لا يجرمني من هذين المصحفين الشريفين فوصفتها له فأجابني أنه لم يرها فرجوته أن يسأل المحطة بواسطة المسرة (التلفون) عنها ثم أرسلت في طلب مصطفى بك وأخبرته بضياع

الحقبة وسأله أن يذهب و يستعلم من مدير الفندق أو غيره ويبدل العناية في البحث عنها وبعد أن غاب قليلا حضر الىّ ومعه بواب الفندق وأخبرني أنه لم يعثر عليها في المحطة ولا بين حقائب المسافرين فكلفت مصطفى ثانيا أن يقابل المدير ويلح عليه في البحث عنها ولما طال انتظارى بدون فائدة تكلمت مع مدير الفندق بالمسرة قائلا انه مضى على حقيقتي أكثر من خمس ساعات وأنا انتظرها وذكرت له أن بها بعض ملابس أنا في حاجة اليها الآن ومن العيب أن تكون ادارة الفندق مختلة النظام الى هذا الحد ولا يستغرب القراء هذا الاملال وعدم العناية بالبحث عن أمتعة السائحين في أمريكا لا سيما عند المقارنة بين اهمال هؤلاء ودقة أصحاب الفنادق في أوروبا في المحافظة على حقائب التازلين عندهم وسرعة احضارها لهم فلن الأمريكى ينظر الى أن يؤتى له بها ولا يدفع فلسا واحدا في استئجار عربة للبحث عنها او مكافأة للخادم الذى يكلف نفسه مشقة البحث عنها حتى يعثر عليها ويحملها اليه ويرى ذلك كله من واجبات رجال الفندق فالاعتناء بنقلها وايصالها الى أصحابها مفقود . علمت بعد ذلك أنها ستصلنى عما قليل وبعد هنيهة رأيتها بين حقائب المسافرين على عربة ولما وقفت بها أمام الفندق أبى البواب أن يحملها ويصعد الىّ بها وقد

بدر منه لرفيق" حينما طلبا منه ذلك خشونة وجفاء في القول وقال انه لم يرمع أحد من السائحين حقائب كثيرة وثقيلة المحمل كحقائبنا . صدق في كلامه لأن أغلب القادمين الى هذا المكان من سكان المدن القريبة ولا يحضرون معهم الا ما يكفيهم من الملابس لقضاء أيام معدودة في هذا الفندق فليسوا مثلنا قادمين من بلاد بعيدة . وبعد جهاد شديد وصلت الى تلك الحقبة مهشمة وعند ما نزلنا لتناول العشاء قابلني مدير الفندق وأخذ يعتذر فقلت له ان الوصية بنا لم تعد كثيرا ولو كما نعلم أننا سنلاقى في فندقك من التعب واطلاق الراحة مالقينا خصوصا بعد ما تكبدنا المشاق في رحلتنا الى الاسكالملا قصدناه وذكرت له بعض مافرط من يوابه فصار يندى عظيم أسفه ولكن ماذا يفيد الأسف بعد أن تأذينا من سوء المعاملة . في صباح يوم (الجمعة ٤ يوليه) نزلنا لتفقد حالة الفندق وموقعه فرأيناه كبيرا جدا مشيدا على شاطئه ببحيرة لوزير (Lake Louise) والواقف امام بله يرى البحيرة واماها الأزرق الصافي وعلى جانبيها جيلان عظيمان تكسوهما الأشجار الناضرة وفي نهايتها من الجهة الأخرى أى بين هذين الجبلين جبال من الثلج تذوب وتكون جنادل تصب في هذه البحيرة الجميلة فسالنا هل هناك طريق يوصلنا الى رؤية هذه الجنادل فأخبرنا أنها لا تبعد عن مكاننا

بأكثر من ميلين وقد قيل لنا ان هذه الجبال تكون بحيرتين قبل أن
تصب في هذه البحيرة التي نحن نتمتع الآن أنظارنا بمناظرها الجميلة
فعرمنا أن نذهب اليها راجلين لا سيما وأن الجو في يومنا هذا صاف
والشمس تلقى أشعتها الذهبية على هذه الجبال الجميلة فتزيد في حياة
أشجارها وتكسبها نضرة وبهاء وتسلط على رؤس الجبال الأخرى
المكسوة بالثلوج فتذيبها وتجعل دموعها تنساق كاللآلئ فأخذنا
طريقا على شاطئ البحيرة من الجهة اليمنى وقبل أن نصل الى منتصف
البحيرة انعطف بنا الطريق الى جهة ايمين وأخذنا نصعد فشرعت
بالتعب وأخذت نفسى يضيق ودقات قلبي تقصر فالتحذت الطريقة التي
تبعها المحودية في راحة خيولهم عند تسلقهم الجبال وصرت كل ١٥
دقيقة أستريح نحو أربع دقائق وقد كان بجانبى خيرى بك فلم أر عليه
أقل تعب وكأنه كان يمشى في طريق معتدل وهذا ليس بكثير على
من كان مثله جنديا مدربا على ملاقاتة أنواع المشقات أما مصطفى بك
فحدث عن حالته ولا حرج فانه صار لا يقدر على الكلام ومن حسن
حظنا أن وجدنا مقاعد معدة للراحة على جانب الطريق ولا يبعد
بعضها عن بعض كثيرا فكنت أنا ومصطفى نجلس عليها خائرى
القوة ويقف أمامنا خيرى يشجعنا على الاستمرار حتى تم هذه

الاستراضة التي شعرنا بصعوبتها . وصلنا الى خص جميل يطل على البحيرة بجلسنا فيه قليلا وقد أعجبنا موقعه جدا وهو معد للاتجاه اليه عند انهمار الأمطار وقيل أن تغادره وصل اليه فارس (Cow-Boy) يقود ثلاث سيدات بلغن من العمر عتياً يركبن جيادا وقد كشفن عن سوقهن دون مبالاة فيالله من هذه العادات التي مزقت معها ثياب الآداب واني لأخشى أن الزمن على تواليه يحسن القبيح ويقبح الحسن فتقضى البدع (المودة) بالارتداء بملابس تشبه ملابس قدماء اليونانيين والرومانين أيام كانوا يكشفون نصف أجسامهم وأظن أن السيدات المتأفات في الملبس لا يجرمن أنفسهن من التمتع بهذه البدع (المودة) ولو نقرت منها الفضيلة وأنكرتها الآداب

ان التهلك والتبرج بلغا أقصى غايتها ومما يملأ القلب أسفا أن ذلك لم يبق مقصورا على البلاد الغربية فانه أخذ يتسرب الى بلادنا وينتشر فيها بسرعة مدهشة فأين آدابنا الشرقية وأخلاقنا الاسلامية . انى أرى اهمالا شديدا في المحافظة على عوائدنا القديمة وقد التبس الأمر على الشرقيين في فهم معنى الحرية وأساعوا التصرف في الانتفاع بها وتذرعوا بها الى هتك حرمة الآداب وتقويض دعائم الأخلاق الكريمة . ولو تيقظوا لعلوا أن الحرية حتى من حقوق الرشيدين

من عباد الله جل شأنه منحهم اياها ليستعينوا بها على تنظيم أحوالهم وترقية شؤونهم واستعمال مواهبهم فيما خلقت لأجله والتمتع بما أباحه الله لهم فليس في معنى الحرية الخروج عن حدود الآداب ونسحق سياج الفضائل فان ذلك سائق الى مهاوى الهلاك . ان كلمة حرية كان يقصد بها أولاً تخليص الانسان من أطوار العبودية والرق يوم كان القوى يتغلب على الضعيف فيأخذه أخذ عزيز مقتدر ويسخره في مصالحه كحيوان أعجم مملوك له يتصرف فيه كيفما يشاء فلما استنارت العقول رأت أن ليس لمخلوق حق السيادة على آخر وان كل عبودية من الانسان للانسان حطه ودناءه وأن الانسان سيد نفسه الأمام خالقه فهو عبد له دون غيره ولا تفاضل بين بنى آدم الا بمقدار ما لهم من المدارك وفضائل الأخلاق ومحاسن الآداب

هذا هو معنى الحرية التي جعلها الحق جل شأنه من حقوق عباده وهي بهذا المعنى أكبر أركان سعادة الانسان فيها يحيى العدل ويموت الظلم وبها يخلص الانسان من قيود الذل الى بحبوحة العزيب تكون للحياة قيمة وبدونها لا معنى للحياة فاذا خرج الانسان بالحرية عن هذه الدائرة الى انتهاك الحرمات والانتفاص في الشهوات واطلاق العنان للنفس تتلاعب بها الأهواء وتفعل بها كلما تشاء اذا ذهب الانسان

بحرته الى هذه الغاية انقلبت الى حرية العجاوات السائحة في بواديها
 فهام في ظلمات الضلال واذا كانت هذه الحرية المطلقة هي غاية
 المدنية الحديثة بخدير بها أن تسمى همجية . اني ليحزنني أن أرى
 المتمدنين من أبناء الشرق (مهد المدنية الحققة) بعد أن غربت
 شمس حضارتهم بنذهم مزايا أسلافهم أخذوا يتهاقون على الاقتداء
 بالغربي في مساويء مدنيته دون محاسنها فالغريون متضاغرون متعاونون
 على ما فيه خير لهم مجدون في أعمالهم بعيدو النظر في شئونهم كثيرو
 التدبير في عواقب أمورهم . حياتهم العملية سائرة على نظام متين أطلقوا
 لعقولهم عنان البحث في ملكوت السموات والأرض ليقفوا على
 أسرار ما خلق الله من جماد وحيوان ونبات فينتفعوا بها في حياتهم
 والشرقيون متخاذلون متواكلون لا تعاون بينهم متفاعدون عن عظام
 الأعمال قصير النظر في شئونهم لاسيما الاجتماعية قليلو التدبير في
 العواقب يكاد نظر أحدهم لا يجاوز موطنه قديمه متخبطون في
 حياتهم العملية فلا نظام لها تركوا عقولهم ضالة في فياق الجهل وان
 تناولوا شيتا من العلم فتعوا بقشوره دون لبابه وباليهم تركوا للتوم شرهم
 كما أهملوا خيرهم وكتبتهم اقتضوا آثارهم في معانيهم فكانوا جماعا للعيوب
 فانهمك الرجال في الشهوات واستهوتهم الملاهي ووضعو يد الاسراف

في أموالهم تخسروا الفضيلة والمال وتبرج النساء ولا تبرج الجاهلية الأولى وغاض ماء الحياء من وجوههن وكادت العفة تطير من قلوب كثير منهن حدث كل ذلك وما أشبهه باسم الحرية والحرية الحقبة بريئة منه هذا هو مجمل الأسباب الداعية الى انحطاط الشرق وضعفه وهذه هي علل تقهقره ووقوعه تحت سلطة غيره وحلوله في منازل الهون التي سبق فيها حتى يغير ما بنفسه (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) فحذار حذار من سوء عاقبة هذا الإهمال المهلك والله يهدينا الصراط المستقيم

تركنا مكاننا واستمررنا في طريقنا صاعدين الى أن وصلنا الى مستو رأينا في وسطه بحيرة صغيرة تدعى المرأة (Lac Miroir) فرأينا أن الاسم ينطبق على المسمى وقد كان ماؤها صافيا ساكنا فمشينا حولها ثم ألقنا نظرا خاص في مكان مرتفع لا يزيد بعده عنا عن مسير ربع ساعة فعزمت أن نصل الى النهاية وأخذنا الطريق الموصل اليه وبعد اثني عشرة دقيقة وصلنا اليه فوجدناه على شاطئه البحيرة الصغيرة الثالثة التي تسمى اجنيس (Agnes) فأسرعنا الى الدخول فيه لتتق تأثير البرد والهواء خصوصا أن العرق كان يتصبب مني ومن مصطفي وبعد أن استرحنا قليلا خرجنا لرؤية منظر هذه البحيرة فجلت أمامنا الطبيعة

بجمالها وصرنا نرى البحيرتين الأخرين بحيرة المرأة وبحيرة لوز فوضع
 هذه البحيرات الثلاث كدرج السلم بعضها فوق بعض فالأولى بحيرة
 لوز التي على شاطئها فندقنا وهي الكبرى ثم تليها بحيرة المرأة وهي
 أصغر من الأولى ثم بحيرة اجنيس وهي أصغر من كلتيهما والواقف
 في مكاننا يحيط نظره بأطراف هذه الجهات فتصور أيها القارئ مجموع
 هذه المناظر : جنادل تسقط من رؤس جبال مغطاة بالثلوج فتكون
 بحيرة صغيرة منها تسقط جنادل أخرى تكون البحيرة الثانية ثم جنادل
 ثالثة تكون بحيرة لوز الجميلة وإذا التفتت الى اليمين أو الى الشمال ترى
 جبالا مكسوة بالأعشاب والأشجار وإذا مددت نظرك الى ما وراء هذه
 الجبال ترى سهولا خصبة تحترقها أنهر فما أبهى وجه الطبيعة في هذا
 المكان انا نشعر بلذة لا نعلوها لذة . هنا يتيقظ الخيال ويتسع أمام
 الناظر مجال التصور فمن كان ايمانه صحيحا بكثير من تعظيم الله وتسيحه
 وحمده على جزيل نعمه على الانسان ومن كانت أخلاقه كريمة يمو
 في قلبه الحب الصادق لكل الفضائل . هنا ينسى الانسان آلام
 الحياة التي كلها شقاء وإذا أطلق لوجدانه عنانه يحس من نفسه بارتياح
 عظيم لازالة الضغائن والحسد والشقاق بين البشر فما أجمل الأخلاق
 العالية . ان كل شئ جميل أراه يلطف من أخلاق ويرقق من

احسامى ويجعلنى أقدر عظمة الاله جل شأنه فيزداد ايمانى ويرسخ
فى نفسى اعتقادى فياليت قوى يشعرون بما أشعر به الآن من
الميل الى رقة الطباع

تركنا هذا المكان لنعود الى فندقنا وأخذنا طريقا آخر أقرب من
الطريق الذى أتينا منه فاضطررنا أن نمشى فى صحور المرور منها صعب
وقد كنت أتوكأ على مظلة (شمسية) كانت فى يدى وتركت أمر
مصطفى لزميله خيرى ليساعده حتى لا يسقط والله الحمد وصلنا الى
البحيرة الثانية وفى أثناء سيرنا تقابلنا مع رفيق كان معنا فى سباحة
الاسكا وقد كان ممتطيا جودا فسألنا هل بينه وبين وصوله الى البحيرة
الثالثة مسافة عظيمة فأجبت انها على بعد قليل منه ثم قابلنا ريجا آخر
من الأمريكين فقال لى من فى مقدمتهم ألم تنته هذه الاستراحة انا
نصعد كأننا نذهب الى القطب الشمالى فأشرت عليه بالاستمرار ثم
صادفنا ريجا آخر من السيدات فسألتنى احدهن عن الطريق ومسافته
فشجعتها أيضا على تحمل هذه الأتعاب قائلان ان المنظر فى النهاية
يستحق هذا العناء وهكذا صرت كلما أقابل ريجا سألنى بعض من فيه
فأجيبه حتى وصلنا الى أسفل الطريق فرأيت حالة مصطفى قد تغيرت
قليلًا وقد وضع يديه على بطنه كأنه يشعر بمغص فاستأذنت أن يسرع

الى الذهاب الى الفندق وتركنا ذهب يجرى ولما وصلنا الى ردهة
الفندق قابلنا باشا مسرورا وقال الحمد لله لقد زال العناء وحلت الصحة
مكان الألم

بعد أن استرحنا قليلا ذهبنا الى شاطئ البحيرة نحو الساعة الرابعة
مساء واستأجرنا زورقين وأخذت مصطفي معي في زورق وتركنا زميلنا
في زورق آخر وقد كنت أظن رفيق يعرف التجديف فيساعدني في
تسيير الزورق ولكني وجدته لا يعرف فيه شيئا بجلس في مؤخر
الزورق ليضبط السير وصار كلما يهب علينا ريح أو تصادفنا موجة
يصيح يا ستار إني لا أعرف السباحة وأخاف الغرق وما السبيل الى
الخلاص من هذه الورطة الأخرى وأخيرا وصلنا الى نهاية البحيرة
ولما قربنا من الشاطئ سمعنا صياح بعض السيدات فالتفتنا الى
مكائهن واذا بفأر كبير يجرى بين الأعشاب فزعن منه وامتلأت
قلوبهن رعبا ولا عجب فالدعر والجن حليفا المدنية والرفاهية كما أن
الشجاعة مهدها الخشونة والبداوة . عدنا بعد ذلك وقبل أن نصل الى
المكان الذي استأجرنا منه الزورقين رسونا على كشك صغير على
شاطئ البحيرة وخرجنا نحن الثلاثة الى البر ثم قلت لمصطفي أركب
أنت وزميلك هذا الزورق وأنا آخذ الزورق الآخر ويجرد أن ركب

الزورق وتحرك به فابتعد قليلا عن الشاطئ أخذ يصيح الى ياخبرى
فانى على وشك الغرق ونحن نضحك من هذا الخوف الشديد وأخيرا
أقذناه من حالته وسلمنا الزورقين لصاحبهما

بعد أن أتممتا هذه الاستراحة عدنا الى الفندق وجلسنا فى أحد
طنوفه فرأينا كثيرا من السائحين يعودون من الاستراحة الجبلية
الشاقة ولا تسل عن حالة الجياد التى كانوا يركونها فان التعب كان
ظاهرا عليها وباليها نجت من قسوة الانسان وظلمه بعد تسلقها الجبال
وتزولها من المنحدرات فاننا رأينا بأعيننا أن بعض الأولاد الذين كانوا
يقودون الجماعات بمجرد نزول السائحين من فوق ظهورها يرفسونها فى
بطونها رفسات شديدة ويتركونها بعد ذلك تذهب الى مرابطها
فيالشقاوة هذه الدواب وأين جمعية الرفق لترى مايجل بهذه الحيوانات
التي تسام من العذاب ألوانا ؟

دخلنا بعد ذلك فى غرفة المطالعة فوجدنا كثيرا من السائحين
والسائحات مضطجعين على الطنافس (الكنبات) وبعضهم كان
يعط غطيظا مزيجا فأدهشنا هذا المنظر ولكننا لم نزعلى وجه الحاضرين
من ينكر ذلك فكأن النوم عندهم فى غرف المطالعة أو الاستراحة
أمر عادى فهل يعتبر الفندق فى نظرم كالمنزى الخالص الذى يفعل

فيه صاحبه ما يشاء . هذا ما لم أراه من قبل في جميع البلاد التي زرتها ولو كما في بلادنا فعل مثلهم لقامت علينا القيامة واعتبر ذلك منا توحشا وعدم مراعاة لآداب المعاشرة

ان انهمار الأمطار لم يمكنا من الاستراحة ولو قليلا بعد أن تناولنا العشاء كذلك كثرة زحام السائحين في ردهات الفندق اضطرتنا أن نصعد الى غرفنا لتبتعد عن هذه الجموع المؤلفة من الطبقة الوسطى من الأمريكيين الذين لا يراعون كثيرا الآداب العامة ولكن من أين تأتي لى الراحة وزجاج نافذة غرفتي كان مكسورا والمطربندفع منه بستة وحركة الأمريكيين المزيجة الذين كانت السرور طالفا على وجوههم والخبور تلعب برؤوسهم إحياء لذكرى عيد استقلالهم أسمعها من فوق وتحتي ومن الغرف المجاورة لغرفتي ققضيت ليلتي ساهرا أتقلب على فراشي كالمرضى المتالم ولم أذق لذة النوم الا قرب الصباح ولكن لم تأت الساعة السابعة من صباح يوم (الجمعة ٥ يولييه) حتى قمت متزججا من قهقهة سيدة كانت تسكن هي وزوجها في الغرفة المجاورة لى فكأن الليل الطويل لم يكفهما مداعبة فأرادا الاستمرار حتى لا يبقيا من السرور جزءا لليالي الالاس المقبلة

ان انهمار الأمطار المستمرة في هذا اليوم حالت دون خروجنا من

الفتدق لغاية الساعة الرابعة بعد الظهر ولكن بعد ذلك صحنى مصطفى واستأجرنا زورقا ركبنا فيه وأخذ مصطفى يجذف مدة ساعتين بكل قواه وبمهاره عظيمه أدهشتنى لأن الخوف كان مستوليا عليه أمس وقد أنكر معرفته صناعة التجذيف

عند عودتنا الى الفتدق وجدنا جمعا عظيما محتشدا من الامريكيين والامريكيات وعلى رؤسهم قعاتٌ غُبرٌ وعلى صدورهم أوسمة كل وسام يمثل رأس تيتل وهى مصنوعة من الذهب اتخذوها شعارا لجمعيتهم فتلهم كمثل جمعيات الالعب الرياضية فى بلاد سويسرا والنمسا ولكن لم أر من بينهم من تظهر عليه علامات القوة والنشاط فان أغلبهم كانت أجسامهم ضخمة جدا وهذا من دلائل الكسل وعدم الحركة وربما كانوا من المولعين بالرياضة البدنية فى الزمن السابق ولما كثرت عليهم مطالب الحياة انقطعوا عنها وحفظوا لأنفسهم الحق فى الانساب الى جمعيتها . لما حل ميعاد العشاء دخلنا فى غرفة الطعام وأخذنا مكانا بين هذه الجموع العظيمة فعزفت الموسيقى بتلحين لم نفهمه فوقف كل من كان فى المطعم اجلالا وتعظيما لهذا التلحين فوقفتا مع الواقفين اقتداء بهم واحتراما لعاداتهم ولكن لم نكد نستقر فى الجلوس حتى ابتدئ فى تلحين آخر وقامت هذه الجموع مرة ثانية

وثالثة وهكذا تكرر القيام والقعود عدّة مرار ونحن نفعل مثلهم وأخيرا عزفت الموسيقى بما يسمونه (Cake Walk) فصارت الرجال والسيدات يغنون ويرفعون أصواتهم بالغناء والطعام يملا أشداقهم ونحن نلتفت يمينا وشمالا وننظر اليهم ونقول فيما بيننا لم يبق علينا الا أن نرقص في وسطهم . وقد علمنا أن هؤلاء الزائرين من سكان ولاية مينيزوتا (Minnesota) وكل ما عزفت به الموسيقى هو من الأناشيد الوطنية والحذر من عدم احترامها فان من لم يحترمها يلاق من أنواع الاهانة ما يجعله يندم على ما فرط منه . عند ذلك تذكرت جادة محمد بك فريد فظهر لي الفرق العظيم بين احترامنا لتشيدينا الوطني واحترام باقي الامم الحية لتشيدهم الوطني وكان الأولى بمن كان منا رئيس الحزب الوطني أن يظهر بمظهر الاحترام لشعار الأمة ولو كانت خطته السياسية تنافي خطة الحكومة ولكن ما العمل وعادة الشرق الايبحت بحثا دقيقا في نتيجة أعماله وان اندفع في أمر لا يحسب للعاقبة حسابا وبعد أن تحل به المصائب يتأوه ويندم ولكن ما الفائدة وقد سبق

السيف العذل

ان المسألة مسألة آداب وأخلاق وأرى أن اختلاف المذاهب والتزعات لا يؤدي الى الخروج عن حدود الآداب خصوصا اذا

كان الغرض شريفاً وأرى أن انقسام الامة الى أحزاب يضربها وكفى دليلاً ما نراه الآن من عاقبة الشقاق والتفرق بين طوائف الأمم الاسلامية . فهل الصداق الوطنية يجب لأمتة عاقبة محزنة كالعاقبة التي تمثل أمام أعيننا الآن ؟ انى أتألم كثيراً من عدم التبصر في العواقب ويزيد آلامى الغرور وحبّ الذات . ألم تقترب الساعة التي ترك فيها كل هذه الأحقاد والضغائن المؤدية الى الفناء ؟ . اللهم حقق أغراض المصلحين الصادقين وأبعد عنا الأشرار المفسدين انك مجيب دعاء المخلصين

في الساعة الثانية بعد ظهر يوم (السبت ٦ يوليه) أتت العربية التي ستذهب بنا الى المحطة لنغادر فندق لوزير فركبتها و بعد أن سرنا نحو ستائة متر أوقفنا عامل وأخبرنا بأنه وضع لغما في الجبل على قرب منا فانتظرنا قليلاً واذا بانفجار هائل دوى في الفضاء ورأينا قطعاً كبيرة من الصخور ارتفعت في السماء ارتخاها هائلاً ثم سقطت وتبعها قطع أخرى صغيرة اقرب بعضها منا و بعد أن انتهت هذه الحادثة استمررتنا في طريقنا الى المحطة فركبنا قطارنا وتحرك بنا في منتصف الساعة الرابعة فأوصلنا الى محطة بانف (Banff) بعد ساعة من الزمن وقد كان في انتظارنا المستر ماكدونالد أحد مديري شركة (A.C.R.) ولما أردنا أن

تركب عربة الفندق وجدناها مكتظة بالساحين فاضطررنا أن ننظر
 قدوم عربة أخرى أرسل في طلبها المستر ما كدونالد المذكور وفي أثناء
 ذلك سألتهم هل يمكن أن نقبل تذكارنا التي أخذناها للذهاب الى
 تورنتو (Toronto) بطريق البحيرات غيرها حتى نذهب بالطريق
 الحديدية فأجابني ان ذلك ميسور له فسلمته ما عندي من التذاكر وفي
 أثناء ذلك حضرت العربة فركبتها وسارت بنا الى أن أوصلتنا الى
 الفندق التابع لشركة (P. C. R.) وأعطيت لنا في الحال غرف جميلة
 وبعد أن استرحنا بهاتيليا ووصلتنا حقائبنا نزلنا منها لتفقد حالة الفندق
 فدخلنا المكتبة المعدة للطالعة فإذا هي صغيرة بالنسبة لاتساع الفندق
 ثم زرنا باقى الغرف والردهات وأخترنا منها ردهة تطل على مناظر بديعة
 فكننا فيها وأمضينا وقتنا بين المسامرة والتنزه الى أن أتى ميعاد النوم
 أصبحنا في يوم (الأحد ٧ يوليه) ونحن نشعر بتمام العافية لأن ليلتنا
 الماضية كانت هادئة ساكنة فأخذنا لانفسنا من الراحة ما أذهب عنا
 آثار المتاعب السابقة ثم غادرنا الفندق لتفقد مدينة (بانف) فإذا هي
 شارع واحد عظيم الاتساع به جملة حوانيت و يمتد الى المحطة التي
 أتينا منها فسرنا الى نهايته ولما كان اليوم يوم أحد وجدنا حوانيت
 المدينة مقفلة الا حانوتا واحدا دخلنا فيه عند عودتنا فقابلنا صاحبه

وعرض علينا بضائعهم فاشترينا منه ما اخترناه وقبل أن تتركه رجانا ألا نخبر أحدا بما باعه لنا في هذا اليوم لئلا تعاقبه الحكومة بغرامة قدرها ٥٠ دولارا لمخالفته قانون عدم البيع في أيام الآحاد فوعده بذلك بعد أن أظهرت له أن هذا القانون يخالف مبادئ الحرية الانكليزية ويدل على التعصب الشديد . سرنا بعض خطوات في الشارع فراقنا مكان به مقعد جلسنا عليه فوقعت أمامنا عربة وتقدم اليها قائدها وعرض علينا أن يذهب بنا الى حديقة (بانف) العامة التي بها كثير من الحيوانات فقبلنا طلبه وسار بنا اليها وفي الطريق صار يحدثنا عن طريقة تربية هذه الحيوانات ومن أين يؤتى بها والجبال التي تكثر فيها ولما وصلنا اليها وجدناها طبيعية أكثر منها صناعية وهي كثيرة الاتساع خالية من نظام الحدائق المعتنى بها ثم قادنا الى مكان الجلموس الوحشي ولاحظنا ذكرا منفصلا عن باقي الجلموس وهو كبير الجسم تدل هيئته على القوة والبطش فأخبرنا الحوذي أن السبب في وضعه على انفراد شرسته وقد أخبرنا ببعض طبائع هذه الحيوانات المتوحشة ومن أعجب أمورها أنه اذا كثرت ايداء أحدها لغيره يتفق سائرهما على مطاردته الى أن يهلك ويذهب فريسة توحشه فكانت هذه الحيوانات أرشدها الله الى معرفة أن القوة مهما عظمت تبيد

أمام اتحاد الضعفاء وان في ذلك لعبرة لقوم يعقلون . رأينا كل ما في
هذه الحديقة وبعد ذلك عدنا الى الفندق

ان مدينة بانف على ص.نرها شهيرة بمناجم الفحم الحجري وبها
ثلاث ينابيع كبريتية يؤمها كثير من المصابين بالأمراض للاستشفاء
بمياهها ولذا كثر عدد الوافدين اليها و ينتظر أن تكبر هذه المدينة الى
أن تصل الى مصاف أمهات المدن

أنى يوم (الاثنين ٨ يولييه) وكانت يوما عصيبا اذ فوجئت بنكبة
المرض العصبي فلازمت سريري لغاية الساعة الأولى بعد الظهر
وفي نحو الساعة الثالثة مساء ركبتا عربة بعد أن ارتديت بمعطف
يقيني من تأثير البرد الشديد وذبنا لزيارة بحيرات تبعد عن هذه
المدينة بتسعة أميال وفي الطريق مررنا على مناجم الفحم الحجري
ورأينا العمال وقد اسودت وجوههم فما أشق معيشة هؤلاء البائسين
إتهم يستحقون الشفقة والرحمة والرعاية من ذوى اليسار . استمرنا
في طريقنا الى البحيرات ولما وصلنا اليها لم نجد شيئا يستحق الوصف
ولكننا لم ندم على اضاءة وقتنا سدى لان حالتى العصبية تستدعى
أمثال هذه الاستراحة لتسكين الآلى . ان الانسان مهما كبر مقامه
وعظم جاهه وكثرت ثروته فانه في احتياج الى لطف الله فهل للذين

أعمامهم الغرور أن يتنازلوا عن كبريائهم وخيالاتهم ويتركوا العظمة والقوة للواحد القهار . هذه حقائق ثابتة لا ينكرها الا جاهل بقيمة نفسه فاللهم اكشف الغطاء عن بصيرة هؤلاء الأشقياء حتى يعرفوا منزلتهم الحقيقية ولا يكونوا سببا في تعس من حولهم من أبناء أمتهم إنك على كل شئ قدير

عدنا الى الفندق وتسلمنا تذاكرنا من المستر ماكدونالد وفي الساعة العاشرة من صباح يوم (الثلاثاء ٩ يولييه) غادرنا الفندق الى المحطة فركبنا قطارنا فتحرك بنا في الساعة ١١ و ٣٠ دقيقة وسمكت به للوصول الى (تورنتو) أربعة أيام متوالية فأمضينا يوما هذا في اختراق جبال صخرية ووديان خصبة يسكنها بعض أفراد لا يقدرون على زراعتها لاتساعها فستعمرة كندا تسع أضعاف ما بها من السكان وحسنا فعلت الحكومة في إياحة المهاجرة وتسهيلها وجعل أراضي كندا رخيصة الثمن فدعا ذلك الى أن يلجأ اليها كثير من المهاجرين ولكن لا بد أن تمر سنين كثيرة حتى يملا هذا الفضاء المتسع الارجاء . قبل أن يرمى الليل سدوله وصلنا الى بلدة كالجارى (Calgary) ورأينا سكانها خارج البلدة يتزهون ومن ملابسهم النظيفة علمنا أنهم في عيد وطني لهم وفي الساعة ٦ و ١٥ دقيقة من صباح

اليوم الثاني (الأربعاء ١٠ يولييه) وصلنا الى بلدة ريجينا (Regina) ورأينا منازلها خالية وعلى عروشها خاوية فان الزوابع دمرتها قبل أسبوع من يوم مرورنا وجعلت عليها ساقطها وفي الساعة ١٢ و ١٥ دقيقة وصلنا الى محطة براندن (Brandon) ثم استمرنا في طريقنا الى منتصف الساعة السابعة فوقف بنا قطارنا بمحطة وينيبيج (Winnipeg) أكثر من ساعتين نزلنا في أثنائهما الى فندق المحطة التابع لشركة (C.P.R.) وتناولنا فيه طعامنا وقد علمنا أنه في هذا اليوم افتتح معرض المصنوعات الوطنية وحضر افتتاحه صاحب السمو الملكي الدوق أف كونوت

تحرك بنا القطار بعد أن مضى ربع الساعة العاشرة وفي صباح يوم (الجميس ١١ يولييه) وصلنا الى (Port Williams) وهي مدينة واقعة على بحيرة (Lac Superior) وكان في خطتنا قبل تغيير برنامجنا (بنف) أن نركب منها البانخرة التي توصلنا الى (تورتو) وقد نزل فيها كثير من السائحين الذين كانوا معنا في القطار للذهاب بجرا أما نحن فاستمر قطارنا في سيره بعد أن فصل منه عربتان وصار ينهب الأرض نهباً متبعاً طريقاً يقرب من شاطئ بحيرة (Lac Superior) ونحن ننظر الى اتساعها العظيم الى أن أتت الساعة الرابعة بعد الظهر فوقف بنا بمحطة

شريبير (Schreiber) ثم بمحطة ويت رايفر (Sudbury) ولما خيم الظلام
 افترقا للراحة والنوم وفي الساعة السابعة من صباح يوم (الجمعة
 ١٢ يولييه) وصلنا الى محطة سودبوري (Huron) القريبة من بحيرة
 (Roi Eduward) ثم ابتدأنا نمر على المدن الكبيرة العامرة بالسكان الى
 أن وقف بنا القطار بمحطة (تورنتو) فنزلنا فيها وركبنا عربة فندق
 (Montreal) وهناك أعطيت لي الغرفة نمرة ٧٥٠ وهى فى الطابق
 الخامس . أما بناء هذا الفندق فهو على الطراز الأمريكى ويحتوى
 على ألف غرفة وقد كنت أفذت فى طلب عامل كوك فحضر مسرعا
 فطلبت منه أن يبدلنا غر فاعير غرفنا فى الطابق الأول فأجابنى بأن
 ذلك ميسور له الا أنه يخشى أن يزعمنا ويقلق راحتنا المرقص الذى
 سيقام هذه الليلة فى ردهة الفندق فقبلنا ما أعطى لنا من الغرف
 وقضينا ليلتنا فى راحة تامة

وفى صباح يوم (السبت ١٣ يولييه) ذهبنا الى مكتب كوك لأعمال
 تتعلق بسفرنا بجرا الى مونتريال (Young Street) ومنه مشينا راجلين
 فى وسط المدينة مخترقين أهم شارع يدعى (Lac Ontario) ولما كان
 الحر شديدا أردت شراء حلة (بدلة كاكى) فلم اوفق لما يوافقنى
 ونحن فى الطريق أمطرت السماء مدرارا فالتجأنا الى مكان يقينا شر

الليل ولما انقشعت السحابة استمررتنا في طريقنا ثم دخلنا في حاتوت
 لشراء بعض بطاقات البريد فرأينا عادة كانت تعزف على البانيو
 وصاحب الحاتوت يشف الآذان بصوته العذب وبعد أن قضينا
 حوائجنا عدنا الى الفندق ثم استأجرنا عربة لزيارة المدينة
 ان مدينة (تورنتو) كبيرة وشهيرة بكثرة معاملها ومصانعها وهي
 واقعة على بحيرة أونتاريو (Lac Ontario) وبينها وبين بوفالو (Buffalo)
 ونياجارا (Niagara) موصلات وبها مباني ضخمة كجسرها البلدى
 ومجلس نوابها وجامعتها الكبيرة ومصنع سفنها وسجونها وغير ذلك وقد
 مررتنا على جملة تماثيل أهمها تمثال الملكة فكتوريا والتمثال المقام
 تذكارا للذين ضحوا بحياتهم في حروب جنوب أفريقية . رأينا كل
 مهم في هذه المدينة من منازل جميلة وحوائث كبيرة ولما قرب الظهر
 عدنا الى الفندق على أن نتم باقى الزيارة بعد الغداء وفى الساعة الرابعة
 بعد الظهر استأجرنا عربة أخرى وسارت بنا فى وسط المدينة ثم أمرنا
 سائقها أن يذهب بنا الى شاطئ البحيرة ومنه الى حديقة الحيوانات
 الشهيرة بكثرة عدد ديبها وتسورها وقردتها وقد أخبرنا الحوذى أن
 سكان تورنتو يؤملون أن تكون يوما ما مدينتهم عاصمة كندا لتقدمها
 السريع وقد يؤمها كثير من السائحين وبها ١٥٠٠٠ فندقا و ٢٨٠ كنيسة .

عدنا بعد ذلك الى فندقنا ولولا شدة الحر لكنا قد قضينا ليلة هادئة وقد استمرت هذه الحرارة المؤذية حتى صباح يوم (الأحد ١٤ يولييه) ولما لم نجد لأنفسنا مخرجا استأجرنا عربية وأمرنا سائقها أن يذهب بنا الى مكان نستنشق فيه الهواء وفي الطريق أخذ يحدثنا بتاريخ حياته وانه مكث لغاية السنة العاشرة من عمره ولم يذق للحوم طعما لفقره المدقع والآن يكتسب عشرة دولارات في الأسبوع ولكن يدفع نصفها أجرة مسكنه وله من الأولاد ثمانية وتاسعته زوجته ولا يعرف ماذا يفعل للقيام بمعيشة هذه الأسرة الكبيرة وأخيرا انتقل حديثه الى شدة ارتباط الامرائيليين بأبناء طاقتهم خصوصا الفقراء منهم فان الأغنياء يساعدهم ولا يضمنون عليهم باعطائهم رأس مال صغير يوصلهم باجتهدهم الى مصاف ذوى الثروة وقد قال أخيرا انه لا يرى مثل هذه المساعدة من المسيحيين

استمرت هذه الاستراحة لغاية الساعة الحادية عشرة ولما عدنا الى الفندق وجدنا عامل كوك ينتظرنا فاتفقنا معه على الساعة التي يلزم أن نذهب فيها الى البانرة لمغادرة هذه المدينة . قبل أن نطلع البانرة بنصف ساعة تكا على ظهرها ففقدنا غرفنا فوجدناها جميلة وبها كل ما يلزم لراحتنا وفي منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر تحركت بنا

السفينة باسم الله وقد كان المنظر عند خروجنا من تورنتو جميلا جدا
 الا أن الحالة تغيرت بعد ساعة من مغادرة الشاطئ فان ماء البحيرة
 اشتدت أمواجه تغيل اليانا أننا في وسط لبح المحيط الأعظم ولكن
 ما أنت الساعة التاسعة مساء حتى كنت أستعد للنوم ولم أكد أغضض
 جفني حتى سمعت مصطفي يطرُق الباب ويقول انظر مدخل مدينة
 شارلوت (Charlotte) الجميل ففتحت نافذة غرفتي ورأيت المدينة
 كأنها شعلة من نار لآلة مصابيحها الكهربية وقد ألفت نظري
 كبير وادى القمر (Luna Park) القريب من شاطئ هذه المدينة
 الصغيرة فرست البانحة بجانبه وأقامت ساعتين ثم أقلعت بنا وفي الساعة
 السادسة من صباح يوم (الاثنين ١٥ يولييه) كما مستعدين لرؤية
 أول ألف الجزيرة (Les 1000 Iles) وفي منتصف الساعة الثامنة مررنا
 على بلدة كلبتون (Clayton) الأمير يكية وبعد أن تركناها أخذنا نمرين
 الجزر التي بعضها كبير وبعضها متوسط والبعض الآخر صغير جدا
 فليست احداها الا صخرة صغيرة ظاهرة على وجه الماء . ان
 الأمريكيين مضطرون الى ادخال مثل هذه الصخور في تعداد الجزر
 لتكامل عددها العظيم وهو الالف ولكن هذا لا يمنع أننا رأينا في
 بعضها حدائق غناء وقصورا شاهقة تسر الناظر اليها وقد اشترى بعض

الأمير يمين الأغنياء بعض هذه الجزر واقتوا في جعلها في أحسن حالة حتى اننا رأينا كثيرا منها لا تحتوى الجزيرة منه الا على قصر واحد نفخ وبقى الجزيرة حديقة منظمة تكتنف هذا القصر البديع ولا تسل عن الحمامات الخاصة التي بها وعدد الزوارق البخارية وغيرها الراسية على شواطئ هذه الجزر أو التي تجرى بينها وقد سمعت أن هؤلاء الأغنياء يتراوون بواسطة هذه الزوارق فأحلى هذه المعيشة الطيبة . ان متوسط الثروة لم يحرم من هذه اللذة فان في بعض هذه الجزر منازل معدة للايجار والظاهر أن أجرة السكنى بها ليست عالية . هذا وقد أعجبنا جدا رؤية ألف الجزيرة ولما وصلنا الى (Alexandra Bay) وجدنا بها كثيرا من الفئادق الكبيرة ذات الحدائق الغناء . هنا أيضا عدد الجزر عظيم ولما وصلنا الى بروكويل (Brockville) التابعة لحكومة كندا كانت انتهت زيارة ألف الجزيرة وأخذت البئرة تسير في نهر (St Laurent) وفي نحو الساعة العاشرة وصلنا الى (Prescott) وكانت تنتظرنا باخرة صغيرة انتقلنا اليها حتى يمكن السير في مجرى النهر الشديد السرعة . وقد حكي لنا أنه يسكن على ضفتي هذا النهر نحو خمسة آلاف هندي من ذوى اللون الأحمر وستراهم بزوارقهم الوطنية يمرون في المواقع التي يشتد فيها سرعة مجرى النهر ولكن الى الآن لم

يقع نظرنا على شخص واحد من هذا الجنس
 تحركت بنا السفينة الصغيرة في منتصف الساعة الحادية عشرة
 صباحا وبعد ذلك بزمن قليل تقدم الينا رئيس السفيرين وسألنا أأنتم
 السائحون الوافدون من بلاد بعيدة ؟ فأجبتاه نعم فقال انى تحت
 أمركم وساعد لكم ما يلزم لتشهدوا سرعة تيار مياه النهر فى الأمكنة
 التى تشتد فيها ولكن يلزمكم السرعة فى تناول غذائكم حتى لا تفوتكم
 القرصة وقد نصحنا ألا نصعد الى أعلا السفينة وقال لنا اتنا نصل الى
 هذه الأمكنة فى الساعة الأولى بعد الظهر ويلزم أن نقف من الجهة
 اليمنى أولا للبحارة ثم نتقل الى الجهة اليسرى منها

رست البخرة بنا وأقامت فى مرساها خمس دقائق أمام (Cornwall)
 ثم أقلت وبعد أن سارت بضع دقائق وصلنا الى المجرى السريع
 الشهير الذى يسمى (Long Sault Rapid) فرأينا الماء يغلى فاعترى
 جميع السائحون هزة الخوف والفرع من سير السفينة فى هذا التيار
 الشديد ولما اقتربت منه اندفعت فيه بسرعة وصارت تتلوى كالحية
 فتارة تعلقو على سطح الماء وأخرى تهبط فيخيل الى الراكب فيها أنها
 ذهبت الى قاع النهر ولكن لا تمضى هنيهة حتى يراها ارتفعت من
 أحد جانبيها فيظن أنها ستقلب على الجانب الآخر وقبل أن يذهب

عن فكره هذا الوهم يرى مقدمها مغمورا في الماء فكل هذه التقلبات
الرهيبه تمر بسرعة البرق والسفينه مستمره على السير بسرعتها رغمًا من
تلاطم الأمواج وكثرة الدوامات التي تفتح على سطح الماء فتحات
يظن الناظر اليها أنها ستبتلع السفينه بما فيها وتذهب بها الى قرار عميق .
لقد علنا هذا الغليان بتعليل عقلي لا نعلم مقدار صحته من الوجهه
العليه فقلنا ربما كان في قاع النهر في هذه الجهة هوات عميقة حولها
مرتفات صخرية بارزة فيتصادم تيار النهر فيها ثم تندفع المياه بقوة في
هذه المنخفضات وتلاقى أمامها حواجز صخرية أخرى عالية فتغلب
عليها ولم تكد تخرج منها حتى تلاقى هوات أخرى وهكذا ولو كان قاع
النهر مستويا لما حصل هذا الغليان الشديد والغريب أن الانسان
لا يمكنه أن يعرف بالدقة من أين يأتي التيار فكأن الماء يرد من جملة
أمكنة مرتفعة ويصب في جهة واحدة منخفضة فتتلاطم المياه
الآتية من جهات مختلفة بعضها ببعض فيحصل النزاع بينها وتنشأ
من ذلك هذه الحالة الرهيبه التي وصفتها

أما نحن فصرنا تارة ننظر من الجانب الأيمن للسفينه وأخرى ننقل
الى الجانب الأيسر الى أن خلصنا من هذه البقعة الخطرة وابتدأت
البحره تسير في ماء هادئ ساكن . أما حالة السائحين خصوصا

السيدات فكانت موجبة للنظر فان بعضهن كانت تقبض على حاجز
البحرة يديها كأنها على شفا جرف هار وتخاف السقوط في مهوى
صحيق . أما الصباح فكان يعلو من كل جهة حتى اختلطت الأصوات
رقيقها بنخشنها

بعد أن مضى ربع الساعة وصلنا الى تيار ثالث ولكنه يقل عن
الأول شئمة ويدعى (Cotran Rapid) ثم الى تيار ثالث اسمه
(Cedra Rapid) ورابع ويسمى (Split Rock Rapid) وخامس
ويدعى (Cascade Rapid) والحقيقة أن التيارات الأربعة الأخيرة هي
تيار واحد منفصل بعضه عن بعض بمسافات قصيرة

ان مهندس البحرة قبل الوصول الى كل تيار كان يوقف حركة
الآلة ثم يجعلها تسير من الخلف ثم يحرك السفينة الى جهات مختلفة
ليكون على علم من صحة جميع الآلات وعدم وجود شئ فيها معطل
خوفا من حصول ما يسبب عطل السفينة الذي ربما أدى الى ضياعها
بين هذه الأمواج المتلاطمة

رأينا على شاطئ النهر أثناء سيرنا زورقا بخاريا قد أصيب بعطب
فقبل ان صاحبه أمر يركي وأراد أن يمر من هذه التيارات بدون
مرشد يدلّه على طريقة السير فيها فكان نصيبه من هذه المجازفة أن

ألقاه اليم على الشاطيء فهشمه ونرج الأامريكى وأصحابه نادمين
 قبل أن نصل الى مونتريال (Montreal) مرت بنا السفينة على تيار
 آخر يسمى (Lachine Rapid) وهو أعظم مما رأيناه وقد مكثت
 السفينة تكافح صدماته الهائلة مدة عشرين دقيقة ثم نخرجت من
 هذا العراك سالمة من الأذى وصارت تقرب من صخور بارزة
 على وجه الماء وفي بعض الأحيان كانت تمر بين صخرتين هائلتين ولكن
 كل ذلك لا يعد شيئاً مذكوراً بالنسبة لاختراقها قلب كل تيار شديد .
 ولقد علمنا أنه بالرغم من وجود مرشد في كل سفينة له خبرة كبيرة
 بطريقة سيرها في هذه التيارات قد أصيب بعضها بالعطب ولقد
 رأينا بعد مرورنا على التيار الأخير سفينة تشابه سفينتنا راسية على
 الشاطيء فأشار اليها رئيس السفيرين وقال انظريا سيدى هذه
 السفينة انها تكسرت قبل مرورنا بيومين باصطدامها في صخرة بارزة
 فعدنا الله على سلامتنا

وصلنا الى مونتريال بعد عشرين دقيقة من الساعة السابعة مساءً
 وكنا نتظن أن نرى على الرصيف عامل كوك ولكننا لم نره ولم نعهثر عليه
 فصحبني خيرى واستأجرنا عربة لتذهب بنا الى فندق ويندسور
 (Windsor) وتركا مصطفى مع حقائبنا حتى عند حضوره الى الفندق

يجد الغرف مستعملة ولا تعب في البحث عن حقائبنا . كما أول من أخذ عربة من السائحين ولكن قائدها كان بليدا فأوصلنا إلى الفندق في مؤخرتهم فلم نجد غرنا فوافقنا فأسرعت بطلب عامل كوك بالمسرة (التلفون) وفي أثناء ذلك حضر رفيقنا مصطفي ومعه الحقيب ولما كان مكتب كوك لا يبعد كثيرا عن الفندق لم يطل انتظارنا ولما حضر صار يعتذر ويقول إنه أرسل لنا أحد رجاله ليكون في خدمتنا فلم نعر هذه الاعتذارات التفاتنا ثم عزمنا إن نذهب إلى فندق آخر اسمه (Viger) يتبع شركة (C.P.R.) بعد ما ذكرت له أنهم أهلوا في جزر غرنا وما كنت أنتظر منهم ذلك وفي أثناء الحديث حضر عامل آخر من مكتب كوك بسيارة وتقدم إلينا وقال إنه ذهب لانتظارنا ولكنه ما كان يعلم أن البائرة تصل في هذا الميعاد إذ عادتها الوصول بعد الساعة السابعة . إن عدم الالتفات إلينا في فندق ويندسور جعلني أكره الإقامة فيه ولو كلفني ذلك أن أغادر المدينة حالا مع ما نحن عليه من التعب الشديد فأرسلت أحد هذين العاملين إلى فندق (Viger) ليعلم هناك غرف تليق بنا لتلا نذهب إليه ونعود بجني حنين ثم خرجنا من فندق ويندسور وجلسنا على مقعد في ساحة عامة نختظر ماذا يتم ولم يمض علينا زمن طويل حتى عاد هذا العامل وأخبرنا أنه

حجزنا غرفة جميلة في الطابق الأول من الفندق المذكور فأخذنا سيارة وصحبنا العامل الانحر وتركنا الثاني بمحضر حقائبنا إلى محل إقامتنا الجديد . وفي الطريق مرت السيارة في شارع ضيق جدًا به كثير من الأطفال فصدمت السيارة طفلاً ألقته على الأرض ولكن لحسن الحظ لم يصب بضرر فاجتمع علينا جم غفير وكثر الصباح والوعويل حولنا واقتراب منا شرطىً وأخذ يسأل السائق ويكتب مذكرة في دفتره الصغير عن الحادثة وقد تكلم معنا أحد المشاهدين باللغة الفرنسية وقال لنا مالكم والمرور من هذا الحى الضيق الذى يسكنه الإسرائيليون فأجبتنا إنا غرباء ولا نعرف الطرق ومع ذلك فالحادثة صغيرة لا تستوجب التدم ما دام الطفل لم يحصل له أقل أذى

وصلنا إلى الفندق فأعجبنا منظره من الخارج وقد قابلنا مديره وأحسن وقادتنا ثم صعد معنا إلى غرفنا فوجدناها كبيرة ونظيفة تطل على ساحة متسعة وبعد ذلك تناولنا عشاءنا وبعد استراحة صغيرة ذهب كل واحد إلى غرفته

في صباح يوم (الثلاثاء ١٦ يولييه) ذهبنا أولاً إلى مكتب كوك لنخبره بعزمنا على السفر إلى نيويورك في القطار الذى يقوم ليلاً من هنا يوم ١٧ يولييه وبعد ذلك صرنا ننقل من شارع إلى شارع ومن حانوت

إلى آخر ونحن نسمع أغلب سكان هذه المدينة يتكلمون باللغة الفرنسية بطريقة غريبة ومن الصعب علينا فهمها من أول وهلة فتعجبنا من إهمال الفرنسيين لهذا الحد التفكير في إصلاح لغة هذه البلاد مع أنهم يرسلون المرسلين إلى بلادنا الشرقية لفتح مدارس فيها ويساعدون على انتشار لغتهم في الشرق ولو كلفهم ذلك ما كلفهم من التعب والنفقات أما كان الأجدر بهم أن يلتفتوا إلى سكان كندا الذين أغلبهم من أصل (Bretons et Normands) فرنسى لا سيما أنهم يدينون بالدين المسيحى الكاثولىكى . هذا الأمر يجعل عقلاء الشرقيين يفكرون فيه وهل لانتشار لغات الغرب بيننا مآرب أخرى يجهلها بعضنا

إن سكان مدينة مونتريال يظهر عليهم التعصب الشديد لدينهم فان أغلب الشوارع سميت بأسماء القديسين ولكن كثرة الواردين عليها من أولى المذاهب المسيحية المختلفة سبب ابتداء التنافس بين المذاهب والدليل على ذلك أننا مررنا على مكتبة في شارع سنت كاترين فوجدنا بها كتابا ورسوما معروضة للبيع مضمونها الاستهزاء بالمذهب الكاثولىكى وتفضيل المذهب البروتستانتى عن غيره وهذه ليست أول مرة رأيت فيها بعض البروتستانت يهزءون بالمعتقدات

الأخرى فان في بلادنا دخلاء منهم تزحوا إليها ليعرضوا بالدين الاسلامي الخفيف الذي لا يجيد العقل السليم سبيلا إلى الطعن فيه فقد حفظه الله تقيا رغم أنف الجاهلين

إن مدينة مونتريال شهيرة بتجارتها في أنواع الفراء وموقعها الجغرافي جعل لها مكانة عظيمة في علاقاتها التجارية مع باقي الجهات وهي مدينة عتيقة وتاريخها قديم والحائل فيها يحكم بثروتها من عدد محازنها ومعاملها ومصارفها . ولما حل بنا التعب من كثرة السير أخذنا عربة أوصلتنا إلى ساحة ويندسور ومنها إلى ساحة فكتور ياتم إلى الفندق في منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم أردنا إن نذهب الى (Dominion Park) وهي على بعد ثمانية أميال من الفندق فركبنا الترام من شارع نوتر دام (Notre Dame) القريب منا وسار بنا على شاطئ النهر وصرنا نمر على معامل غزل القطن وعمل الأقمشة ومصانع المطاط ومعامل السكر وغيرها وبعد عشرين دقيقة وقف بنا أمام الحديقة التي نقصدها وإذا هي وادي القمر فدخلنا فيها بعد أن دفعنا رسم الدخول ومقداره ١٠ سنس عن كل شخص ولكننا لم نر فيها كثيرا من الزائرين لأنهم لا يحضرون عادة في مثل هذا الوقت فتفقدناها فإذا هي مقسمة إلى جملة أماكن بها ألعاب مختلفة دخلنا في بعضها

كالغرفة المتحركة وسباق (الكاويوى Cow Boy) والزوارق الصغيرة التي تسير بقوة اندفاع الماء بين المغارات والزوارق التي تتزلق من علو وتسقط في بحيرة صناعية وغير ذلك ثم تفقدنا باق الأمكنة فرأينا سودانيا ضخمة الجسم يقدرون زنته بسبعائة وخمسين رطلا وامرأة تلاعب الثعابين ورجلا نصفه الأعلى كامل الحلقة أما جزؤه الأسفل فصغير جدا لا يكبر عن جسم طفل حديث الولادة ثم ذهبنا بعد ذلك إلى مكان به مصعد فأراد مصطفي بك أن يرى ما فيه من الغرائب لأن ظاهره لا يدل على شئ خارق للعادة فتقدم إلى الرجل الذي يحركه وطلب منه أن يصعد به إلى أعلى مكان لعله يرى شيئا جديدا فيخبرنا به ولما دخل فيه قال له الرجل توكأ على المسند حتى لا يعتريك تعب فعمل بإشارته وأدار الرجل حركة المصعد فما لبثنا أن رأينا مصطفي ملقى على ظهره وقدماه مرفوعتان إلى السماء فقام يتعثر في أذيال الخجل مما لحقه . أما نحن فكأد أن يعنى علينا من شدة الضحك . انتقلنا بعد ذلك إلى مكان به دائرة من الخشب تشبه الرحي يجلس عليها مصطفي وحرك آتتها الرجل الموكل بحراستها فدارت بسرعة مدهشة ألقت مصطفي على الأرض على بعد منها فانقض عليه عدد من الأطفال وطلقوا يلعبون بأيديهم في جسمه وهو يصيح

وما من مجير يجيره من أيديهم التي لا ترحم . ثم ذهبنا إلى مكان به أنبوية كبيرة من الخشب وكان يتبعنا هؤلاء الأطفال فتقدموا إلى مصطفي وقالوا له إن من الصعب أن تمر من هذه الأنبوية وصاروا يحثونه على أن يظهر شجاعته واقتداره في المرور منها فلبى طلبهم ودخل فيها وتبعه عدد من هؤلاء الأطفال ولما وصل إلى نهايتها لم يشعر إلا وهو في بؤرة (فسقية من خشب) لا يمكن الانسان أن يقف فيها أو يخرج منها وتهافت عليه الأطفال وأيديهم تلعب في خاصرتيه وهو كالسمكة بينهم يتلوى ويصيح إلى أن خلصه الرجل الذي يجرسها بأن ألقي إليه جبلا أمسك طرفه وجذبه إليه ولكن بعد أن رماه فيها جملة مرار وهو يسترحمه أن يخرج من هذه الورطة . وقيل أن نخرج من وادي القمر أردنا أن نصعد في الجبال الروسية (Montagnes Russes) فركبنا في إحدى عرباتها وصعدت بنا إلى علو شاهق فرأينا المدينة ومناظرها البديعة وبعد أن تركنا هذه الجبال ألقت نظرنا رجل يقول تعالوا الرؤية أشهر السباحات في الدنيا فأردنا أن نحتم الزيارة برؤية تلك الغادات الحسان ولما تقدمنا لدفع رسوم الدخول قال لنا هذا الرجل إن دراهمكم لا تذهب سدى فسترون ما يروقكم ويسركم . ان هذا المكان يحتوي على بحيرة صغيرة صناعية مستديرة وحوها مدرج

(انهيقاتر) بلحوس الزائرين وقد وجدناه غاصا بالمشاهدين دون
الأمكنة الأخرى وهذا ليس بعجيب فان المرأة من طبيعتها أن تجذب
الرجل فكيف بها وهي عارية ولا يستر جسمها الرقيق الجميل إلا غلالة
(قانيلة) سوداء تزيد حسننها وتظهر جميع أجزاء جسمها . وقتنا
بجانب المكان الذي نثب منه الغادة إلى هذه البحيرة وتظهر اختناها
في ضروب السباحة وقد كانت غادة أخرى واقفة في هذا المكان
المرتفع وعملها أن تنادى اسم كل غادة يأتي دورها مع عرض معلوماتها
الواسعة في فنون السباحة وإيضاح صعوبة كل حركة تعملها السابحة
وقد رأيناها أجمل من رفيقاتها أما عدد اللاتي عرضن أنفسهن أمامنا
فست بينهن ذات الشعر الأسود وذات الشعر الذهبي والكستاني
وبالجملة جميع ألوان الشعر الجميلة . أما أجسامهن فمختلفة فنهن من
هى هيفاء نيمائل كالقنصن إذا هب عليه النسيم ومنهن من هى قوية
الجسم طويلة القامة شديدة الأعصاب عضلة تملؤها الصحة والعافية
ومنهن من هى متوسطة القوام خفيفة الروح سريعة الحركة . وبالجملة
كان في هذا المعرض كل أنواع الجمال الأمريكى لأنهن من بنات
الولايات المتحدة . إن نفسى لا تكره أن ترى مثل هذا الجمال
والدلال ولكنى أشعر أن في ذلك انتهاك حرمة الآداب . هذه

المنظر هيجت أعصاب أحد المشاهدين فأخذت تبدو عليه حركات تدل على شدة انفعاله وتأثره وهو ينطق بالفاظ لا يليق أن يفوه بها أمام الجمهور فاستشاطت إحدى السابحات غضبا وجعلت تسمعه من قارص الكلام وتسدّد إليه من سهام التقرّيع ما يخرس الألسنة ولكن أتى لها ذلك وهل تنتظر من جمهور جامع لكل الطبقات آدابا عالية . لولا أن رأينا منهن ما دل على إتقانهن جميعا فن السباحة لكنا حكاكنا بأن إنشاء مثل هذا المكان لم يكن الا لأغراض أخرى سيئة ولكنهن أبدين من ضروب السباحة ما أدهش جميع الحاضرين ومع ذلك إني أنكر عرض هذه المعلومات أمام الجمهور لخالفتها الآداب . عدنا بعد ذلك الى الفندق ونختمنا يومنا باستراحة قليلة بعد تناول العشاء

وفي صباح يوم (الأربعاء ١٧ يولييه) ذهبنا أولا إلى مكتب كوك لاستلام تذكرة السفر ثم أمرنا سائق عربتنا بالذهاب الى الحديقة التي تدعى (Royal Park) وهي واقعة خلف المدينة على جبل تكتنفه الأشجار وتكسوه الأعشاب وفي الطريق مررنا على مدرسة الجيزويت الكبيرة ثم على الجامعة التي تسمى باسم منشئها الدكتور (Magill) وهي مكونة من خمسة عشر قصرا وقد سمعنا أنها ما وصلت إلى هذه العظمة إلا بفضل الهبات الكثيرة التي وهبها لها المستر ماكدونالد

(MacDonald) الكندي التاجر الشهير في أنواع التبغ ولقد عرف كيف يخدم بلاده فلم يبخل عليها بثروته العظيمة لاسمياً أنه غير متروج ويبلغ من العمر الخامسة والستين ولا فائدة له في كتنها . مررنا بعد ذلك على مستشفى فيكتوريا العظيم الذي أنشئ بأموال أهل المروعة وتبرعات اللورد (Strathcona) الذي كان يتجر تجارة صغيرة في أنواع الفراء في الزمن السابق وكان اسمه المستر (Donald Smith) ويزيد عمره الآن عن تسعين سنة ومع ذلك لا ينقطع عن الأشغال فهو يمثل حكومة كندا في مجلس النواب الإنكليزي والمدير العام لشركة (C. P. R.) وإذا رآه الإنسان لا يقدر عمره بأكثر من ستين سنة فهو قوى يسافر إلى انكترا ليحضر جلسات مجلس النواب ويعود إلى كندا لإدارة شؤون الشركة التي يرأسها . أما تاريخ حياته فانه كان تاجراً صغيراً في الفراء فأنته السعادة من هذا الباب ولا عجب في ذلك فإن تجارتها كانت تكسبه ٢٠٠٠ في المائة ولا يستغرب القارئ ويظن أن في ذلك مبالغة فإن الفروة الواحدة التي تساوي ألوفا من القرنتكات كان يشتريها من المنود وغيرهم بأربعة كيلوجرامات من الدقيق أو بعقد من الزجاج الملون أو بقطعة من الأقمشة الرخيصة ولما يجمع من الفراء عدداً كثيراً يرسلها إلى بلاد الصين ويستبدلها بالشئ

أو القطن أو الحرير أو غيرها فكان يأخذ من هذه الأشياء مقادير عظيمة ثمنا لقروة واحدة لم يدفع ثمنها لأكثر من أربعة كيلو جرامات من الدقيق ثم يبيع هذه الأشياء في أوروبا وأمريكا وفي الجهات التي يكون ثمنها فيها عاليا . وإذا بحثنا عن الأسباب التي أوصلت أسرة أستور (Astor) إلى ثروتها التي تعد بالمليارات نجدها نفس الأسباب التي أغنت المستر (Donald Smith) قديما أو اللورد (Strathcona) الآن

مررنا بعد ذلك على عمارة المستر (Allan) صاحب شركة البواخر الإنكليزية (Allan Line Co.) وهكذا صرنا ننتقل من شارع إلى شارع ومن عمارة إلى عمارة إلى أن وصلنا إلى الجبل فصعدنا فيه ولا يبلغ ارتفاعه أكثر من ٢٨٠ مترا فرأينا منه أطراف المدينة ونهر سانلوران العظيم وبعد أن متعنا نظرا برؤية كل هذه المناظر عدنا إلى الفندق وفي منتصف الساعة الثامنة ذهبنا إلى المحطة لركوب القطار الذي يوصلنا إلى نيويورك فتحرك بنا بعد أن مضى عشر دقائق من الساعة التاسعة وفي الساعة السادسة من صباح يوم (الخميس ١٨ يولييه) وقف بنا القطار في محطة (Albany) وهي التي ذكرتها سابقا عند رحلتنا إلى نياجارا (Niagara) في الساعة الثامنة صباحا وصلنا إلى محطة نيو يورك

واستأجرنا سيارة وأوصلتنا إلى فندق (Gotham) بشوارع (5th Avenue) فدخلنا فيه وأعطيت لنا غرف جميلة جدا خصوصا غرفة الاستقبال التي اختارها لي مدير الفندق فثنا كانت تطل على أهم شوارع المدينة . وعلى أثر وصولنا حضر لمقابلتنا والسلام علينا الخواجه قيصر صباغ وأخبرنا أن بعض أعضاء نادي الاتحاد السورى يستأذنون في مقابلتنا بعد الظهر فحضرنا موعدا لذلك الساعة الثالثة وانصرف من عندنا بعد أن شكرناه لرفقة إحساسه . حضر بعده المستر يوج مدير محل كوك بنيو يورك ومعه رسالتنا فاتفقت معه على طريقة السفر وبعد ذلك انصرف إلى حيث أراد

في الموعد المضروب حضر أعضاء نادي الاتحاد السورى فقابلناهم مرحين بهم وأبدت عظيم سرورى من رؤيتهم وهم متمتعون بالصحة وكررت على مسامعهم شكرى لهم على ما ألقاه منهم ثم دار بيني وبينهم حديث عن رحلتنا الطويلة فقصصت عليهم بعض ما رأيته من عجائب هذه البلاد وبعد ذلك اتفقنا على ما يلزم لإحياء ليلة التكريم التي سيقومون بها لنا في يوم ٢٠ يولييه وانصرفوا مودعين منا بما اقتضته آدابهم

فطينا باقى يومنا في استراحة صغيرة داخل المدينة وفي قراءة بعض

الجراند التي تأتي من أوروبا انقطف على مجرى السياسة وفي اليوم التالي (الجمعة ١٩ يولييه) لم نعمل شيئا مذكورا سوى كتابة مذكرات رحلتى والذهاب إلى مكتب كوك وزيارة بعض الحوائت وعند عودتنا إلى الفندق وجدنا رسالة من الخواجه تيودور خياط العضو في مكتبة نيويورك العامة يدعونا فيها لزيارة المكتبة ثم تسلبنا هدية تقيسة مرسله من قبل المسيور يحنى وهى مؤلفاته الكثيرة المفيدة وبعد الظهر حضرت مدام سباغ ومعها زوجها فقضينا معهما وقتا طويلا فى المسامرة ولقد أعجبنى فى هذه السيدة أدبها وذكاؤها فإنها أهل لكل مدح وثناء وكفى دليلا على نبوغها أنها تدير محل تجارة كبير اخاصا بملايس السيدات وسائر مطالبهن وأصبحت يجدها واجتهادها وحسن معاملتها ورقة ذوقها زعيمة باقى المتاجر التى تستغل فى مثل تجارتها .

إن سيدة شرقية تغلب على الأوربيات والامريكيات وتزاحمن فى أشغالهن وتعال الشهرة بينهن وهى غربية فى هذه الأوطان بلجديرة بكل إعجاب ونفخ ولقد زاد احترامها فى نظرى ما رأيت فيها من الوطنية الصادقة والإخلاص العظيم لأبناء جنسها فهى واقفة على دخائل أمور بلادها الاقتصادية ولا تجعل الفرصة تمر بدون أن تبرهن للعالم أنها من أقدر السيدات . إن فى تشغيل أبناء جنسها بسوريا فى

صناعة (الداتيل) وإرسالها إليها لتبيعها الأمريكيات لبليل قطعى على معرفتها الواجب عليها لأبناء وطنها . إنها بذلك تشجعهم على اكتساب رزقهم حلالا وتحبيهم فى الأعمال وتحفف عنهم وطأة الحياة التى كلها شقاء

ذهب بنا الحديث بعد ذلك إلى ذكر بعض أقاربها ومعارفها الذين أعرفهم حق المعرفة وأحترم آراءهم وأفكارهم السامية كسليم أفندى مركيس الشهير بتضلمه فى آداب اللغة العربية فإن كتابته تدل على علمه وتزكته فى علم التحرير وله فوق ذلك طريقة خاصة لطيفة فى كتابة مقالاته يعرفها كل أهل مصر . أما سليم بك فإنى أحترمه كثيرا وأحبه بكل قلبى فهو خطيب معروف وكاتب محرر يخدم بلاده بكل قواه وإذا حصل سوء ظن بين المسلمين والمسيحيين مواطنيه يتداخل فى الأمر ويحسم فى الحال الخلاف الواقع بينهم ولاغرض له فى كل أعماله إلا الخدمة الحقيقية وتوثيق عرى الاتفاق بين الجميع بدون نظر إلى المعتقدات والمذاهب ولذا كان محترما بين الجميع معروفا عند أكابر الموظفين العثمانيين محبوبا من بطريقه الجليل فهو إذا واسطة خير وبشير سلام وخادم الأصدقاء . ذكرنا بعد هذين الفاضلين اسم خليل أفندى مطران وما له من المكانة العالية عندنا ثم

اسم نجيب باشا شكور الذى جمعنى به حادثة تعدى الايطاليين على سكان بيروت عندما تألفت اللجنة بمصر لاثانة من اصلهم هذا التعدى الفظيع وكان من ضمن أعضائها فوجدته ذكى القواد رقيق الأخلاق حميد الصفات على الهمة

بعد انصراف هذه السيدة الفاضلة وزوجها المحترم وصلتني رسالة من جلال الدين بك فنصل تركيا بنيويورك يدعونى فيها من قبل ضيا باشا سفير الدولة العثمانية بالولايات المتحدة أن أحضر حفلة الدستور العثمانى التى ستقام يوم ٢٤ يوليه فأرسلت أشكره على هذه الدعوة معتذرا بأنى لا أستطيع ذلك لأنى سأسافر قبل هذه الحفلة بيوم . ومع ذلك لو كنت فى نيويورك لما حضرت هذه الحفلة لأنى لا أرى موجبا لإقامتها . فاذا كنا مسلمين يلزمنا قبل كل شئ احترام الخليفة لأنه أمير المؤمنين . فاذا احتفلنا نحتفل بعيد ميلاده وعيد ارتقائه على عرش الخلافة أما اذا كان بعضهم يعتبر وظيفته صورية فإنى برى منه ومن أفكاره فحمدت الله إذ لم أكن بينهم فى يوم احتفالهم حتى لا أضطر إلى رفض دعوتهم

فى منتصف الساعة الخامسة مساء من يوم (البت ٢٠ يوليه)
ذهبا لرد الزيادة لمدام صباغ فى منزلها على شاطيء (Riverside)

وهناك الهواء جميل والجو معتدل والموقع حسن جدًا وبعد أن شربنا القهوة الشرقية اللذيذة وتناولنا شراب عصير الليمون المثلج انصرفنا إلى محل إقامتنا نستعد للذهاب إلى الحفلة الإكرامية . وفي الساعة السابعة حضر أنطون أفندى سمعان ومعه إلياس أفندى ملوك فأخبرنا بأنهما ينتظرانا بقاعة الاستقبال ولا يظن القارئ أن الخواجه سمعان من أسرة سمعان المعروفة بمصر ولكنه رجل له مكانة رفيعة بين مواطنيه والأمريكيين فهو محبوب من الجميع لما اشتهر به من الكمال وعلو الهمة . ركبنا سيارتين ذهبتا بنا إلى فندق والدورف أوستريا وقد كنت ورفيقتي مرتدين طرابيشنا حتى نجعل للحفلة صبغة وطنية رسمية ودخلنا من مدخل صغير غير مطروق لكيلا نمر على ردهة الفندق العامة التي يكثر فيها عادة الجالسون ثم ركبنا المصعد فوقف بنا أمام الردهات المتسعة التي زينت بأبهى زينة وكان ينتظرنا جميع المدعوتين ويجرد أن وضعت قدمي في باب الردهة الكبيرة عزفت الموسيقى بالسلام الخلدوي وتبع ذلك تصفيق حاد وقد كنت أرى على وجوه جميع الحاضرين الفرح والسرور فكانت كل حركة يأتون بها تدل على عظيم الإخلاص والتعلق بالأسرة الخلدوية . هذا وقد كان أول من استقبلنا حضرة رئيس الجمعية داود أفندى حدري

وهو أحد مؤسسي جمعية الاتحاد السورى ومن أعظم العالمين فيها لما له من الخيرة العظيمة فى كل ما يرقى أمته وقد كنا سمعنا به وبغزارة معارفه فانه درس العلوم العالية وتعمها بنجاح كبير فابتدأ يقدم إلى الحاضرين وأنا أصالحهم فردا فردا إلى أن ألفت نظرى هيئة شاب يتقد ذكاء فعندما ذكر حضرة حدبرى أفندى اسمه وهو عبد الملك أفندى سعد سررت لأن نظرى لم يخطيء فى معرفة جنسه بمجرد أن رأيته وقد قال لى عنه رئيس الجمعية إنه يدرس الطب بجامعة (بوسطن) ولما سمع بإقامة الحفلة طلب الاشتراك فيها حتى لا يبرم من رؤية أمير مصرى فى هذه البلاد فقبل طلبه وتكبد مشاق السفر لحضور هذه الحفلة فشكرت له شريف إحساسه وأظهرت له عظيم سرورى برؤيتى أحد المصريين بيننا فى هذه الليلة الشاققة . وبعد أن أتممت مصالحة جميع الحاضرين ألقى رئيس الجمعية خطبة بليغة رحب بها بقدمى وأعرب عن شكر جميع السورىين لى تقبولى دعوتهم ولما كنت أعددت خطبة ولم تكن لى عادة أن أخطب فى وسط جمهور عظيم طلبت أن أقرأها عليهم حتى أكون مستريح البال مدة وجودى بينهم فقابلوا هذه الصراحة بفرح عظيم وقال رئيسهم إنهم يودون أن أكون فى راحة تامة ويسرهم أن أعمل ما أحب فشرعت أقرأها وهم

حولى يسمعونها وكلهم آذان مصغية وها هو نص الخطبة :

أيها السادة

إني أقف بينكم لا لأريكم منى خطيبا يريد أن يظهر براعته
ومقدرته بل لأريكم أنى شرقى صميم محب لبلاده وأمه له شعور حى
يود من صميم قواده أن يشرحه لأبناء الشرق الأعزاء
إني أنطق الآن بلسان المودة والارتباط ولا حرج علىّ إن أظهرت
للاشدّة إجمالى بمروءة وشهامة إخوانى السورين الذين لقيت من
حسن ضيافتهم فى أثناء سيارتى فى سوريا ما يجعلنى أكرر ثنائى
وعظيم شكرى لأبناء الأمة العربية الكرماء

إن الصلات التى تربط بلادى ببلادكم قوية ورأيتها مجسمة لما
كنت فى وسط أهلكم وعشيرتكم الذين لم يتركوا أية فرصة لإظهار
ارتباطهم ومحبّتهم لأمرتى وجدودى وطالما سمعت منهم المدح العظيم
لمؤسس الأسرة العلوية الذى أحمل مع عظيم الفخر اسمه الشريف
فهو الذى دَوّن التاريخ فى صحائفه البيضاء أعماله الجليلة وحياته العظيمة
إن الثلاثين سنة التى قضيت معظمها جاثلا فى أنحاء أوربا والتي
لا أنكر المزايى التى اكتسبتها فيها بمعاشرتى واختلاطى بكبراء رجالها
المفكرين والمصلحين قد زادت فى قلبى حب بلادى وتعلقى بالشرق

والشرقين فيكل جوارحى أنادى « فليعش الشرق وأبناؤه »
 جدير بنا أن نفتخر ببلادنا العزيزة مهبط الانبياء ومنبع الاديان
 وأصل التاريخ ومصدر التمدن فذكر مجد الشرق السالف يخزنى فأين
 نحن الآن من عظمتنا الماضية ؟ ألقوا معى نظرة فى تاريخ حياة
 أجدادنا انه كان مجيدا فكم من بلاد فتحوها بسفار سيوفهم وكم ام
 أخضعوها بقوتهم وشدة بأسهم ؟ انهم لم يتركوا أية وسيلة لاعلاء
 شأنهم واطهار عظمتهم ونشر سلطانهم الا اتخذوها مقدمين بلاخوف
 ولا وجل . ولا أى باب يوصلهم الى غايتهم الشريفة الا طرقوه
 بدون تردد أو تهاون فالتاريخ يشهد اذا بما كانوا عليه من صفات
 الفاحين كالشهامه والاقدام لاسميا التقاف بعضهم حول بعض وجمع
 شملهم ووحدة كلمتهم واخلاصهم وشدة حبههم لبلادهم . فيالله ماذا
 جرى لنا حتى أصبحنا فى مؤخرة الامم المتمدنية ؟ ان بلادنا لم تتغير
 رجالها هم أبناء أولئك الاجاد وأحفاد أولئك الابطال فماذا دهانا حتى
 وصلنا الى هذه الدرجة التى لانسر ؟ اظن أننا تهاونا فى أمورنا فحلت
 علينا المسكنة والمذلة وتركنا شؤوننا فغشينا من التعس ما غشينا
 انى بالرغم مما نحن عليه الآن لست يائسا ولكن قبل كل شئ أرجو
 أن يجعل كل من سمع خطبتي هذه محل الاخلاص فانى أريد التحير

لجميع الشرقيين ولست ممن يسعون في التفرقة بين الاجناس كما اتهمت
 بهذه التهمة التي اردھا عنى بكل صراحة يوم كنت في سوريا فان
 أعداء الحقيقة رجال السوء هم الذين أشاعوا هذه الاشاعة الباطلة
 والله أعلم بضميري . وبودي أن تجتمع كلمة عامة الشرقيين على
 اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم لصمد هجمات أعدائنا الذين يريدون
 ابتلاعنا وأخذ بلادنا بدون حق أو مسوغ شرعى . فأشهدكم جميعا أنني
 محب للاتحاد والوئام وعدو لكل من يسعى في أسباب التفرقة المؤدية
 للهلاك والفساء والله على ما أقول شهيد . أما أتم يا أرباب الأقلام
 ويا أصحاب الجرائد فعلى فصاحتكم وقوة بيانكم تعتمد قوا الشعور
 وانثروا في صحفكم أسباب سرّ تقدم الامم حتى نأخذ مكاننا اللائق
 بنا . فان أردتم كنتم السبب في تقوية الرابطة بين أبناء العرب
 وغيرهم مهما اختلفت الأديان والأجناس ومهما بعدت الأمكنة .
 وجهوا أنظاركم الى كل ما يعلى شأننا انا نريد أن نرفع رؤسنا أمام
 العالم . انا نريد أن فنخر بجنسنا وبما وهبنا الله من الشجاعة
 والاقدام والذكاء فلقد جاء الوقت لنهب من سباتنا ونفرك من
 جمودنا . ان السعادة في هذه الحياة ليست بالثروة فقط فكم
 من رجل أتق وقتسه في . نع الدرهم والدينار ولم يؤد فرائضه

الوطنية وحقوق بلاده فبالرغم مما وصل اليه من الثروة ذهب بعد موته نسيا منسيا

لست ممن يودون المعيشة الهادئة بدون أداء واجبات الأمة . لانى أرى عدم الالتفات الى هذه الحقوق المقدسة من أكبر الذنوب وأعظم العيوب والنقائص . ان مهمتنا ليست فى الحقيقة من الصعوبة بمكان ان اجتمعت كلمتنا وقويت الارادة فى الحصول على المركز العالى الذى نريد أن نختاره بين الأمم . والطريقة الوحيدة التى أعتقد أنها توصلنا الى غايتنا هى أن يعتقد كل فرد منا أنه قادر على خدمة بلاده بصدق وأمانة يتحمل الصعوبات مهما كبرت والمشقات مهما كثرت

وأتم يا من تركتم بلادكم وتغربتم بعيدين عن الأهل والأحباب انى أهتمكم بأقدامكم وعظيم نشاطكم وثباتكم فقد برهتم للبلاد جميعه باجتهدكم وذكائكم أننا شعب حى قادر أن يحافظ على اسم أمته الكريمة . فمن كان منكم قد وصل الى الدرجة التى يتمناها فليعد الى وطنه مسقط رأسه فان بلادنا فى حاجة الى الرجال العاملين . ان بلادنا الواسعة فيها من الخيرات ما لا يقبل عن هذه البلاد والدليل على ذلك طمع الشعوب فى التقرب اليها لا يتراز هذه الخيرات وليس

تقريبهم حبالنا بل طمعاً في ثروتنا المكنوزة التي لا نستغل لاستخراجها
فأتم يا إخواني السوريين أحق من هؤلاء الأجانب الذين يتالون
الامتيازات الكثيرة وبيترون أموالنا ونحن عن ذلك غافلون . إن طريقة
الاستعمار ليست خافية عليكم فبعد أن يحصل الأجانب على هذه
الامتيازات بأية طريقة كانت يصبحون أرباب السيادة فأخاف أن
تضع البلاد بهذه الوساطة وكفانا ما فقدناه حتى الآن . فلنحافظ
على البقية الباقية من وطننا العزيز . لقد درست الحياة وعرفت
أسباب وأسرار تقدم الأمم باختلاطكم بالشعوب الراقية العاملة وأتممت
ما ينقصكم من الاختبار فارجعوا إلى بلادكم غانمين واستمروا خيراتها
بما تعلمتموه ولا تجعلوا للأجنبي باباً للتداخل في شؤونكم فأتم أولى
من الغريب بهذه الثروة الموروثة من أجدادكم وإن وجدتم صعوبات
فتحملوها فداء وطنيتكم والله ينصرم ويوصلكم إلى كل ما تحبون

ولكن بأي جنس تعودون " عودوا بيمينكم العيباني رافعين الرأس
حاملين اسمكم السوري لا بجنس أجنبي " فإن عدتم إلى أوطانكم بالحالة
الأولى يكون وقتئذ لكم الحق في مشاركة حكومتكم في كل ما يعود
عليها وعليكم بالخير وإن تكن الأخرى (ولا إخالكم ترضونها لأنفسكم)
فعدتم متحلين جنساً أجنبياً لمعاسة الحكومة وعدم احترام قوانينها

وشرائعها والصياح في وجهها بدون حق فهي إنسان عاملة هؤلاء
الخارجين عن طاعتها معاملة الأجانب ولم تلتفت الى طلباتهم ولم تعن
براحتهم كانت محقة في ذلك وهذا أقل جزاء يناله من تبرا من جنسه
اذ يعد خارجا على أمته

هذه آمالي فقبلوها مني باخلاص وأختم خطيتي بأن أشكركم من
صميم قوادي لما لقيته منكم من حسن الوفاة والكرم وأهني رجال
الصحافة ناشري لغتنا المحبوبة بين إخواننا السورين البعيدين عن
الأوطان ومسبي الارتباط الدائم بين الشرقيين لا سيما السورين
المقيمين في الممالك المحروسة وبين الساكنين الآن في هذه الدنيا
الجديدة واني أدعو الله أن يوفقنا الى كل ما فيه صلاحنا وفلاحنا. اه
هنا يجدر بي كتابة ما نشرته جريدة مرآة الغرب الغراء التي تصدر
بنيويورك باللغة العربية لصاحبها نجيب أفندي مومى دياب عن
وصف هذه الحفلة الاكرامية :

الأمير محمد علي في نيويورك

جمعية الاتحاد السورى تحفى بسموه وتكرم مصر في شخص شقيق

الجناب العالي

المأدبة الإكرامية في ولدروف اوستوريا

تجلت ليلة القدر مساء السبت الفائت في نزل ولدروف الشهير في نيويورك اذ طلع الأمير الكريم محمد علي شقيق خديو مصر بديرا في مساء الحفلة الإكرامية التي أقلمتها جمعية الاتحاد السورى باسم السورين احتفاء بسموه وهو ضيف الجالية السورية بل ضيف الأقتدة الشرقية في ديار كوليس على ضفاف الهدسون

كان أعضاء الاتحاد السورى قد اجتمعوا في القاعة المخصصة لاستقبال الضيف العظيم عند الساعة السابعة مساء وكانت الجمعية قد أوفدت حضرتى الفاضلين أنطون أفندى سمعان والياس أفندى ملوك بسيارتين فاقبلا مع الأمير وحاشيته وما أزفت الساعة السابعة ونصف حتى أشرقت أنوار طلعة الأمير وبطالته الكريمة المؤلفة من الملاحور محمود خيرى بك ياور الجناب العالى الخلدوى ومصطفى رضا بك كاتم أسراره وعلى رؤوسهم الطرايش العثمانية فصدحت الموسيقى بالسلام الخلدوى واصطف الأعضاء على الجانبين فأخذ سموه يصالحهم فردا فردا وتصدر المجلس فاستقبله حضرة رئيس الجمعية الفاضل داود افندى حدارى بخطاب بلوغ رجب به وبمن معه باسم

الاتحاد السورى والحالية السورية وحياه باسم الناطقين بالضاد من شاطىء الانلانتيك الى شاطىء الباسفيك فوقف سموه وألقى خطابا بليغا كالدرد النضيد كتبت آياته بقلم الوطنية وخطت سطوره بيراع الصدق ولا غرو فهو خطاب الأمير المؤلف والرجل الكبير الذى حقق انجبر عنه انجبر

(ولقد نشر هذا الخطاب فى الصفحة الأولى من الجريدة وكتب فى مقدمته : إنه أول خطاب ألقاه سمو الأمير فى حفلة رسمية وجرى بجمعية الاتحاد السورى جمعيتنا الكبرى أن تنال هذا الشرف من أمير العلم والجد ورب السيف والقلم حفيد سمي محمد على الكبير) وما كاد سموه ينتهى من خطابه حتى اهتزت أرجاء المحفل بالتصفيق والتهافت . ثم فتح الباب الفاصل بين حجره الاستقبال وحجره المائدة فدخل سموه والجمع المعجب به وتصدر المائدة التى كانت مزدانة بالأزهار والأنوار فزادها نوره نورا وأنعش لطفه ما فيها من الزهور . جلس الأمير فى ظل العلمين المصرى والأميركى وفى وسطهما بحمة رسوم مكبرة هى رسوم جدّه الأكبر محمد على الكبير وإبراهيم باشا الغازى أو نابليون الشرق واسماعيل باشا جدّه وتوفيق باشا والده وسمو شقيقه الأمير عباس الثانى خديوم مصر . جلس الأمير والى يمينه حضرة

الفاضل داود أفندي حدارى رئيس الجمعية والى يساره حضرة العالم الخطيب والنظامى البارع الدكتور رزق أفندي حداد رئيس الجمعية الأول ورئيس هذه الحفلة والى يمين الرئيس حضرة العالم الفاضل والنظامى البارع الدكتور اسكندر بك جريدينى أحد ضيوف تلك الليلة الساطعة بأنوار طلعة الأمير وأخذ الحاضرون مراكزهم وكانت راية الجمعية وشعارها الأرزة تحفّف أمام الضيف العظيم الذى كانت أنوار اللطف تفيض من مجياه فيحدث من حوله ويسم للجميع ابتسامة تشف عن مروره برؤية أبناء سوريا ومصر ملتفتين حوله محذقين به يقومون بواجب مقدّس نحو أمير الفضل والعلو

ولم تمض ساعة حتى وقف رئيس الحفلة الدكتور رزق أفندي حداد مستأذنا الضيف الخطير فافتتح الكلام على المائدة بذكر محاسن الشرق والشرقيين ومن جملة ما قاله : « إن الغرب أمسى يحيط بوجودنا وأما الشرق فهو مقيم في وجداننا » ثم شرب نخب من هو رجاء الشرق وعماد الأمة العثمانية النجبية جلالة السلطان المعظم (فوقف الحضور دفعة واحدة وشربوا نخب جلالته بمزيد الوفاق والاحترام) وما لبث الخطيب أن أنشد :

سلطاننا محمد المفتدى ﷺ وتاج عثمان السنى الحميد

حامى حمى الدستور في شرقنا ❁ وركن ذاك الإتحاد الوطيد
يدعوله في الغرب أبناءؤه ❁ بالنصر والملك السعيد المبد
فتبسم الأيام حتى نرى ❁ عصر رشاد فاق عصر الرشيد
ثم عاد رئيس الحلقة الى الكلام عند شرب النخب الثاني فذكر
الديار التي هي أقرب الديار اليها والأمة التي هي أعز الأمم لدينا أي
الأمة المصرية الكريمة فعنى لمصر أن تبقى مدى الزمان كما كتب عنها
عمرو الى الخليفة عمر في صدر الاسلام اذ قال « فيينا مصر يا أمير
المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذا هي عنيرة سوداء فاذا هي زمردة خضراء
فاذا هي دياجة زرقاء فتبارك الخالق لما يشاء » ثم رفع الكاس على
ذكر رئيس الأسرة الخديوية ومليك الأمة المصرية ونصير العربية
والعثمانية سمو الخديو (عباس باشا حلمي الثاني) وأنشد هذه الأبيات
يا مصر مهد العلي والمجد من قدم ❁ ومطلع العلم والعرفان للناس
لله كم حزت من حسن ومن حسب ❁ وحاز أهلك من لطف وإيناس
أنت السعيدة في الأمصار قاطبة ❁ لأزلت باسمه في ظل عباس
ثم تقدم الدكتور حداد الى نخب الزائر الكريم فقال : إن مصر
وسوريا شقيقتان منذ بدء الزمان وهما أقدم البلدان ومهبط الحكمة
والأديان . مصر أم العلي . وسوريا أم الهدى . وان السورى المهابط

الى مصر من سفح لبنان لا يعدّ نفسه فيها غريبا أو دخيلا بل يعتبرها
وطنا له ثانيا ويحبها كذلك . ثم أخذ يعدّ مآثر الأسرة الخديوية من
عهد محمد علي الكبير الى عهد عباسها الثاني الذى أحيا ذكر العباسيين
القدماء فأضحت الكاتبة مقرّ العلم والعلماء والأدب والأدباء كما كانت
الرصافة في عهد هروثها ومأمونها . إلى أن قال : « تلك الأسرة النبيلة
التي أخرجت في وقت واحد بيمارك الشرق و نابليون الشرق وأشار
بذلك الى منشئ الوحدة المصرية محمد علي الكبير والى ابراهيم القائد
الخطير والبطل الشهير . ثم قال : إن أجدادنا في أوائل القرن التاسع
عشر قد تألبوا حول ذلك الأمير الفاتح ونحن اليوم في أوائل العشرين
نتألب حول الأمير السائح . ذاك قد افتتح بلادنا وأما الأمير فقد
غزا ولكن قلوبنا . وبعد ما أفاض الخطيب في تعداد مآثر تلك
الأسرة الكريمة خاطب الأمير الزائر فخياه باسم الاتحاد السورى وبالنيابة
عن مئات الألوف من السوريين المهاجرين ثم اشترك الكل في شرب
نخب الأمير وختم الخطيب كلامه بهذه الآيات :

ألا فاسقنا كأس الأمير فإنيها ١ لكأس العلى والمجد والفضل والندى
سليل العلى من أسرة علوية ٢ تصون لها الأيام مجدا مخلدا
أعادت الى مصر القديمة عزها ٣ وللعرب العرباء نفرا وسؤدا

وكم أطلعت في منبت الفضل دوحه ❀ وكم أطلعت في قبة المجد فرقدا
وكم رفعت للعلم صرحا مشيدا ❀ وكم شيدت للبردارا ومعهدا
فيا سيدا أحيا القلوب بزورة ❀ فكانت كنبت ذابل زاره الندى
نحيك عن دار الشأم واهلها ❀ وكم حفظت دار الشأم لكم يدا
ومأثرة في الشرق قد سار ذكرها ❀ وفي العالم الغربي رن لها الصدى
أبي الله أن ننسى صنيعك والوفاء ❀ غدا قرمت بيروت صاعقة العدى
فكنت حليف البائسين على الضأ ❀ وكنت لهاتيك الجراح مضمدا
لئن نحن جزنا كل قطر ومعشر ❀ وتاهت بنا الأسفار في الأرض مرمدا
فحفظ ما أوليتنا من مكارم ❀ وهيبات أن ننسى الأمير محمدا
ثم وقف رئيس الحفلة وشرب بسر الراية الأميركية راية النجوم الزاهرة
ورئيس الولايات المتحدة والشعب الأميركي العظيم ذى الوطنية
الحقة فصدحت الموسيقى بالنشيد الوطنى ووقف الجميع إجلالا وتعظيما
وقدم رئيس الحفلة للضيف والحضور الشاب الأديب فيليب
أفندى كآسفليس فأشدهم بعذوبة صوته الأشودة الآتية وهي
من نظم رئيس الحفلة الدكتور رزق أفندى الحداد

بدرتم في سما المجد سما ❀ وكسانا من سنه حلا

وبأرض الغرب أضحي مشرقا ❀ بخلا هم وأحيا الأمل

يا أمير الشرق شرقت الحمى فأنشئ كل فؤاد جذلا
 وبنو الشام لديك اليوم كم ذكروا مصر وذياك الولا
 فلتعش مصر ومن سادوا بها وورعك الله يا بدر العلي

فطرب بها سموه وأنشرح لها صدرا وهنا وقف الأمير متكلمًا باللغة
 الانكليزية فذكر رجلا من خيرة رجال أميركا في مصر هو المستر تجاي
 فتصل جنرال الولايات المتحدة فقال يوم ساعدنا بيروت المنكوبة
 بقنايل الايطاليين لم نر مساعدة من أوربي أو أميركي علنا المستر تجاي
 الذي تبرع لمساعدة المنكوبين بمائة ليرا انكليزية وهو رجل طيب
 القلب يجب الخير للناس جميعا . وانني أسألكم أن تكرموه اذا زار
 الولايات المتحدة الأميركية وأنا معكم الآن أشرب بسر ذلك الرجل
 الكبير القلب المشفق على الضعفاء . وما كاد سموه ينتهي من كلامه حتى
 صدحت الموسيقى بالسلام الخديوي فوقف الحاضرون اجلالا

وأخذ رئيس الحلقة يستدعي الخطباء فاستدعى أولا حضرة
 رئيس الجمعية داود أفندي حداري الذي تلا خطبا فيه ما فيه
 من بيان العلاقات الولايتية بين مصر وسوريا وحب السوريين للأمة
 الخديوية . وهنا استدعى حضرة الكاتب الفاضل والشاعر الحميد
 ندره أفندي الحداد نائب رئيس جمعية الاتحاد السوري فتلا قصيدة

من نظمه المتين مؤلفة من سبعة عشر بيتا وكل بيت منها كأنه الصرح
المشيد منها

يا ابن الملوك الصيدين شادوا لنا ۞ مجدا رفيعا قد تعالى شأنه
أحيتم للشرق بعد هبوطه الـ ۞ هز الذي باهت به سكانه
يسمو بعباس العلي وشقيقه ۞ قطر سعيد تردهى وذبانته
والنيل معتز على أقرانه ۞ انت العزيز قليلة أقرانه
حرس الاله محمدا وأخا العلي ۞ عباسنا الثاني وطال زمانه
ما أشرقت شمس ولاحت أنجم ۞ والروض مالت فوقه أغصانه
ثم استدعى حضرة النطاسى الفاضل الدكتور اسكندر بك جريدى
الطيب المعروف فى طنطا ومصر والعائد الى الوطن فى الوقت القريب .
فوقف وقفة الخطيب وشكر لجمعية الاتحاد السورى دعوتها له ليقوم
بواجب مقدس نحو سمر الأمير واسترسل فى خطابه الى ذكر مصر
وسوريا الشقيقتين العزيزتين . قال : لا يفصل بينهما سوى ذلك
القتال . قتال السويس . فاذا وقف السورى فى ضفة والمصرى
فى الضفة المقابلة يتخادنان بالود والولاء واذا مد الآخر يده الى الثانى
يتصافحان مصافحة الإخاء . وذكر ما لمصر من الفضل على السورى
وما فى فؤاد السورى من الشعور الحى نحو أبناء النيل وحكومته

والاحترام والحب للأسرة العلوية المحمدية ولا سيما عزيز مصر وخديويها
 الخالي عباس الثاني . ولقد أجاد الدكتور كثيراً وأعرب عن صدق
 في وطنيته دلت عليها لهجته وأقواله الصادرة عن وجدان حي
 واستدعى للخطابة نجيب دياب صاحب هذه الجريدة فوقف
 وحياً الأُمير وذكر ما لمصر من الأيادي البيضاء على شقيقتها سوريا
 فقد كانت ملجأً للاجئين إليها منذ أيام السيد المسيح وأمه العذراء
 مريم الى اليوم . ثم ذكر ما للأسرة الخديوية من الأيادي البيضاء
 على سوريا ومعاهد العلم فيها ومساعدة العلامة البستاني بالأموال
 الطائلة يوم ألف محيط المحيط ويوم اشتغل في دائرة المعارف وأتى
 على ذكر القصر العيني ذلك المعهد الطبي الذي أسسه جد الأسرة
 الخديوية وما له من الافضال على السوريين . ورحب بالضيف
 الكريم باسم الصحافة العربية في الولايات المتحدة وذكر بالخير
 الصحافة العربية المصرية والسورية وما أظهرته من الاهتمام في رحلة
 سمو الأمير وسياحته واحتفاء أبناء سوريا به وغير ذلك
 واستدعى رئيس الحفلة جناب الكاتب الفاضل ولیم أفندي
 كاسفليس الرئيس السابق لجمعية الاتحاد السورى فألقى خطاباً نفيساً
 امتدح به الضيف الكريم وأثنى على ديمقراطيته وتسامحه ولطفه ودعاه

أمير الأدباء وأديب الأمراء وقد جال وليم أفندي جولاته المعروفة
بالقصاحة والافتنان في الموضوعات ولا بدع في ذلك فله وقفات شهده
له بها حتى خصومه

وهنا قدم الدكتور حداد حضرة الكاتب الفاضل والشاعر المحيد
الشيخ عباس أفندي أبو شقرا أحد محرري هذه الجريدة وكاتم أسرار
جمعية الاتحاد السوري فتلا قصيدة عصماء من نظمه أعجب بها سموه
والحاضرون ومنها

أعظم يمدك مجد الترك والعرب * أخا العزيز أمير النيل والنسب
حللت في بلد تاجا على ملك * حينما ينافس فيه سائر الحقب
فرجبا بفتى العليا محمدها * ركن الأريكة وابن السادة النجب
أقبلت بدرا ينير الغرب طالعه * بساطع من جلال القدر والحسب
في هالة تأخذ الأبصار زاهية * تأقت من لباب العلم والأدب
لن تنكرت فالأفعال معلنة * كما تنكر قرن الشمس في المنجب
أوسرت مفردا لا تبغى حرسا * تظل من همم في جفيل لجب
وقدم رئيس الحلقة حضرة الفاضل الشاعر المطبوع توفيق أفندي
نغر الذي لا ينسى الأدباء رقة نظمه وسلاسته واقتنانه فتلا قصيدة
غراء نالت استحسان سمو الأمير

واستدعى أيضا قتي الشيوخ وشيخ الشعراء حضرة الفاضل ميخائيل
أفندى رسم فتلا قصيدتين من نظمه الرسمى متر بهما سمو الأمير سرورا
لا مزيد عليه وأعجبه من رسم أفندى خفة روحه فانه بمناسبة تنكر
الأمير باسم رسم بك في رحلته قال (ميخائيل أفندى رسم) في أبياته .
رد لي اسمي مع (فانظ) مستحق * ولك الشكر من مداع صغير
فاستلطف سمو البرنس هذا الشاعر الشيخ واستحسن مداعبه
وأجابه . لا أرد الاسم اليك وأى ضرر لحق بك من استعمال إياه
فقال رسم أفندى

. بل أنا أطلب بحق وأطلب ان ترد لي اسمي مع (الفرط) فأجابه

البرنس على الفور

. هو انت يهودى

ظهر بعد ذلك شيخ أبناء الذكاء ورب القول في الزجل والشعر
العامى الفاضل إلياس أفندى القران فالتقى في حضرة الأمير أبياتا زجلية
هى الفصاحة والبيان

وقدم رئيس الحفلة حضرة الفاضل عبد الملك أفندى سعد أحد
طلبة الطب في جامعة هر فرد الشهيرة في بوسطن وهو مصرى ومن
أعيان الأقباط فتلا خطابا فصيحاً رحب فيه بسمو شقيقى عزيز مصر

ولقت أنظاره إلى عظمة هذه البلاد وعلومها وفنونها وما فيها من الرقى
وتضال بسياحته خيرا للديار المصرية فسرّ الأمير به سرورا عظيما .
وهنا استدعى صاحب هذه الجريدة مرة ثانية فتاب عن حضرة
الكاتب المقتن الفاضل سليم أفندي سركيس صاحب مجلة سركيس
المشهوره في العالم العربيّ وتلا عنه خطابا كان قد أرسله الى جمعية
الاتحاد السوري ليتلى في هذه المأدبة ولا يخفى أن سركيس أفندي
وحضرة الفاضل صاحب الغزة سليم بك أيوب ثابت كانا في طليعة
المهتمين بهذه الحفلة الكبرى ومن أوّل المعجبين بها فتلا صاحب
هذه الجريدة الخطاب الآتي .

مصر في ١٥ يونيه سنة ٩١٢

حضرات الإخوان الأفاضل رئيس وأعضاء جمعية الاتحاد
السوري حفظكم الله .

كأبى هذا اليكم لتقرؤوه في الحفلة التي تقيمونها لإكرام دولة الأمير
محمد علي ليعلم دولته حفظه الله أن السوريّ في بلاد محمد علي الكبير
يشارك مع أخيه في بلاد واشنطن العظيم في إكرام حفيد الرجل
الشرقيّ العصاميّ وشقيق العباس وابن توفيق الذي قال فيه شاعر
سوريا اليازجي

الخضم ليس له إليك طريق ❀ أئى يفوز وخصمه التوفيق
 أتم أيها الاخوان قد تشرقتم في ديار الغربية بضيافة أمير مصرى
 من الأسرة العلوية الشريفة التي شرفت ابناء سور يا منذ أيام رأسها
 محمد على حتى الآن باكرامهم وتقديرهم حتى قدرهم . هذا الأمير
 محمد على شقيق أفندينا عباس الثاني وفيهما يقول شوق شاعر الحضرة
 الفخيمة الخديوية مخاطبا ساكن الجنان الخديوى توفيق
 وترى ابنك العباس مبتسما ❀ يلقى وفود العجم والعرب
 ويقول جدى فى سماحته ❀ جدى وتوفيق الزمان أبى
 والله شد بفضله عضدى ❀ بأخى على المجد والحسب
 وفى ضيفكم اليوم وفى أخيه العباس يقول شوق
 أعزة أينما حلت ركائبهم ❀ لهم مكان كما شائزا وإمكان
 تآبى السعادة الا أن تسارهم ❀ لأنهم لملوك الأرض ضيفان
 نجلان قد بلغا فى المجد ما بلغا ❀ معظم لهما بين الورى شان
 يكفيهما فى سبيل الفخر أن شهدت ❀ بفضل سبقهما روس وألمان
 هما تعرف العلية قدرهما ❀ كلاهما كلف بالمجد يقظان
 ما القرقدان اذا يوما هما طلعا ❀ فى موكب بهما يزهو ويزدان
 أيها الإخوان . لا ريب أنكم تريدون من صدقكم القديم الدائم

أن يوافقكم بشئ عن اخلاق ضيفكم الكريم فنحن بطبيعة الحال
أدرى منكم بها لاننا نقيم حيث يقيم دولته
دولة الأمير ممتاز بصدق وطنيته العنانية أو لا فالمصرية ثانياً و يتهب
قواده غيرة على الشرق ومجده وعاداته . يعشق تقدم العلم وإحياء
الصناعة ويميل الى مجارة الغرب وأن يأخذ من عاداته أحسنها على
شريطة أن لا نهمل عاداتنا الممدوحه وآدابنا العربية والشهامة التي
امتاز بها قومنا . يريد أن نكون كاليابانيين الذين زار بلادهم محافظين
على تقاليدنا في الملابس والمآكل والعادات وأن نكون على أهبة لرد
غارات الأمم التي تدعى المدنية وهما ابتلاع الأمم الضعيفة . يسوءه
كثيراً وجود الضغائن والأحقاد بين الترك والعرب والمصري والسورى
والبحركسى والالابنى الذين يجمعهم راية واحدة وعادات واحدة .
وأما أخلاق دولة الأمير فحدث بما شئت من الكرم والإخلاص
وحب إنفاة المهوف وجميل المعاشرة والابتعاد عن الكبرياء مع
الحفاظة على مقامه العالى
ودولة الأمير محمد على قوى الاعتماد بدينه فهو مسلم غيور ولكن
بدون شئ من المغالاة وهو لا يعرف الحجر ولا التدخين ولكنه مولع
بالقهوة الجيدة وله مآثر خفية فهو يتفق على كثير من الأسرات

المختاجة وعلى تربية وتعليم بعض أبنائها في مدارس أوروبا ومصر بقدر
ما تسع له ثروته

ويسرنى أن أقول ان دولته امتاز في كل زمان ومكان بحبه الصحيح
لاخيه سمو الخديوى المعظم

ان دولة الأمير الذى يشرف حفلتكم أيها الاخوان له فضل سابق
على سوريا وأبنائها فيها وفي مصر شأن جميع أفراد هذه الأسرة القديمة
وقد سمعتم ولا ريب بما كتبه في رحلته السورية عن وطنكم
وقومكم وسمعتم أيضا ما أبداه من الأريحية السامية في إطاعة أهل
بيروت يوم فاجأهم الطليان بالعداء ودولته يرى الآن أن السورى
عارف فضائل دولته في كل مكان لأننا إخوان حقا يشعر كل فرد منا
في كل بلاد بالاحسان الى كل فرد آخر . فآتم يا كرام دولة الأسيير
الكريم قد رفعتم رأسنا وحفظتم كرامتنا وتركتم في نفس دولته أجمل
تأثير سيبقى فيها إلى ماشاء الله . وخليق بى وأنا أكتب من مصر
أن أختتم رسالتى بقول الشاعر المصرى الكبير حافظ إبراهيم .

هذى يدى عن بى مصر تصالحكم • فصالحوها تصالح نفسها العرب
هذا وقد طبع الخطاب على حدة مصدرا برسم سمو الخديوى
عباس الثانى وشقيقه ضيف الجالية ووزعت نسخته على الحاضرين

وكان مسك الختام قصيدة من نظم شاعر السورين في وادى النيل حضرة الفاضل خليل أفندى المطران بعثنا لتتلى في هذه الحفلة فانتدبت الجمعية لتلاوتها حضرة الفاضل ندره أفندى الحداد نائب الرئيس الذى استدعى فليبي وتلاها بفصاحة وحسن إلقاء وقد سر بها سموه كثيرا وما وصل ندره أفندى الى البيت الاخير من قصيدة شاعر السورين في وادى النيل القائل :

جذلين نعم في صيد ❁ محتاوليتكم سعيده

حتى نهض الأمير وحاشيته وتبعهم الجمهور الى حجرة الاستقبال وهناك ودع سموه رئيس الجمعية وأعضاؤها وشيعوه بالاكرام اللائق بمقامه العالى

في منتصف الساعة الثامنة من مساء يوم (الأحد ٢١ يوليه) لبينا دعوة قبصر أفندى صباغ وقرينته السيدة نجلاء الى المأدبة التى أعدت لنا في فندق ريجنس العظيم فقابلتنا السيدة نجلاء وشقيقتها السيدة نديه عقيلة سليم أفندى مغترب بالترحيب والإكرام وصدحت الموسيقى بالتشيد الخديوى وبعد أن جلسنا قليلا في حجرة جميلة معدة لاستقبالنا فتح باب قاعة المائدة فدخلناها وجلست وعن يمينى السيدة نجلاء والى يسارى شقيقتها السيدة نديه ثم أخذ المدعوون مراكرهم .

وكانت المائدة مفروشة بالورد والأزهار وفي وسطها مصباح كهربائي
ياباني ومن فوقها تسدفق المياه من نافورة كما تسدفق مياه الجندل
والرايات المصرية والأمير يكية تزين الحجره ورسوم الخديويين العظام
في وسطها . وقد كانت الزينة أبهى وأجمل زينة ولا عجب في ذلك
فهى نتيجة ترتيب وذوق النجلاء .

وكانت المائدة وما عليها من أنغر وأبهج ما صنعته الأيدي . فالملاعق
والسكاكين و (الفرايتك) كلها من الذهب الابريز والآنية من صنع
الصين الحقيقي

وما لبثنا قليلا حتى رأينا النجلاء قد نهضت تكرما وتحتفى بنا فلفظت
الخطاب الآتى وكله درر ويشف عن أدب عال ورقى نادر .
قلت اكثر الله من أمثالها .

مولاي الأمير

إن تعطفكم وقبول دولتكم دعوتنا هذه الليلة مما يشير الى روحكم
الديموقراطية الشريفة التي هي مصدر حياة البلاد وفلاح العباد .
فبمثلكم تعتر الامة الشرقية وتجارى بأفرادها الآن ويجموعها غدا
سائر الأمم الغربية .

مولاي . لقد زرت القاهرة في السنة المنقضية فلا مسعى

ثناء إخوانى فيها على الأسرة الخديوية المعظمة وعطفها عليهم .
 وسرتنى ما سمعته عن سموكم من جميع إخوانى ومن صديق المقضال
 صاحب السعادة إسماعيل باشا أباطه من الصفات المتنازة التى
 اتصفت بها دولتكم . وعلمت من ابن عمى خليل مطران وهو
 فى مقدمة المعجبين بدولتكم أن حفيد محمد على الكبير كبير فضائله
 السامية وبأخلاقه الراقية وبعطفه على المساكين . وعلمت أيضا من
 صديق الكريم رجل الخزم والعزم سليم بك ثابت أن دولتكم كانت
 أول من منىيد المساعدة للبير وتبين يوم فاجأهم الطليان بالنكبات
 واتصل بى من صديق الفاضل سليم أفندى مركيس أن الأسرة
 الخديوية حفظها الله هى بمثابة شجرة عظيمة مسترسلة الأغصان
 يستظل بظلها أبناء وطنى فى وادى النيل .

وبلغنى أن دولتكم استحسنت زحلة مسقط رأسى ووطنى الأول
 وتكرمتهم باطرائها خاصة فى كتاب رحلتكم . فابسة زحلة السورية
 تحب بدولتكم فى هذه الديار وتقدم الى سموكم شكرا ممترجا بشعائر
 الاكرام والاحترام يكون عبارة عن وردة تزهى فى ظلال الأمير
 وتنتعش فى حديقة سمو العزيز . وانى أسأل دولة الأمير رعاه الله ليق
 بأن همته العالية مصادقة إعجابا واعتبارا من المرأة السورية كما أنها نائلة

قدرا ومكانة في قلب الرجل السورى . فالتمس من دولتكم أن تكونوا في طليعة الآخذين بناصر المرأة الشرقية ودفعتها الى الأمام لأنها قد برهنت في المدة الأخيرة التي أعطيت فيها حقوقها على مقدرة عقلية وكفاءة لمجاراة أخواتها الأوربيات في كل الأعمال العظيمة . فلبسان شقيقتى الشرقيات في هذه البلاد أرحب بكم وأثنى على دولتكم لتعطفكم وتشریفكم وأهتف بالدعاء قائلة ليحى عباس الثانى وليعش محمد على مرودة هتاف مواطنى في وادى النيل

أقلت السيدة خطيبها هذا بنات ورباطة جأش وقد كان لكلامها وقع حسن جدا في نفسى بفاهرتُ أمام الحاضرين بشدة إعجابى بفصاحة هذه السيدة الشرقية النادرة المثال ثم هتأتها وقلت لها ان أمة فيها أمثالك لا تخاف مستقبلا مظلما فكونى في راحة ضمير واطمئنان على شقيقتك الشرقيات ولقد ابتدأنا نحن الشرقيين نعرف علل تأخرنا وأهمها تربية المرأة وسنصل باذن الله الى الطرق الغربية الموصلة الى تثقيف المرأة وجعلها في مستوى مثيلاتها الغربيات وتريد عنهن بالأخلاق الصالحة الشرقية ان شاء الله

خطب بعد ذلك قيصر أفندى صباغ خطابا كله أدب وفصاحة وبيان ثم أعقبه الدكتور رزق أفندى حدا فالدكتور اسكندر جريدنى

وبعد الفراغ من تناول الطعام انتقلنا الى غرفة الجلوس وهناك أنشدنا فيليب أفندي كاتسفليس نشيد مريض يحب وطنه سوريا فطربنا منه واستعدناه مرارا وأخيرا انصرفنا بعد أن شكرنا لطف الداعية وهمة قرينها الفاضل

في صباح يوم (الاثنين ٢٢ يولييه) ركبنا عرببة وذهبنا لشراء كتب هندسية تختص بالعمارات الأميركية لاهدائها لصديقي محمود بك فهمي باشمهندس الأوقاف وعند عودتنا الى الفندق أخبرت أن فضيلة العالم الشرق الجليل عباس أفندي زعيم البهائيين يريد مقابلي فضربت له موعدا في الساعة الثالثة بعدظهر هذا اليوم وفي الساعة الثانية حضر عندي جلال بك قنصل تركيا بالولايات المتحدة فوجدته رجلا كاملا تدل هيئته على الرزانة والكمال ومن حديثه وثقت من اقتداره وكفاءته فقرحت به ودعوت الله أن يكثر من أمثاله العثمانيين خصوصا بين موظفي السفارات بأروبا

حضر بعد ذلك عباس أفندي فقابلته مرحبا به معظما له ولم تؤثر الشيخوخة في ذكائه المفرط فانه مكث معي نحو ساعة من الزمن وهو يحدثنى في موضوعات شتى مفيدة جدا دللت على سعة اطلاعه وكثرة اختياره فهو اذا رجل العلم وعظيم من عطاء الشرق

بعد انصراف هذا الشيخ الجليل استأجرنا سيارة ذهبنا الى منزل قيصرا أفندي صباغ وقرينته المحترمة لشكرهما على دعوتهما ولما لم نجدهما تركت لهما بطاقة زيارتي ومعها الخطاب الآتي

حضرة المصونة الفاضلة مدام صباغ

أقدم لحضرتك عظيم شكرى على الدعوة الاكرامية الجميلة التي دعوتنى اليها أمس وأعترف لك بكل ماسمعته عن آدابك العلية ومكانتك الراقية فقد رأيتك فيك بمجرد أن تعرفت بحضرتك . وقد أعجبنى منك كثيرا قلب السيدة الكاملة الذكية المحبة لبلادها ووطنها فضلى أيتها السيدة المهذبة خالص سلامى وشكرى لما سمعته منك البارحة من العبارات الرقيقة والثناء الحسن على وعلى أسرتى وبلادى ذهبتا بعد ذلك لرد الزيادة لعباس أفندى فوجدنا منزله صغيرا ولكنه جامع لكل أسباب الراحة والنظام وقد كانت حاشيته مؤلفة من عشرة أشخاص وعلى رؤوسهم (القلبيق الفارسى) فعرفت من هذا الترتيب أن هذا الشيخ المحترم وقف على موضع ضعف الأمريكيين فاستصحب معه هذا العدد الكبير ليلفت أنظارهم اليه ولم أرد بذلك أن أحط من قدر الرجل فان صنيعه هذا يدل على ذكائه ومعرفته الطرق الذى بها يؤثر فى نفوس القوم فيقتادهم اليه أما خطاباته الكثيرة

المؤثرة فانها أخذت دورا عظيما في أمريكا وقد كانت اذ ذاك حديث الجرائد ينشرونها ويعلقون عليها آراء علمائهم الدينيين وبالجملة قد توصل باقتداره الى بلوغ الدرجة التي يحسده عليها الحاسدون . وقد مكثت معه زمنا أحادهه ويحادثني فيطربني بلذيق كلامه ثم انصرفت من عنده وأنا أحفظ له في قلبي المودة والاحترام . قبل أن تزايل مدينة نيويورك أرسلت لحضرات رئيس وأعضاء جمعية الاتحاد السورى الكلاب الآتى .

إن ليلة الحفلة التي قتم بها كانت بالغة غلظة الكمال والجمال . وما قاله شعراؤكم وخطباءؤكم ورجال صحافتكم أثناء حضورى أثر في نفسى أعظم تأثير وقد وثقت أن احتفاءكم بي كان صادرا عن إخلاص صحيح ووداد متين وكان ذلك ظاهرا على وجوهكم الفرحة الناطقة بما تكنه أفتدتم من السرور فشكرا لكم على ما أبدىتموه من التجلة والاكرام لى ولأمرئى وجدودى ولذ كرم بلادى المحبوبة مصر بكل افتخار وإعظام وإعجاب وكما أنى رأيت هذا السرور العظيم باديا عليكم كنت من نفسى فى سرور عظيم لوجودى بين إخوانى الشرقين فى موقف ظهرت فيه صلوات الوداد بأجلى مظاهرها والاخلاص الحقيق فى أبهى حله . فادعوا الله أن يزيد هذه الصلوات مثانة

ويقوى بيننا الاتحاد والألفة حتى يصلنا الى الدرجة التي أتمناها
وبتمناها كل شرقى محب لبلاده وأمه . وأختتم كتابي بوداعكم في حفظ
الله وحراسته مؤكداً أنني لأنسى هذه الذكرى الحسنة وأتوسل اليه
سبحانه وتعالى ألا تكون هذه المظاهرة الودادية خاتمة المظاهرات
التي تحكم الروابط والعلاقات بيننا والسلام ما

في يوم (٢٣ يولييه) زابلنا نيويوروك الى أوروبا فودعنا على البانحة
قيصر ويلهام (Kaiser Wilhelm II) قنصل تركيا المحترم وحضرات
رئيس وأعضاء الاتحاد السورى الذين قدموا لنا باقة ورد باهرة
وقدم لنا حضرة قيصر أفندى صباغ سلة زهور جميلة

سارت بنا السقيفة تحفها العناية الالهية فأخذت تشق عباب ذلكم
لتخضم راحلة بنا عن عالم الدنيا الجديدة الى عالم الدنيا القديمة . فاذا
نظرت ورأى رأيت أمريكا بلاد العجائب أمام عيني وشواطئها أخذت
تغيب عن ناظرى وعمما قليل تتوارى خلف حجاب من البحر
لا تحترقه العيون ولكن كلما غاب جزء منها عن عيني ظهر خياله
في فؤادى وما زالت الحقيقة تصغر فتخفى والخيال يعظم فيتجلى
حتى توارت أمريكا كلها عن ناظرى فتمثل خيالها أمامى أنظره بعين
القلب حتى خيل الى أنى مازلت فى أمريكا أجول فى أرجائها متنقلا

بين جبالها وودادها وبدوها وحضرها وآكامها وآجامها وفتادقها
وأكواخها وجنادلها وأتارها وجزائرها وبحيراتها وأبيضها وأحمرها وإذا
نظرت أملحى ووجهت وجهي شطر بلادى تذكرت الديار والأهل
والخللان وتمثل في قوادى وطني المحبوب فهاجت الذكري شوقى اليه
وحنت اليه حنين ابن الرومى في غربته الى بغداد وطنه اذ يقول فيها :
بلد صحبت به الشبية والصبا ❁ ولبست ثوب العيش وهو جديد
فاذا تمثل في الضمير رأيت ❁ وعليه أغصان الشياح تميد
وبينا أنا غارق في ذكر بلادى والحنين اليها اذا بي ملتفت ورائى
فأذكر أمريكاً ثم لأبث أن أعود الى ذكر بلادى وهكذا بقيت
نفسى بين علملين يتجادبانها الشوق الى الديار والحنين اليها وذكر أمريكاً
وأهلها والنازحين اليها من إخوانى أبناء الشرق وتلك الأيام التي
قضيتها فيها بين حل وترحال باحثاً في العادات مقارناً بين الأخلاق
مشاهداً لآثارها مطلعاً على عجائبها ممتعاً برياضها وبيع مناظرها
ولكنى قلت في نفسى إن كل لحظة تمر تقصيني عن أمريكاً وتدنيني
من بلادى فبلادى آتية وأمريكاً ذاهبة بخديري أن أتفرغ لتلك
الذاهبة لحظة لأناجيها بكلمة وداع فأقول :

سلام على الدنيا الحديثة . سلام عليك يا أمريكاً . وعلى أبنائك

اولى الجهد والعمل . أولى الآمال الواسعة . والغايات الشاسعة . سلام عليك ما آتيت أبناءك مفاتيح كنوز ارضك بخنوا ما على ظهرها وما فى بطونها من الخير العظيم حتى أوشكوا ان يكونوا جميعا أولى ألوف مؤلفة وقناطير مقنطرة من الذهب والفضة . سلام عليك ما أقبلت باسمه على أبنائك البيض المحدثين وان أدبرت عابسة عن أبنائك الحمر الأقدمين (وهذه عاقبة كل قوم أهملوا فى استخراج خيرات بلادهم إذ يسלט الله عليهم من يعرفون قيمة تلك الخيرات فيتمتعون بها وأهلها محرومون) . سلام عليك وعلى أبنائك الذين عرفوا فضل العلم فأثقفوا المال (على حبه) فى إنشاء مدارسك العامرة وجامعاتك الزاهية . سلام عليك ما أمك من هجروا بلادهم متجعجين فوسعهم صدرك وإن جنى جل ثمار أعمالهم البيض من أبنائك السائدين . سلام عليك ما أقرن أبنائك فى أساليب الكسب وضروب الإعلان . سلام عليك ما تنافس أبنائك فى أسواق التجارة حتى ملكوا ناصيتها فى سائر بقاع الأرض . سلام عليك ما تمتعت بأبنائك وبناتك بنعمة الحرية وان كانت مطلقة لاحد لها . سلام على قصورك الشائخة التى أوشكت أن تسامى السماء . سلام على ما خصك الله به من الآيات الدالة على عظيم قدرته من جبال وأنهار

وينايع وأشجار وجنادل مناظرها رائعة تقف العقول أمام عظمتها
 حائرة . سلام عليك ما اتسع أمام أبنائك مجال الخيال . وفتحت
 أمامهم أبواب الغلور حتى أرونا من الحبة قبة وخيلوا لنا أن الصخور
 الساكنة نسور طائرة والأشجار الصامته أسود زائرة . سلام عليك
 مادمت دار هجرة لمن ضاقت به بلاده ونبذته أوطانه فالتقى فيك سائر
 الأجناس البشرية . سلام عليك ملوفد اليك الوافدون ورحل عنك
 الراحلون . احبيك تحية الوداع ولى فيك وديعة فأوصيك بها خيرا
 حتى ترد الى أهلها . أما تلك الوديعة فهي أتم إخوانى أبناء الشرق
 السوريين . هاأناذراحل الآن عنكم ولكن صلوات الودّ تربطنى بكم
 ولو شط المزار . فاستودعكم الله الذى أسأله أن يكلكم بعين عنايته
 ويوفقكم الى ما فيه سعادتكم ويسدد خطاكم فى سبل النجاح فى جميع
 أعمالكم . ويديم بينكم الألفة والتعاون على الخير وينمى فى نفوسكم
 ماقرأته على وجوهكم ونطقته به ألسنتكم من الحب العظيم لبلادكم
 والاخلاص لدولتكم وأمنى أنى تعودوا بعد أن تناولوا غاياتكم الى
 أوطانكم سالمين حتى تعملوا فيها بما رأيتكم عليه من الجهد فى دار هجرتكم
 وتضافروا على إسعادها ورفع شأنها فقيموا من أعمالكم العظيمة حجة
 بينة على من ينكر على الشرقى استعدادة للقيام بجلائل الأعمال والسلام .

قد فرغت الآن من أمريكا ووداع أبنائها والنازحين إليها فلا أعد الى ذكر بلادى وأهلها لأخطبهم من وراء البحار بكلمة صغيرة في السياحة وما يجب أن يقصد منها ولأجعل تلك الكلمة خاتمة رحلتى فأقول : السائح يجب أن يكون همه الأول من سياحته منصرفا الى تنقيف عقله وتوسيع نطاق معارفه بدروس السياحة العملية فكل يوم يمر عليه دون أن يزداد فيه علما نافعا له أو لني أمتة فلا يورك له في طلوع شمس ذلك اليوم . ولا يتم ذلك لسائح الا اذا راض نفسه ودرّجها على اليقظة والتنبه لكل ما يقع تحت حسه (وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) مع إنعام النظر ودقة البحث حتى لا يكتفى في حكمه على ما يرى بالوقوف عند ظواهره دون أن ينفذ فكره الى ما وراءه من مواطن كثيرا ما تخالف تلك الظواهر فينبى حكمه على خطأ في النظر فيكون مضلا وخليق به أن يكون هاديا . (يعلم حقيقة ما أقول كل من وقف على ما كتبه السائحون من أبناء الغرب عن الشرق وعوائد أهلها وأخلاقهم فقد نسوا للشرقيين كثيرا من عوائد وأخلاق لا يعرفونها لأنهم كتبوا ما أمله عليهم (الظواهر) عليه اذا ما حل بأرض قوم أن يبحث في عوائدهم وأخلاقهم والجماعات التي تجمعهم من دين أو جنس أو مصلحة

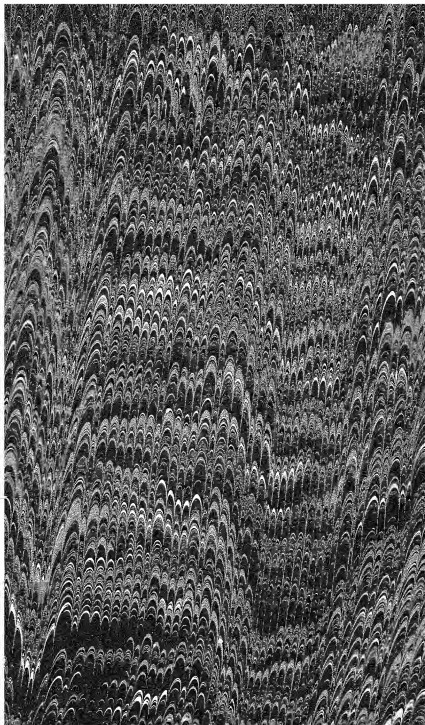
وبالجملة يبحث ما استطاع في سائر اعمالهم وشؤونهم لاسيا الاجتماعية منها ولا يألو جهدا في التفكير لرد كل شئ من ذلك الى أصله الذى بنى عليه والوقوف على آثار تلك العوائد والأخلاق والجامعات في شؤونهم العامة من رقى أو انحطاط وقوة أو ضعف مراعى في كل ذلك أحكام الزمان والمكان حتى اذا مملأت نفسه آيات العبر واعتدى الى معرفة وسائل النجاح كما علم دواعى الفشل عاد الى بلاده بشيرا ونذيرا فأرشدهم الى سبل الهدى وحثهم على سلوكها ونبههم الى مهوى الضلال وحذّروهم من الوقوع فيها . لا أريد بذلك أن يقتل السائح كل وقته في التفكير فيهنك قواه العقلية ويحرم نفسه من التمتع بما يسرّها فان ذلك إفراط وكل إفراط حليفه العجز دون الوصول الى الغايات (ان المُنَبَّه لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى) وربما كان السائح في بلاده من أولى الأعمال العقلية وما رحل عن بلاده الا بعد أن يبلغ منه الجهد وطلبت نفسه الراحة من عناء التفكير فإذالم يجد في سياحته من دواعى السرور ما يشرح الصدور ويرد اليه مآذبه به التعب من قوة عقله وبدنه فلا سبيل الى الاستفادة من سياحته . - فنعيم هو البال لمكثود - وانما أريد الا يجعل السائح همه في سياحته منصرفا الى اللهو واللعب والانهماك في اللذات والانغماس في الشهوات

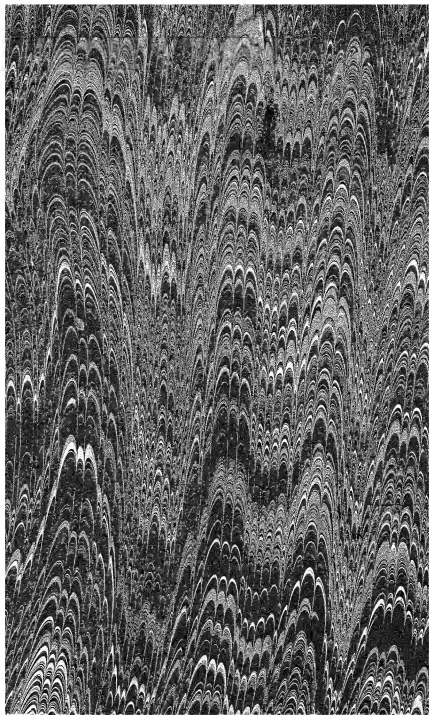
حتى اذا رجع الى بلاده رجع حاوى العقل من كل فائدة بعد أن
أنفق وقته وماله بل ربما عاد الى أهله وقد خلف قلبه عند من
لا يحفظه رهنا بموافاته في عام مقبل .


وانى ليحزنى أن أرى كثيرا من إخوانى أبناء الشرق الأغنياء ولا
سبا المصريين يرحلون عن بلادهم في صيف كل سنة الى الأقطار
الأوربية ولا هم لهم الا أن يطلقوا لأنفسهم هناك أعتها تناسق
في ميادين الشهوات وتسبح في بلج الملاهي حيث الحرية المطلقة
والسنة النقد موثقة وعيون الانكار مغضبة فلا زاجر الافضيلة
راحنة وضمير طاهر وأنى لفضيلة لا تذهب وضمير طاهر لا يدنس مع
هذا الانفاس في حماة الرذائل فيعودون الى بلادهم وقد خسروا
الفضيلة والمال مع أن من بينهم العلماء الأجلاء أولى العقول الراجحة
والآراء الناضجة ممن لا يعجزهم الاصلاح لو أرادوه ولا يستعصى عليهم
الارشاد لو قصدوه . فكأنهم نسوا أن لبلادهم في أعناقهم حقوقا
تطالبهم بأدائها مع أن الأمم الشرقية اليوم أمام هذا السيل الجارف
من المدينة الغربية التي التبس على أبناء الشرق أمرها فلم يميزوا بين
محاسنها ومساوئها ولم يعرفوا الى أين يذهب بهم هي في أشد الحاجة
الى أبنائها المتعلمين الذين يميزون لإخوانهم التحيث من الطيب

ويبحثون عن أدويتها لاسيما داء التفرق وأمراض الأخلاق وعلل الجهل التي كادت تفتك بها فيستأصلونها بالعلاج الناجع وينبهونها الى مهاوى الفناء التي حفرت لها حتى تأخذ حذرهما قبل السقوط فيها .
 فهل منا من سأل في بلاد الغرب (والسائحون كثيرون) فبحث هنالك عن وسائل نهوض تلك الأمم وأسباب رقيها ثم عاد الى بلاده فأخذ يوقف أهلها على تلك الأسباب ويبحث قومه على التمسك بها .
 لو قام السائحون منا بذلك وأخلصوا في عملهم لأصبحنا اليوم نرى المعامل الصناعية الوطنية منتشرة في بلادنا والشركات التجارية مؤسسة بأموالنا والجامعات العلمية تخرج العلماء الأجلاء في كل علم من أبنائنا وهناك يتم لنا الاستقلال الاقتصادي ولنا من ورائه كل خير وسعادة .
 فعار علينا ونحن أبناء أمة ذات مجد باهر وتاريخ عاطر أن نموت بداء الغفلة وتبدينا علة الجهل .

هذه نصيحتي قد أخلصتها لكم وأسأله تعالى أن يؤلف بين قلوبنا ويرشدنا الى طريق النجاح في دنيانا وال فوز برضاه ونعيمه في آخرنا إنه على كل شيء قدير . وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وعلى آله وصحبه المرشدين الأتقياء .





 Bibliotheca Alexandrina



0378489